كلاسيكيات أثر Athar Classics

#13

شيرلي جاكسن

23.9.2018

سكنى منزل التل

ترجمة ريوف خالد



سكنى منزل التّل

شيرلي جاكسون

ترجمة

ريوف خالد



سكنى منزل التلّ

سكنى منزل التلّ / رواية

تأليف: شيرلي جاكسون

الطبعة الأولى 1439 / 2018

ردمك: 978-1-947836-12-9



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net



إلى ليونارد براون.

الفصل الأول

(1)

لا يستطيع أي كائن حي أن يحافظ على عقله سليمًا من العطب لوقت طويل في ظل الواقع المحض، حتى القبرات والجنادب، يعتقد البعض أنها تحلم. منزل التلّ ذاته، وهو ليس عاقلًا، صمد بمفرده أمام تلاله، محمّلًا بالظلمة في داخله، لقد صمد ثمانين سنة، وقد يصمد ثمانين أخرى. في الداخل، جدرانه ما زالت منتصبة، قرميده يلتقي بإتقان، ألواح الأرضيّة متراصّة، والأبواب مغلقة كما يجدر بها أن تكون؛ يمتد الصمت باطّراد على خشب منزل التلّ وحجره، ومهما يكن ما سار هناك، فإنه سار وحيدًا.

د. جون مونتاغيو أستاذ الفلسفة، حصل على درجته في الأنثروبولوجيا، شاعرًا بشكل مبهم أن هذا التخصص قد يجعله أكثر قربًا إلى ميله الحقيقي؛ تحليل الظواهر الماورائية. كان حذرًا في استخدام لقبه، لأن بحثه لم يكن علميًا تمامًا، أَمِل أن يحصل على جانب من الاحترام، أو حتّى أهميّة أكاديميّة من خلال تعليمه. لقد كلّفه استئجار منزل التلّ لثلاثة أشهر الشيء الكثير، من المال والكبرياء، فلم يكن رجلًا شحّاذًا، لكنه توقّع أنه سيُعوَّض عن آلامه بالشهرة التي ستعقب نشر عمله الفريد حول أسباب الاضطرابات النفسية وآثارها في منزلٍ يعرف بأنه "مسكون". لقد كان يبحث عن منزلٍ مسكون

حقًا طيلة حياته. عندما سمع بمنزل التلّ كان متشكّكًا في بادئ الأمر، ثم متأملًا، ثم مُلحًا، لم يكن بالرجل الذي يفرّط في منزل التلّ حينما عثر عليه.

خطة د. مونتاغيو بخصوص منزل التلّ مأخوذة من خطط صائدي أشباح القرن التاسع عشر المغامرين، إذ سيذهب إلى منزل التلّ ويعيش هناك ويرى ما يحدث. كان ينوي اتّباع نموذج السيّدة المجهولة التي أقامت في منزل "بالتشن" وعقدت حفلة منزليّة طيلة الصيف، للمؤمنين والمتشكّكين، مع مباريات كروكيّة، ومشاهدة الأشباح بصفتها اغراءات استثنائية، لكن زيارة المؤمنين والمتشككين ولاعبي الكروكيّة الجيدين باتت أصعب هذه الأيام.

كان د. مونتاغيو مجبرًا على دعوة مساعدين، على الأرجح قد خبت سبل الحياة الفيكتورية المترفة التي كانت تمنح نفسها بطواعية أكثر لأدوات البحث النفسي، أو للتوثيق المثابر للظواهر على نطاق واسع بصفتها وسائل لتفحّص الواقع، على أية حال، لم يكن على د. مونتاغيو أن يدعو المساعدين وحسب، بل أن يبحث عنهم ابتداءً.

لأنه يعتبر نفسه حذرًا وحي الضمير، أمضى وقتًا معتبرًا في البحث عن مساعدين. مشّط سجلات الجمعيات النفسيّة، الأعداد القديمة للجرائد المثيرة، تقارير الباراسيكولوجيين، وأنشأ قائمة بأسماء الأشخاص الذين قد تعرّضوا إلى أحداث غير طبيعيّة بطريقةٍ أو بأخرى، في وقتٍ أو في آخر، لا يهم قدر إيجازها أو موثوقيّتها. أقصى من قائمته غير النافعين أولًا. بعد أن علّم أسماء أولئك الذين بدوا له طالبي شهرة، أو أصحاب الذكاء المتدنّي، أو غير الملائمين جرّاء ميلهم الواضح إلى أن يكونوا محط الأنظار، بقت لديه قائمة ربّما بدزينة أسماء. كل فرد من هؤلاء تلقى لاحقًا رسالة من د. مونتاغيو تتضمن دعوةً لقضاء الصيف أو بعض أيامه في منزل ريفي مريح، قديم لكنه مجهّز تمامًا بسباكة وكهرباء وتكييف مركزي، ومراتب أسرّة نظيفة. الغرض

من الإقامة، بيّنت الرسالة بوضوح، ملاحظة ودراسة القصص البغيضة المتعددة التي أُشيعت حول المنزل خلال أغلب سنوات وجوده الثمانين. لم تقل رسائل د. مونتاغيو صراحةً أن منزل التلّ كان مسكونًا، لأن د. مونتاغيو رجل علم، حتى يشهد حقًا ظاهرة نفسيّة في منزل التلّ، فلن يترك الأمر للحظ. ومن ثمّ، كان في الرسالة وقار غامض متعمّد لتعلقَ في خيال نوع مميز من القراء. تلقى د. مونتاغيو أربعة ردود على دزينة الرسائل التي بعثها، على الأرجح قد انتقل المرشحون الثمانية، أو ربّما أكثر، الآخرون دون ترك عنوان لتوجيه الرسائل إليه، أو ربّما فقدوا اهتمامهم في الظواهر الماورائية، أو ربما لم يوجدوا إطلاقًا. كتب د. مونتاغيو للأربعة الذين ردّوا مجدّدًا، محدّدًا يومًا يعتبر فيه المنزل رسميًا شاغرًا للإيجار، مرفقًا وصفًا مفصّلًا لبلوغ المنزل، حيث، إذ اضطر للتوضيح، من الصعب جدًا الحصول على معلومات العثور على المنزل، خاصةً من المجتمع الريفي المحيط به. في اليوم الذي يسبق المغادرة إلى منزل التلّ، يفترض أن يأخذ د. مونتاغيو إلى رفقته المختارة ممثلًا من العائلة المالكة للمنزل. وصلته برقيّة من أحد مرشحيه ينسحب مع عذر مختلق بوضوح. الآخر لم يأت ولم يكتب قط، ربّما بسبب مشكلة شخصية ملحّة قد طرأت له. أما الاثنتان الأخريان جاءتا.

(2)

إلينور ڤانس كانت في الثانية والثلاثين عندما جاءت إلى منزل التلّ، الشخص الوحيد الذي تكرهه بصدق، بما أن والدتها قد ماتت؛ أختها. كانت تبغض صهرها وابنة أختها ذات الخمسة أعوام، كما لم يكن لديها أصدقاء. يعود هذا بشكلٍ كبير إلى الإحدى عشرة سنة التي كانت قد قضتها في رعاية والدتها المقعدة، الرعاية التي خلّفت لديها بعض البراعة التمريضية وعجزًا

عن مواجهة ضوء الشمس القوي دون أن ترمش.

لا تستطيع أبدًا أن تتذكر أوقاتًا كانت فيها سعيدة حقًا خلال شبابها، حيث كانت سنواتها مع والدتها مبنية على الشعور بالذنب والعتابات الصغيرة، الإرهاق المزمن والخيبة الممتدة. لقد أمضت سنينها وحيدةً، دون أن ترغب قط في أن تكون متحفظة أو خجولة، دون أحدٍ تحبّه، قد كان صعبًا بالنسبة لها أن تتحدّث، حتى عفوًا إلى شخص آخر دون أن تشعر بالخجل أو العجز المُربِك عن إيجاد الكلمات. وصل اسمها إلى قائمة د. مونتاغيو لأنها في أحد الأيام، عندما كانت في الثانية عشرة، وأختها في الثامنة عشرة، ووالدهن متوفٍ منذ ما لا يزيد على الشهر، سقط زخ من الحجارة على منزلهن فجأةً، دون إنذار ولا إشارة إلى الغرض أو السبب. انهالت من السقف، تدحرجت على الجدران بصخب، حطّمت النوافذ، طرقت السطح بشكل مغيظ. استمرت الحجارة في السقوط بشكل متقطع ثلاثة أيام، وخلال هذا الوقت أثخن الجيران والمتفرجون الذين تجمعوا يوميًا أمام الباب الأمامي إلينور وأختها أكثر من الحجارة، إضافة إلى إصرار والدتهن الهستيري الأعمى على أن كل هذا بسبب أناس شريرة مغتابة في الحيّ يكيدون لها منذ أن جاءت إليه. بعد ثلاثة أيّام، نُقِلَت إلينور وأختها إلى منزل صديق، فتوقّفت الحجارة عن السقوط، ولم تعد قط. مع هذا، عادت إلينور وأختها وأمها إلى العيش في المنزل، بينما لم تنته الخصومة مع كل الجيرة قط. نسي الجميع القصة باستثناء الأشخاص الذين استشارهم د. مونتاغيو. قد نسيتها إلينور وأختها اللتين اعتبرت كل واحدة منهن أن الأخرى كانت المسؤولة.

في الخفاء، منذ ذكراها الأولى، انتظرت إلينور شيئًا مثل منزل التلّ. خلال العناية بوالدتها، من حمل المرأة العجوز النزقة من المقعد إلى السرير، تقديم صوانٍ لا منتهية من الحساء والشوفان، إعداد نفسها لتحمّل الغسيل المتّسخ،

أثناء كل هذا تمسّكت في إيمانها بأن شيئًا سيحدث يومًا ما. لقد قبلت الدعوة إلى منزل التلّ بجواب بريدي، رغم أن زوج أختها قد أصرّ على مكالمة بعض الأشخاص ليتأكد من أن هذا الأستاذ لا يرمي إلى تعريف إلينور بطقوس همجيّة، ذات علاقة بأمور اعتبرت أخت إلينور أنه من غير اللائق بشابة عزباء معرفتها. "ربّما،" همست أخت إلينور في خصوصيّة غرف نومها مع زوجها، "ربّما د. مونتاغيو - لو كان هذا اسمه حقًا - ربّما أن د. مونتاغيو هذا يستخدم النسوة في بعض.. حسنًا.. التجارب. كما تعلم.. التجارب، كما يفعل بعضهم." أسهبت أخت إلينور بتفصيل حول التجارب التي سمعت بأن مثل هؤلاء الأساتذة يقومون بها. لم يكن لدى إلينور أي فكرة، وربما كان لديها، لكنها لم تكن خائفة. إلينور، بالمختصر، كانت ستذهب إلى أي مكان.

ثيودورا، كان هذا الاسم الذي عُرفت به؛ رسوماتها كانت موقعة بثيو، بينما على باب شقّتها ونافذة متجرها وقائمة هاتفها وأدواتها المكتبية الباهتة وأسفل صورتها الجميلة الموضوعة على المدفأة كان الاسم دائمًا "ثيودورا" وحسب. لم تكن ثيودورا تشبه إلينور إطلاقًا. الواجب والضمير كانا بالنسبة لثيودورا صفتين تتصف بهما فتيات الكشافة. كان لها عالم من الألوان الناعمة البهيجة، وصلت إلى قائمة د. مونتاغيو لأنها - يوم جاءت ضاحكة إلى المختبر، جالبةً معها دفقة من عطر الورود -كانت قادرة بشكلٍ ما، وهي مندهشة ومثارة من مهارتها الرائعة، على تمييز ثماني عشرة ورقة لعب من عشرين، خمس عشرة ورقة من عشرين، تسع عشرة ورقة من عشرين تمييزًا صحيحًا، من مجموعة أوراق كان يحملها مساعد المختبر بعيدًا عن مجال سمعها وبصرها. لمع اسم ثيودورا في سجلات المختبر وهكذا حتمًا لفت انتباه د. مونتاغيو. تسلّت ثيودورا برسالة د. مونتاغيو الأولى، وأجابتها من باب الفضول (ربما المعرفة اليقظة في ثيودورا التي أخبرتها أسماء الرموز على

أوراق اللعب المقلوبة دفعتها نحو طريقها إلى منزل التلّ)، مع هذا كانت تنوي رفض الدعوة تماماً. ثم - ربّما اشتغل الدافع المثير مرة أخرى - عندما وصلت رسالة التأكيد من د. مونتاغيو، كانت ثيودورا قد أُغوِيَت، ودخلت في شجار عنيف على نحو عشوائي وأعمى مع الصديقة[1] التي تشاركها السكن في الشقة. الأشياء التي قالها الطرفان لا يمحوها سوى الزمن. حطمت ثيودورا عمدًا وبقسوة التمثال الصغير الجميل الذي نحتته لها صديقتها، صديقتها مزّقت بوقاحة مجلد ألفريد دي موسيه قِطعًا، وهو الذي كان هدية عيد ميلاد من ثيودورا، باذلة جهدًا خاصًا في تمزيق الصفحة التي تحمل إهداء ثيودورا الحنون المشاكس. هذه الأفعال لا تنسى بالطبع. سيمضي زمن قبل أن تستطيعان الضحك عليها معًا؛ كتبت ثيودورا تلك الليلة إلى د. مونتاغيو تقبل دعوته، غادرت اليوم التالي في صمتٍ بارد.

كان لوك ساندرسن مخادعًا، ولصًا أيضًا. عمّته، مالكة منزل التلّ، كانت مولعة بالإشارة إلى أن ابن أخيها حصل على أفضل تعليم، لديه أفضل ملابس، أفضل ذوق، وأسوأ رفاق فيمن عرفت على الإطلاق. تستغل أي فرصة لتجعله بعيدًا عنهم في مأمن لبضعة أسابيع. كان محامي العائلة مضطرًا إلى اقناع د. مونتاغيو بعدم امكانية تأجير المنزل بأي حال من الأحوال، دون وجود فرد من العائلة أثناء إقامته، وربّما في اللقاء الأول أدرك د. مونتاغيو شيئًا من القوة في لوك، أو ربما غريزة حماية النفس كالتي عند القطط، الأمر

1- لم تحدّد الروائية شيرلي جاكسن جنس المعني، واستمرت تشير إليه بشكل مبهم، "The friend, her frined, Theodora's friend." في مقدمة لورا ميلر لطبعة دار بنغوين المنشورة عام ٢٠٠٦م، ذكرت أن جاكسن كتبت رسالة لم تبعثها، إلى هوارد نيمروف تتذمّر فيها من أكاديمي أشار إلى اكتشافه ثيمات مثليّة في روايتها الأولى، قائلةً أنها لا تكتب عن ازدواجيّة الجنس، لم تشر فيها إلى احتمالية أن المعني بقولها 'Theodora's friend.'. فتى، ما حملني على ترجمتها بهذا الشكل.
ملاحظة: كافة الحواشي من إضافة المترجمة.

الذي جعله تائقًا بقدر توق السيدة ساندرسن إلى بقاء لوك معه في المنزل. على أية حال، كان لوك مستمتعًا، وعمته ممتنة، ود. مونتاغيو أكثر من راضٍ. أخبرت السيدة ساندرسن محامي العائلة بعدم وجود شيء في المنزل قد يسرقه لوك. قالت للمحامي إن الفضة القديمة فيه لها بعض القيمة، لكنها تمثل صعوبة مستحيلة بالنسبة للوك، فسرقتها وتحويلها إلى نقود تتطلب طاقة. ظلمت السيدة ساندرسن لوك؛ لم يكن من الممكن أن يسرق لوك فضّة العائلة، ولا ساعة د. مونتاغيو، ولا سوار ثيودورا. كان انعدام أمانته محدودًا بأخذ مبلغ تافه من حقيبة يد عمته، والغش في لعب الورق. كما كان ميّالًا إلى بيع الساعات وعلب السجائر المهداة إليه بحنان وخجل جذّاب من صديقات عمته. سيرث لوك منزل التلّ يومًا، لكنه لم يتخيل قط أنه سيعيش فيه.

(3)

"لا أعتقد أنه يجدر بها أخذ السيارة وحسب، هذا كل شيء،" قال صهر إلينور بعناد.

"إنها سيارتي مناصفةً،" قالت إلينور، "لقد ساهمت في الدفع لشرائها."

"لا أعتقد أنه يجدر بها أخذها، هذا كل شيء." قال صهرها. توسّل إلى زوجته: "ليس عدلًا أن تستفيد منها طيلة الصيف، بينما نحرم نحن."

"كاري تقودها طيلة الوقت، وأنا لم أخرجها حتى من المرآب قط." قالت إلينور، "إضافة إلى أنكم ستكونون في المناطق الجبليّة طيلة الصيف، ولا يمكنكم استخدامها هناك. كاري، تعلمين أنكِ لن تستخدميها في الجبال."

"لكن افرضي أن ليني الصغيرة المسكينة مرضت أو حدث شيء ما؟ واحتجنا إلى سيارة لنأخذها إلى الطبيب؟"

"إنها سيارتي مناصفةً!" قالت إلينور، "وقد عزمت على أخذها."

"افرضي حتى أن كاري مرضت؟ افرضي أننا لم نعثر على طبيب واحتجنا الذهاب إلى مستشفى؟"

"أريدها، عزمت على أخذها."

"لا أظن ذلك" تحدّثت كاري ببطء متعمّد "نحن لا نعلم إلى أين ستذهبين، هل نعلم؟ لم تري ضرورة لتخبرينا الكثير عن وجهة رحلتك، هل فعلتِ؟ لست مقتنعةً على الإطلاق بما يكفي لأدعكِ تستعيرين سيّارتي."

"هذه سيارتي مناصفةً"

"لا،" قالت كاري، "لا يمكنكِ أخذها."

"صحيح" أومأ صهر إلينور، "نحتاجها، كما تقول كاري."

ابتسمت كاري ابتسامة خفيفة "لن أسامح نفسي أبدًا يا إلينور، إذا أعرتكِ السيّارة وحدث شيء. كيف لنا أن نعرف أن باستطاعتنا الثقة في ذلك الأستاذ؟ ما تزالين امرأة شابّة في النهاية، والسيارة تعادل الكثير من المال."

"في الواقع يا كاري، لقد اتصلت بهومر من مكتب الاقتراض. وقال إن هذا الأستاذ كان ذا منصب جيد في كليّة وما شابه..."

قالت كاري، وما تزال مبتسمة:"طبعًا، توجد كل الأسباب لاعتباره رجلاً محترمًا. لكن إلينور اختارت ألا تخبرنا إلى أين هي ذاهبة، ولا كيف نصل إليها إذا ما أردنا استعادة السيارة؛ قد يحدث شيء، ربما لن نعلم أبدًا. حتى لو أن إلينور،" أكملت بلطف، مخاطبةً قدح الشاي بيدها "حتى لو أن

إلينور مستعدة للهرب إلى آخر الدنيا في إجابة لدعوة أي رجل، فلا يوجد بعد مسوّغ حتى يُسمح لها بأخذ سيارتي معها."

"إنها سيارتي مناصفة"

قال: "افرضي أن ليني المسكينة الصغيرة مرضت، هنالك في أعلى الجبال، دون أحد حولنا؟ دون طبيب؟"

"على أي حال يا إلينور، أنا متأكدة من أنني أفعل ما كانت أمنا تعتقد أنه الأفضل. أمنا منحتني الثقة، ومؤكد أنها لن توافق أبدًا على تركي إيّاكِ تعبثين، ذاهبةً إلى مكان وحده الرب يعلم أين هو، بسيارتي."

قال: "افرضي حتى إنني أنا مرضت هناك، في..."

"أنا متأكدة أن أمي كانت ستقف معي، إلينور."

"أيضًا،" قال صهر إلينور مثارًا بفكرة مفاجئة، "كيف لنا أن نعرف أنها ستعيدها في حالة جيّدة؟"

هنالك مرة أولى لكل شيء، حدّثت إلينور نفسها. ترجّلت من سيارة الأجرة، في وقت مبكر جدًا من صباح ذلك اليوم، مرتعشة إذ في هذه الأثناء ربما تكون أختها وصهرها قد حرّكتهما أولى وخزات الشك البسيطة. حملت حقيبتها بسرعة من سيارة الأجرة بينما أنزل السائق الصندوق الكرتوني الذي كان في المقعد الأمامي. دفعت له بقشيشًا، متسائلة ماذا لو أن أختها وصهرها يتعقّبانها، حتى أنهما ربما الآن ينعطفان مع الشارع ويقولان لبعضهما: "ها هي، كما توقّعنا، اللصة، ها هي."

استدارت على عجلة لتدخل مرآب المدينة الفسيح حيث تبقيان سيارتهن، ملقية نظرة سريعة متوترة على آخر الشارع، فاصطدمت بسيدة ضعيفة البنية، مبعثرةً مغلفاتها في جميع الاتجاهات. نظرت بصدمة إلى كيس

انقلب وتبعثرت منه على الرصيف قطع من كعك الجبن، وشرائح الطماطم، ولفافة خبز يابس. "اللعنة عليك! اللعنة عليك!" صرخت السيدة صغيرة الحجم، رفعت وجهها بالقرب من وجه إلينور "كنت سآخذها إلى البيت، اللعنة عليك! اللعنة عليك!."

قالت إلينور: "أنا متأسفة جدًا." انحنت، لكن لم يبد أن رفع قطع الطماطم وكعك الجبن وإعادتها إلى الكيس الممزّق ممكنة بأي شكل من الأشكال. عبست السيّدة العجوز والتقطت مغلّفاتها الأخرى قبل أن تتمكن إلينور من الوصول إليها، وأخيرًا استقامت إلينور، ابتسمت باعتذار مضطرب، قالت: "متأسفة جدًا."

"اللعنة عليك،" قالت السيدة العجوز، لكن بصوت أهدأ، "كنت أحملها إلى البيت من أجل غداء بسيط، والآن بفضلكِ...."

"ربما يمكنني أن أعوّضكِ؟" أمسكت إلينور حقيبة يدها، وقفت السيدة العجوز ساكنة تفكّر "لا يمكنني أن آخذ مالًا هكذا،" قالت أخيرًا، "لم أبتع هذه الأشياء، قد كانت فائض طعام." عضّت شفتيها غضبًا "ليتكِ رأيت قطعة الجامبون التي كانت لديهم،" قالت، "لكن أحدًا آخر قد حصل عليه، وكعكة الشوكولاتة، وسلطة البطاطس، وقطع الحلوى في الأطباق الورقية الصغيرة. تأخرت على كل شيء، والآن..." نظرت هي وإلينور إلى الفوضى على الرصيف، قالت السيّدة الصغيرة: "كما ترين إذًا، لا يمكنني أن آخذ النقود هكذا، لن آخذ نقودًا من يدكِ بكل تأكيد، ليس مقابل فائض طعام."

"هل يمكن أن أشتري لكِ شيئًا بديلًا لهذا، إذًا؟ أنا على عجلة شديدة من أمري لكن إن كان بوسعنا أن نجد مكانًا يفتح الآن..."

ابتسمت السيدة الصغيرة: "ما يزال لدي هذا، على أيّة حال." قالت

وحضنت مغلّفها بشدّة، "يمكنكِ دفع أجرة ذهابي إلى البيت، فلا يطيح بي شخص آخر."

"بكل سرور" قالت إلينور وتوجّهت إلى سائق سيارة الأجرة، الذي كان ينتظر، مهتمًا. "هل يمكنك أخذ هذه السيدة إلى بيتها؟" سألته.

"دولاران ستفي بالغرض،" قالت السيدة الصغيرة، "لا يشمل هذا البقشيش لهذا السيد، بالطبع." ثم أضافت بلباقة: "أن يكون المرء صغير الحجم بقدري، خطِر جدًا، خطِر جدًا، بالتأكيد. الناس يوقعونك أرضًا. مع هذا إنها لمسرّة حقيقيّة أن ألتقي بأحدٍ مستعد مثلكِ لإصلاح هذا. أحيانًا لا يلتفت الناس الذين يوقعونكِ لينظروا إليكِ، أبدًا." صعدت سيّارة الأجرة مع مغلّفاتها بمساعدة إلينور، أخذت إلينور دولارين وخمسين سنتًا من حقيبتها وناولتها السيدة التي قبضت عليها بيدها الصغيرة، "حسنًا حلوتي."

سأل سائق الأجرة "أين نذهب؟" ضحكت السيدة الصغيرة "سأخبرك بعد أن ننطلق،" قالت، ثم توجّهت إلى إلينور، "حظًا طيّبًا، عزيزتي، انتبهي من الآن وصاعدًا كي لا توقعي الناس."

"وداعًا" قالت إلينور، "وأنا حقًا متأسفة كثيرًا."

"حسنًا، لا بأس،" قالت السيّدة الصغيرة، ملوّحةً بينها انطلقت السيارة من الموقف "سأدعو لكِ، عزيزتي."

حسنًا، فكّرت إلينور محدّقة في سيارة الأجرة، يوجد شخص واحد، على أيّة حال، سيدعو لي، شخص واحد على الأقل.

(4)

كان أول أيام الصيف المشرقة على نحو أصيل، هذا الوقت من السنة الذي يعيد إلينور دائمًا إلى ذكريات مؤلمة من طفولتها المبكرة، عندما كان يبدو أنه صيفٌ طيلة العام، لم تستطع تذكّر فصل شتاء واحد قبل وفاة والدها في يومٍ رطب بارد. أولعت مؤخرًا بالتفكير، خلال هذه السنوات المعدودة التي مضت سريعًا، ما كانت تفعل مع كل أيام الصيف الضائعة هذه؟ كيف قضتها بعشوائية شديدة؟ أنا حمقاء، قالت لنفسها بداية كل صيف، أنا حمقاء حقًا؛ أما الآن فأنا ناضجة وأعرف قيمة الأشياء. لا شيء يضيع حقًا إلى الأبد، حتى طفولة المرء. ثم مع حلول كل سنة، في صباح يوم صيفي، والرياح الدافئة التي تهب على شوارع المدينة حيث مشت كل حياتها، تلمسها هذه الفكرة الباردة: لقد تركت وقتًا أكثر يمضي. لكن هذا الصباح، وهي تقود السيارة الصغيرة التي تملكها مناصفةً مع أختها، قلقةً خشية أنهما قد يدركان أنها رغم كل شيء جاءت وأخذت السيّارة، انطلقت بسلاسة عبر الشارع، متتبّعة حركة السير، تقف عندما تضطر وتستدير عندما تستطيع، ابتسمت لضوء الشمس الواقع على طول الشارع، وخطر لها؛ أنا مغادرة، أنا مغادرة، أخيرًا خطوت خطوة.

سابقًا، كانت دائمًا ما تستأذن أختها لقيادة السيّارة. تسير بحذر، تتنقل بعناية كبيرة، لتتجنّب حتى أدنى خدش أو تلف قد يُغضب أختها. لكن اليوم، مع صندوقها في المقعد الخلفي وحقيبتها على أرضيّة السيّارة، قفّازاها وحقيبة يدها ومعطفها الخفيف في المقعد بجانبها، السيارة برمّتها ملك لها، عالم صغير محدود كله لها لوحدها؛ أنا مغادرة حقًا، قالت.

عند الإشارة المروريّة الأخيرة في المدينة، قبل أن تنعطف نحو الطريق السريع الواسع إلى خارج البلدة، توقّفت، منتظرة، واستلت رسالة د.

مونتاغيو من حقيبة يدها. لن أحتاج إلى خريطة حتى، فكّرت، يجب أن يكون رجلًا حريصًا. "... طريق ٣٩ إلى أشتون،" قالت الرسالة، "ثم انعطفي يسارًا، إلى طريق ٥ متّجهة إلى الغرب، استمري في الطريق لما لا يزيد على ثلاثين ميلًا، ثم ستصلين إلى قرية صغيرة اسمها هيلزديل. اقطعي القرية إلى الطرف الذي توجد فيه محطة وقود على اليسار وكنيسة على اليمين، انعطفي إلى اليسار، إلى ما يبدو مثل طريق ريفي ضيّق، ستصعدين إلى التلال، والطريق سيئ جدًا. واصلي في هذا الطريق إلى نهايته - قرابة ستة أميال - ثم ستبلغين بوّابات منزل التلّ. كتبت هذه الوصف مفصلًا للغاية لأنه من غير المستحسن أن تتوقفي في هيلزديل لتسألي عن طريقكِ. فالناس وقحون هناك في التعاطي مع الغرباء، وعدائيون بوضوح تجاه أي شخص فضولي يسأل عن منزل التلّ."

"أنا سعيدٌ جدًا لأنكِ ستنضمّين إلينا في منزل التلّ، سيسرّني كثيرًا لقاؤكِ يوم الخميس الحادي والعشرين من حزيران."

تغيّرت الإشارة المروريّة، انعطفت باتجاه الطريق السريع، وتحرّرت من المدينة. فكرت، لا أحد يمكنه الامساك بي الآن؛ لا يعرفون حتى أي طريق سلكت.

لم تقد سيارتها بمفردها لمسافة بعيدة من قبل، فكرة تقسيم رحلتها الجميلة إلى أميال وساعات بدت سخيفة، كانت تراها هكذا: قيادة السيّارة بدقّة بين خطوط الطريق، وصفوف الأشجار على جنبات الطريق، كممرّ للّحظات، كل لحظة جديدة منها حملتها معها، أخذتها عبر طريق مدهش إلى مكان جديد. الرحلة ذاتها كانت الفعل الأكيد؛ أما وجهتها فضبابية، غير مُتخيّلة وربما غير موجودة. أرادت التلذّذ بكل انعطافة في سفرها، أحبّت الطريق والأشجار والمنازل والبلدات القبيحة الصغيرة، سلّت نفسها بفكرة أنها قد

تقرّر أن تتوقف... في أي مكان ولا تغادره مطلقًا. ربّما تركن السيارة على جانب الطريق السريع - رغم أن هذا ممنوع، قالت لنفسها أنها ستعاقب إن فعلت حقًا - وتتركها خلفها بينما تتجوّل عبر الأشجار في الريف الرحيب الناعم خلفها. قد تتجوّل حتى تُرهق، تطارد الفراشات أو تتعقب الجدول، ثم عندما يأتي الغسق ستذهب إلى كوخ حطّاب فقير يقدم لها المأوى. ربّما تستقر إلى الأبد في إيست بارينغتون، أو في ديزموند أو في قرية بيرك المتحدة، أو ربما أنها لن تغادر الطريق أبدًا، إنما تزيد من سرعتها وتزيد وتزيد، حتى تبلى عجلات سيّارتها وتصل إلى نهاية العالم.

ثم فكرت، أو ربما علي فقط أن أذهب إلى منزل التلّ، حيث هناك من ينتظر وصولي، وقد عرض عليّ مأوىً وغرفةً ومائدةً وراتبًا رمزيًا نظير تخليّ عن ارتباطاتي والتزاماتي في المدينة والهرب لرؤية العالم. أتساءل كيف يبدو د. مونتاغيو. أتساءل كيف يبدو منزل التلّ. أتساءل من سيكون هناك سواي؟

كانت بعيدة جدًا عن المدينة حينها، تفتّش عن منعطف يقودها إلى طريق ٣٩، تلك السلسلة السحرية من الطرق التي اختارها د. مونتاغيو لها، من بين جميع الطرق في العالم، ليوصلها إليه وإلى منزل التلّ آمنةً؛ لا طريق آخر قد يقودها من حيث كانت إلى حيث تريد أن تكون. د. مونتاغيو كان واثقًا، معصومًا؛ فتحت اللوحة التي تشير إلى طريق ٣٩، كانت لوحة أخرى تقول: "أشتون، ١٢ ميلاً."

الطريق، الذي بات صديقها الحميم ينعطف وينخفض، تدور حول المنعطف حيث تنتظر المفاجأت- مرة بقرة، تنظر إليها من وراء سياج، ومرة كلب لا مبالٍ- في أقصى الأودية، حيث تقع البلدات الصغيرة، وراء البساتين والحقول.

على الطريق الرئيسي لإحدى القرى التي عبرتها منزل واسع مسوّر، له

أعمدة كبيرة، ونوافذ ذات درفات، وأسدان حجريّان يحرسان الدرجات. خطر لها أنها قد تعيش هناك، تنفض الغبار عن الأسدين كل صباح، تربت على رأسيهما متمنّية لهما ليلة طيّبة كل مساء. بدأ الزمن هذا الصباح في حزيران، أكّدت لنفسها، لكنه وقت جديد غريب فريد من نوعه. ففي هذه الثواني المعدودة قد عشت عمرًا في منزل بأسدين أمامه، كنست السقيفة كل صباح ونفضت عن الأسدين التراب، وربّت في كل مساء على رأسيهما متمنّية لهما ليلة طيبة، وغسلت وجهيهما وعرفيهما وأكفّهما بالماء الدافئ والصودا مرةً كل أسبوع، كما نظفت بين أسنانهما بالقطيلة. في داخل المنزل، الغرف طويلة ونظيفة بأرضية لامعة ونوافذ برّاقة. سيدة عجوز لطيفة تعتني بي، تتحرّك بتكلّف، مع طقم شاي من الفضّة في صينيّة، جالبةً لي نبيذ البلسان كل مساء من أجل صحتي. أتناول عشاءي وحيدةً، في حجرة الطعام الطويلة الهادئة، على الطاولة المتلألئة، بين النوافذ الطويلة تسطع التسقيفة البيضاء على ضوء الشموع. أتعشّى على طائرٍ ونبات فجلٍ من الحديقة، ومربى برقوق مصنوع في المنزل. عندما أرقد، فتحت مظلة من قماش الموسلين الأبيض الرقيق، ومصباحي الليلي يحرسني من الرواق. الناس ينحنون لي في شوارع البلدة لأن الجميع شديد الفخر بأسديّ... عندما أموت..

كانت قد ابتعدت عن البلدة كثيرًا في هذه الأثناء، مرت بأكشاك غداء قذرة مغلقة، ولوحات ممزّقة، كان هنالك مهرجان في مكان ما هنا في السابق، منذ زمن طويل، ضمنه سباقات درّاجات نارية، اللوحات ما تزال تحمل أجزاءً من كلمات. "جريء " تقول إحداها، والأخرى "شر" ضحكت على نفسها، مدركةً كيف تبحث عن نذائر شؤم في كل مكان؛ الكلمة ما هي إلا "متهوّر"، إلينور، سائقون متهورون. أبطأت سرعة سيّارتها لأنها كانت تقود بسرعة شديدة قد توصلها إلى منزل التلّ في وقت مبكّر جدًا.

عمومًا، عند نقطةٍ ما توقّفت بجانب الطريق لتحدّق في شكٍ وحيرة. فطيلة الطريق، على مدى ربع ميل تقريبًا، مرّت بصف من أشجار الدفلى المائلة البهيّة، ذات زهور ورديّة وبيضاء، في صف منتظم، وأحبّتها. وصلت الآن إلى البوابة التي تحرسها، خلف البوابة استمرت الأشجار. لم تكن البوابة سوى زوج أعمدة من الصخور البالية، إضافةً إلى طريق يؤدي بعيدًا إلى حقول فارغة. أمكنها أن ترى أن أشجار الدفلى قد جُزّت عن الطريق، تحيط مع كل جهة بميدان عظيم. كما استطاعت أن ترى حتى الجزء الأبعد منه، الذي كان طابورًا من أشجار الدفلى الذي يبدو أنها تمتد على ضفة نهر صغير. بداخل ميدان الدفلى لم يكن هنالك شيء، لا منزل، لا مبنى، لا شيء سوى طريق مستقيم يقطع الميدان وينتهي عند الجدول. الآن، ما الذي كان هنا، تساءلت، ما الذي كان هنا وتلاشى، أو ما الذي كان من الممكن أن يوجد هنا ولم يأتِ قط؟ أكان منزلاً أم حديقة أم بستانًا؟ هل أُخذت إلى الأبد أم أنها عائدة؟ الدفلى سامّة، تذكّرت، هل يمكن أنها هنا تحرس شيئًا؟ هل- تساءلت- لو خرجتُ من سيّارتي وعبرت من بين البوّابات البالية، ثم، حين أكون في ميدان الدفلى السحري، أجد أنني صرت في أرض مسحورة، محميّة بالسم عن أعين العابرين؟ بعد أن أعبر ما بين إطاريّ البوابة السحريّة، هل سأجد نفسي عبر الممر المحمي، وقد فُكّت التعويذة؟ سوف أدخل حديقةً جميلة، بنوافير ومقاعد منخفضة وورود ممتدة على الكروم، وسأجد ممرًّا واحدًا مرصعًا بالجواهر، ربّما بالياقوت والزمرّد، ناعمًا بما يكفي لتسير عليه ابنة ملك وليس في قدميها الصغيرتين سوى خفّيها، وسيقودني مباشرةً إلى القصر الذي يقع خلف التعويذة سأسير على درجات حجرية منخفضة، مارةً بالأسود الحجرية الحارسة، ثم إلى الساحة حيث تلعب النوافير وتنتظر الملكة، منتحبة، من أجل الأميرة حتى تعود. ستترك تطريزها عندما تراني، وستنادي خدم القصر، سيتحركون أخيرًا بعد نومهم الطويل - ليعدّوا

وليمة عظيمة، لأن التعويذة قد حُلّت، وعاد القصر قصرًا مجدّدًا. وسنعيش بسعادة فيه منذ اليوم وإلى الأبد.

لا، بالطبع، فكّرت، عادت لتشغيل سيّارتها مجدّدًا، حينما صار القصر مرئيًا وفسدت التعويذة، كل التعويذة ستفسد وكل هذا الريف حول أشجار الدفلى سيعود إلى وضعه المعتاد، سيتلاشى، البلدات واللوحات والبقر، ستتحوّل إلى صورة خضراء يانعة من الحكايا الخرافيّة. ثم هابطًا من التلال سيأتي أمير راكبًا فرسًا زاهيًا بالأخضر والفضي مع مائة من الرماة الراكبين خلفه، تخفق الرايات والخيول تجري، والجواهر تبرق...

ضحكت وابتسمت ابتسامة وداعية لأشجار الدفلى السحريّة. في يومٍ آخر، قالت لهن، في يومٍ آخر سأعود وأفسد تعويذتكن.

توقّفت للغداء بعد أن قطعت مائة ميل وميل. وجدت مطعمًا ريفيًا يقدّم نفسه بصفته طاحونة قديمة، فوجدت نفسها تتّخذ مقعدًا رائعًا، في شرفة تطل على جدول مذهل. تنظر إلى الصخور الرطبة وبريق الماء الجاري المبهج، مع زبديّة زجاج بلّوري مملوءة من جبن القريش، على الطاولة التي أمامها، وأعواد ذرة في منديل. لأن ذلك كان زمنًا وأرضًا تُصنع فيها التعاويذ وتُفسد بسرعة، رغبت في إطالة فترة تناولها لغدائها، متيقّنة من أن منزل التلّ في انتظارها نهاية اليوم. الأشخاص الوحيدون الآخرون في صالة تناول الطعام كانوا أسرة، أم وأب بصحبة فتى وفتاة، يتحدّثون إلى بعضهم بلطف ولباقة، في لحظة ما، استدارت الفتاة الصغيرة ونظرت إلى إلينور، مع فضول صريح، وبعد دقيقة، ابتسمت. الأضواء من الجدول في الأسفل تلمس السقف والطاولات الملمعة، وتسطع على شعر الفتاة الصغيرة المتموّج. قالت والدة الفتاة الصغيرة: "تريد كوبًا ذا نجوم." رفعت إلينور رأسها، متفاجئةً، والفتاة الصغيرة تنزلق من مقعدها، متجهمة ترفض الحليب، بينما كان والدها عابسًا

وأخوها يقهقه، ووالدتها تقول بهدوء: "تزيد كوبها، كوبًا من النجوم."

بكل تأكيد، قالت إلينور لنفسها، حتمًا أريد أنا ذلك أيضًا، كوبًا ذا نجوم، بالطبع. "كوبها الصغير،" وضّحت الأم، وابتسمت معتذرة للنادلة، التي كانت مصدومة من فكرة أن حليب المطحنة الريفي الجيّد لم يكن كافيًا لفتاة صغيرة.

"توجد نجوم في أسفله، تشرب حليبها دائمًا منه في البيت. تسمّيه الكوب ذا النجوم، لأنها تستطيع رؤية النجوم بينما تشرب الحليب." أومأت النادلة، غير مقتنعة، أخبرت الأم الفتاة الصغيرة، "ستتناولين الحليب في كوب النجوم الليلة عندما نعود إلى البيت، لكن الآن، من أجل أن تكوني فتاة جيّدة جدًا، هل ستشربين بعض الحليب من هذا الكأس؟"

لا تفعلي هذا، قالت إلينور للفتاة الصغيرة، أصرّي على كوب النجوم خاصّتكِ، إذا ما أوقعوكِ مرّةً في شَرِك مشابهة الآخرين، فلن تري أبدًا كوبكِ ذا النّجوم مجدّدًا، لا تشربي؛ نظرت إليها الفتاة الصغيرة، وابتسمت ابتسامة خفيفة ماكرة غامزة مقتنعة تمامًا بما قالت إلينور، ثم هزّت رأسها بعناد أمام كأس الحليب. فتاة شجاعة، قالت إلينور، فتاة شجاعة وذكيّة.

"إنّكِ تفسدينها،" قال الأب. "لا ينبغي أن يُسمح لها بهذه الأهواء."

"فقط هذه المرة،" قالت الأم. وضعت كأس الحليب ولمست يد الفتاة برفق. "كلي بوظتكِ،" قالت.

عندما غادروا، لوّحت الفتاة إلى إلينور تودّعها، إلينور لوّحت لها، جالسة في وحدة مبهجة لتنهي قهوتها بينما الجدول البرّاق يجري تحتها. لم يتبق لي الكثير لأقطعه، قالت إلينور، قد قطعت أكثر من نصف الطريق الآن. الرحلة تنتهي، خطر لها، وفي أعماق ذاكرتها برقت نهاية نغمة رقصت في رأسها،

كما يبرق الجدول، جالبة من الذاكرة البعيدة كلمة أو أكثر: "لا غنى مع التسويف.[1]" قالت، "لا غنى مع التسويف."

كادت تتوقف إلى الأبد في أشتون، لأنها مرت بكوخ صغير مدفون في حديقة. خطر لها أنها قد تعيش هنا بمفردها، أبطأت السيارة لترى طريق الحديقة المتعرّج المؤدي إلى باب الكوخ الصغير الأمامي الأزرق، الذي تقف على أسكفّته قطة بيضاء تليق بالمنظر تمامًا. لا أحد سيجدني هنا أبدًا، خلف كل هذه الورود، وحتى أطمئن سأزرع أشجار الدفلى على الطريق. سأشعل نارًا في المساءات الباردة وأشوي التفاح في موقدي أنا. سأربّي قططًا بيضاء وأحيك ستائر بيضاء للنوافذ، وسأخرج أحيانًا من بابي لأذهب إلى المتجر وأشتري الشاي والقرفة والخيوط. سيأتي الناس إلي لأخبرهم طوالعهم، وسأعدّ خلطات الحب للعذراوات الحزانى، سأمتلك طائر أبو الحنّاء، ... لكن في هذه الأثناء صار الكوخ بعيدًا خلفها، كما صار وقت النظر إلى طريقها الجديد، الذي خطّطه د. مونتاغيو بعناية شديدة.

"ثم انعطفي يسارًا، إلى طريق ٥ متّجهة إلى الغرب،" قالت رسالته، وبحرص وفورًا كما لو أنه يوجهها من نقطة بعيدة، يحرّك سيّارتها بمقود في يده، تمّ الأمر، فهي على طريق ٥ متّجهة إلى الغرب، ورحلتها تقريبًا قد انتهت. رغم توجيهاته، قالت سأقف في هيلزديل لبعض الوقت، من أجل فنجان قهوة، لأنني لا أحتمل أن تنتهي رحلتي الطويلة بسرعة. ليس هذا عصيانًا، على أيّة حال، قالت الرسالة من غير المستحسن أن تتوقفي في هيلزديل لتسألي عن طريقكِ، ولم تقل ممنوعٍ أن تتوقفي من أجل القهوة، وربما إذا لم أذكر منزل التلّ فلن أرتكب خطأً. على كل حال، خطر لها بشكلٍ غامض: إنها فرصتي الأخيرة.

---

1 - إحدى سونيتات شكسبير - من مسرحية الليلة الثانية عشرة.

كانت هيلزديل أمامها قبل أن تدرك هذا، فوضى متشابكة غير مرتبة من المنازل القذرة والشوارع المتعرّجة. كانت صغيرة، حالما وصلت إلى الشارع الرئيسي استطاعت رؤية الجهة التي بها محطة البنزين والكنيسة. بدا أن هنالك مكان واحد فقط لشرب القهوة، مطعم غير جذّاب، لكن إلينور مضطرة إلى التوقّف في هيلزديل ولهذا أوقفت سيارتها عند الرصيف المكسور قبالة المطعم وترجّلت منها. بعد تفكير لدقيقة، وإيماءة صامتة لهيلزديل، أقفلت سيّارتها، متيقظة لحقيبتها على أرضية السيّارة والصندوق في المقعد الخلفي. قالت لنفسها إنها لن تقضي وقتًا طويلًا في هيلزديل، وأخذت تمعن النظر في الشوارع التي نجحت حتى تحت ضوء الشمس في أن تكون مظلمة وقبيحة. مرّت بكلب ينام بصعوبة في ظل جدار، سيّدة تجلس على مدخل منزل في الجهة المقابلة من الشارع وتنظر إلى إلينور، صبيّين يجلسان على سور، مسهبين في الصمت. إلينور، التي تخاف من الكلاب الغريبة والنساء المستهزئات وقطاع الطرق الشباب، ذهبت مسرعة إلى المطعم، قابضةً على حقيبة يدها ومفتاح سيّارتها. في الداخل، وجدت منضدة تقف خلفها فتاة متعبة تفتقر إلى الذقن، ورجل يجلس في الطرف يأكل. تساءلت باقتضاب ما قدر جوعه ليجيء إلى هنا من الأساس، عندما نظرت إلى المنضدة الرمادية والزبدية الزجاجية المدهونة فوق طبق الدونات. "قهوة" قالت للفتاة خلف المنضدة، استدارت الفتاة بضجر وأوقعت كوب قهوة من المجموعة الموجودة على الأرفف؛ يجدر بي شرب هذه القهوة لأنني قلت إنني سأفعل، قالت إلينور لنفسها بصرامة، لكن في المرة القادمة سأستمع إلى د. مونتاغيو.

كانت هنالك نكتة مستفيضة بين الرجل الذي يأكل والفتاة التي خلف المنضدة، عندما قدّمت قهوة إلينور نظرت إليه وابتسمت نصف ابتسامة، فهزّ كتفيه، ثم ضحكت الفتاة. رفعت إلينور رأسها، لكن الفتاة كانت تتفحّص

أظافرها، والرجل يمسح طبقه بخبزة. ربّما أن قهوة إلينور مسمومة، يبدو بالتأكيد أنها هكذا. قررت الغوص في قرية هيلزديل إلى أقصى أعماقها، قالت إلينور للفتاة: "سآخذ واحدة من هذه الدونات أيضًا، لو سمحتِ." استلت الفتاة واحدة من الدونات، ملقية نظرة جانبيّة على الرجل، إلى طبق ووضعته أمام إلينور وضحكت عندما التقطت نظرة أخرى من الرجل. "هذه بلدة صغيرة جميلة." قالت إلينور للفتاة. "ماذا تسمّى؟"

حدّقت الفتاة إلى إلينور، ربّما لم يملك أحد من قبل الجرأة ليقول إن هيلزديل بلدة جميلة صغيرة، بعد دقيقة نظرت الفتاة مجدّدًا إلى الرجل، كما لو أنها تطلب تأكيدًا، ثم قالت: "هيلزديل."

"هل تعيشين هنا منذ وقت طويل؟" سألت إلينور. لن أذكر منزل التلّ، أكّدت لدكتور مونتاغيو البعيد، فقط أود تزجية بعض الوقت.

"نعم" قالت الفتاة.

"لا بد أن العيش في بلدة صغيرة مثل هذه سارٌ. جئت من المدينة."

"صحيح؟"

"هل تحبين العيش هنا؟"

"لا بأس به،" قالت الفتاة. نظرت مجدّدًا إلى الرجل، الذي كان يستمع باهتمام. "لا يوجد الكثير لفعله."

"ما حجم البلدة؟"

"صغيرة جدًا. هل تريد بعض القهوة؟" كان السؤال موجّهًا للرجل، الذي كان يقعقع فنجانه بصحنه، أخذت إلينور الرشفة الأولى من قهوتها مرتعشة وتساءلت كيف يمكن أن يرغب في المزيد. "هل لديكم الكثير من

الزوار هنا؟" سألت عندما ملأت الفتاة فنجان القهوة وذهبت إلى الخلف لتستند على الأرفف. "أعني، سيّاح؟"

"من أجل ماذا؟" لدقيقة تطلّعت الفتاة إليها، ممّا يبدو أنه فراغ أعظم ممّا عرفت إلينور طيلة حياتها. "لماذا قد يجيء أي شخص إلى هنا؟" نظرت بتجهّم إلى الرجل وأضافت: "لا يوجد سينما حتّى."

"لكن التلال جميلة. غالبًا، في مثل هذه البلدات القصيّة الصغيرة ستجدين سكان المدينة، من يأتون ويبنون لأنفسهم منازل في التلال. من أجل الخصوصيّة."

ضحكت الفتاة ضحكة قصيرة. "لا، لا يبنون هنا شيئًا."

"أو يرمّمون المنازل القديمة..."

"الخصوصيّة،" قالت الفتاة، وضحكت مجدّدًا.

"يبدو مفاجئًا حقًا،" قالت إلينور، شاعرة بالرجل ينظر إليها.

"نعم،" قالت الفتاة. "لو أنهم أنشأوا سينما، على الأقل."

"أظن،" قالت إلينور بحذر، "أنني ربما سأبحث. المنازل القديمة رخيصة غالبًا، تعلمين، وتجديدها مسلٍ."

"ليس في هذا المكان." قالت الفتاة.

"إذًا،" قالت إلينور، "لا توجد منازل قديمة هنا؟ ولا هناك في التلال؟"

"لا."

نهض الرجل، آخذًا نقوده من محفظته، وتحدّث للمرة الأولى. "الناس تغادر هذه البلدة،" قال. "لا يأتون إلى هنا." عندما أُغلق الباب خلفه أعادت

الفتاة عينيها المنطفئتين إلى إلينور، مستاءة كليًا، كما لو أن إلينور بثرثرتها قد نفّرت الرجل. "كان محقًا،" قالت أخيرًا. "إنهم يهربون، أولئك المحظوظون."

"لِمَ لا تهربين؟" سألتها إلينور.

هزّت الفتاة كتفيها وسألت: "هل سأكون أحسن حالًا؟". أخذت نقود إلينور دون اهتمام وأعادت الباقي. ثم، بإحدى نظراتها الخاطفة، نظرت إلى الأطباق الفارغة في آخر المنضدة وابتسمت. "يجيء هنا كل يوم،" قالت. عندما ابتسمت إلينور وبدأت بالحديث، أدارت الفتاة ظهرها وأشغلت نفسها بالفناجين الموجودة على الأرفف، فشعرت إلينور بأنها تريد انصرافها، نهضت بامتنان عن قهوتها، حملت مفتاح سيّارتها وحقيبة يدها. "وداعًا،" قالت إلينور. قالت الفتاة وهي ما تزال مستديرة: "حظًا موفقًا لكِ، أرجو أن تجدي منزلكِ."

(5)

الطريق الذي يأخذك من محطة الوقود والكنيسة سيئ للغاية حقًا، كثير الحفر وصخري. سيّارة إلينور الصغيرة تعثّرت وارتدّت، أبت المسير أبعد مما سارت في هذه التلال غير الجذّابة، حيث يبدو أن اليوم يقترب مسرعًا من نهايته في ظل الأشجار الكثيفة الجبّارة النابتة على جانبي الطريق. لا يبدو أن لديهم تكدّسًا مروريًا شديدًا في هذا الطريق، هجست إلينور بسخرية، أدارت المقود بسرعة لتتلافى صخرة خطرة أمامها. ستة أميال من هذا الطريق لن تنفع السيّارة؛ ولأول مرة منذ ساعات تفكّر في أختها وتضحك. بالتأكيد أنهما الآن يدركان أنها قد أخذت السيّارة وغادرت، لكن لن يعرفا إلى أين، سيخبر أحدهما الآخر غير مصدّق بأنه لم يكن ليتوقعها من إلينور أبدًا. أنا أيضًا لم أكن لأتوقعها مني أبدًا، قالت وواصلت الضحك؛ كل شيء مختلف، أنا شخص جديد، وبعيدة جدًا عن البيت. "لا غنى مع

التسويف، بهجة اللحظة لها ضحكة اللحظة." شهقت عندما اصطدمت السيّارة بصخرة وانسحبت عبر الطريق المليء محتكّةً بصورة مخيفة بشيءٍ ما، لكنها لاحقًا استجمعت نفسها ببسالة واستأنفت صعودها المثابر. أغصان الأشجار تلامس زجاج سيّارتها الأمامي، وتزداد كثافة. منزل التلّ يجب أن يدخل حياتها بطريقة تتذكرها إلى الأبد، خطر لها، أتساءل إذا كانت الشمس تشرق هنا أصلًا. في المرة الأخيرة، بأقصى جهدها، بعثرت السيارة كومة من الأوراق المتساقطة والأغصان الصغيرة التي تقطع الطريق، ثم وصلت إلى منطقة خالية بالقرب من بوّابة منزل التلّ.

لِمَ أنا هنا؟ تساءلت ببؤس وفي الحال، لِمَ أنا هنا؟ كانت البوّابة طويلة ومخيفة وضخمة، منصّبة بثبات في حائط حجري، تفصل بين الأشجار. حتى من السيّارة يمكنها أن ترى القفل والسلسلة الموصدة بها القضبان. خلف البوّابة يمكنها أن ترى الزقاق ممتدًا، ثم ينعطف، مظللاً بالأشجار الساكنة الكثيفة من جهتيه.

بما أن البوابة مغلقة كما هو واضح - مغلقة بل وموصدة، ومسلسلة ومزرفنة- تساءلت، من يرغب بشدة في أن يدخل؟- لم تحاول الخروج من سيّارتها، إنّما ضغطت على البوق، فاهتزت الأشجار والبوّابة وانسحبت على مهل، متأثرة بالصوت. بعد دقيقة دّقت البوق ثانية ثم رأت رجلًا قادمًا باتجاهها من وراء البوّابة، كان مظلمًا وغير مرحِّب بقدر ما كان قفل الباب مظلمًا غير مرحب، وقبل أن يتحرك إلى البوابة نظر إليها عبر القضبان مقطّبًا.

"ما تريدين؟" كان صوته حادًا وعدائيًا.

"أريد أن أدخل، من فضلك. من فضلك افتح البوّابة."

"من يقول؟"

"أنا..." تلعثمت. "أنا مدعوّة،" قالت أخيرًا.

"من أجل؟"

"أنا مدعوّة." هل أنا مدعوّة حقًا؟ تساءلت فجأةً؛ هل هذا أقصى ما أصل إليه في رحلتي؟

"مِن من؟" تدرك طبعًا أنه يستمتع بتمديد سلطته، كما لو أنه سيفقد امتيازه الصغير المؤقت الذي يعتقد بامتلاكه حالما يفتح قفل البوابة - وأي امتياز لديّ، تساءلت؛ أنا خارج البوّابة، بعد كل شيء. يمكنها أن تدرك أن فقدها لأعصابها، الأمر نادر الحدوث لأنها تخشى بشدة من أن تكون غير مجدية، سيبعده وحسب، مواصلًا تركها خارج البوّابة، تتذمّر عبثًا. أمكنها حتى تخيّل سذاجته عندما يُنتقد لاحقًا بسبب هذه الغطرسة - الابتسامة الفارغة الشريرة، العينان الواسعتان الفارغتان، الصوت المنتحب الذي يحتج بأنه أراد أن يدخلها، خطّط أن يدخلها، لكن كيف له أن يحسم أمره؟ لديه أوامر، أليس كذلك؟ وعليه أن ينفّذ ما أُخبِر به. هو الوحيد الذي سيقع في المشاكل، ألن يقع إذا ما أدخل شخصًا لا يُفترض يه أن يدخل؟ تخيّلت ارتجافه، تصوّرته ضاحكة، ربّما هذا أسوأ ما فعلت.

ابتعد عن البوابة متراجعًا وهو يرقبها. "يجدر بكِ العودة لاحقًا،" قال، وأدار ظهره مع شعور بالانتصار النزيه.

"اسمع،" نادت خلفه، وهي ما تزال تحاول ألّا تبدو غاضبةً، "أنا واحدة من ضيوف د. مونتاغيو؛ إنه ينتظرني في المنزل - من فضلك اسمعني!"

التفت وابتسم لها. "لا يمكن أن يكونوا بانتظاركِ حقًا." قال، "كما ترين، أنتِ الوحيدة التي أتت حتى الآن."

"هل تعني أن لا أحد في المنزل؟"

"لا أحد أعلم بوجوده. ربّما زوجتي، توضّبه. وعليه فلا يمكن أن يكونوا في المنزل يتوقعون قدومكِ، أعرفتِ؟"

استندت على مقعد السيّارة وأغلقت عينيها. منزل التلّ، الدخول إليك صعب بقدر صعوبة دخول الجنّة.

"أعتقد أنكِ تعلمين ما تسعين إليه بالقدوم إلى هنا؟ أظن أنهم أخبروكِ، في المدينة؟ سمعتِ شيئًا عن هذا المكان؟"

"سمعت أنني مدعوّة هنا بصفتي ضيفة لدى د. مونتاغيو. عندما تفتح البوّابة سأدخل."

"سأفتحها، سأفتحها. أردت فقط أن أتأكد من أنكِ تعلمين ما ينتظركِ في الداخل. هل سبق وجئتِ إلى هنا؟ هل أنت فرد من العائلة؟" نظر إليها في هذه اللحظات، يحدقها من بين القضبان، وجهه الساخر كان حاجزًا آخر بالنسبة لإلينور يعقب القفل والسلسلة. "لا أستطيع السماح لكِ بالدخول ما لم أتأكد. ما كان اسمكِ؟"

تنهّدت. "إلينور ڤانس."

"لستِ من أفراد العائلة إذًا، على ما أعتقد. هل سمعتِ شيئًا عن هذا المكان قط؟"

أظن أنها فرصتي، فكّرت. لقد مُنحت فرصة أخيرة. أستطيع أن أدير سيارتي ها هنا أمام هذه البوّابات وأبتعد، ولن يلومني أحد. لكل فرد الحق في الهرب. أخرجت رأسها من نافذة السيّارة وقالت بغضب: "اسمي إلينور ڤانس، أنا مدعوّة إلى منزل التلّ. افتح هذه البوّابة في الحال."

"حسنًا، حسنًا." متعمدًا، قام باستعراض غير ضروري كليًا ليدخل المفتاح في القفل ويديره، فتح القفل وفكّ السلسلة وشرّع البوّابة بالقدر الذي يسمح للسيّارة بالمرور. قادت إلينور سيّارتها ببطء، لكن الخفة التي قفز بها إلى جانب الطريق جعلتها تعتقد للحظة أنه قد أدرك الرغبة الخاطفة التي عبرت ذهنها؛ ضحكت، ثم أوقفت السيّارة لأنه قادم إليها آمنًا من

جانب الطريق.

"لن يعجبكِ،" قال. "ستشعرين بالأسف لأنني فتحت لك هذه البوّابة."

"ابتعد عن الطريق، من فضلك،" قالت. "لقد حبستني بما يكفي."

"هل تظنّين أنهم قد يدعون غيري يفتح هذه البوّابة؟ هل تعتقدين أن أحدًا آخر سيظل هنا طيلة هذه المدة، سوانا أنا وزوجتي؟ هل تعتقدين أننا لا نستطيع تدبّر الأمور بالطريقة التي نريد، طالما نظل هنا ونوضّب المنزل ونفتح بوّاباته لكم يا أهل المدينة الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء؟"

"من فضلك ابتعد عن سيّارتي." لم تجرؤ على أن تعترف لنفسها أنه قد أخافها، الخوف الذي قد يدركه، قربه وانحناؤه على جانب السيّارة، كان قبيحًا، واستياؤه الشديد قد أربكها، بالتأكيد جعلته يفتح لها البوّابة لكن هل يعتقد أن هذا المنزل وهذه البساتين ملكه؟ اسم من رسالة د. مونتاغيو قفز إلى ذهنها، فسألت بفضول، "هل أنت دودلي البوّاب؟"

"نعم، أنا دودلي البوّاب." قلّدها. "من غيري بظنّكِ سيكون هنا؟"

خادم العائلة العجوز الوفي، خطر لها، مخلص وفخور وغير لطيف أبدًا. "أنت وزوجتك تعتنيان بالمنزل لوحدكما؟"

"من غيرنا؟" كان هذا مفخرته ولعنته ولازمته.

تحرّكت بعدم ارتياح، خائفة من الابتعاد عنه بشكلٍ يبدو له واضحًا جدًا، رغم أنها ترغب في الابتعاد، بحركة بطيئة شغّلت السيّارة، لتجعله يتنحّى. "أنا متأكدة من أنك ستجعلنا مرتاحين جدًا، أنت وزوجتك،" قالت، مضيفة نبرة ختامية على صوتها. "في الوقت نفسه أتوق إلى دخول المنزل بأسرع ما يمكن."

ضحك هازئًا، باعتراض. "أما أنا،" قال، "أنا لا أبقى هنا بعد حلول

الظلام."

مبتسمًا برضى عن نفسه. ابتعد عن السيّارة، كانت إلينور ممتنّة، مع هذا فهي مرتبكة جرّاء تشغيل السيارة تحت نظره، على الأرجح سيحملق بي طيلة قيادتي، قالت، يبدو كقطة تشيرية[1]. سيسخر مني ويصرخ: حري بكِ أن تكوني سعيدة أنك وجدتِ أحدًا يرغب في التجوّل في هذا المكان، قبل الظلام، على أيّة حال. لتظهر أنها لم تتأثر أبدًا بفكرة ظهور وجه دودلي البوّاب من بين الأشجار، بدأت تصفّر، انزعجت قليلًا لأن الأغنية ذاتها كان تدور في رأسها، "بهجة اللحظة لها ضحكة اللحظة..." فأخبرت نفسها بغضب أن عليها أن تبذل جهدًا لتتمكن من التفكير بشيء آخر؛ كانت متأكدة أن اختباء بقية الكلمات من ذاكرتها أمر غير ملائم، ومن المرجح أنه مخزٍ تمامًا أن يُمسك بها تغنّي في يوم وصولها إلى منزل التلّ.

فوق الأشجار، وأحيانًا من بينها وبين التلال، تستطيع أن تلمح ما يجب أن يكون الأسطح، ربّما برج وقمم وأعمدة وأشرطة خشبيّة تعتليها، وأحيانًا أسقف قوطيّة ومزاريب؛ لم يترك شيء دون زخرفة. ربّما لمنزل التلّ برج، أو حجرة سريّة، أو حتى دهليز يخترق التلال ومن المحتمل أن المهربين يستخدمونه - ما الذي قد يجده المهرب ليهرّبه في هذه التلال الوحيدة؟ ربّما سأواجه مهرّبًا وسيمًا ماكرًا و...

انعطفت بسيّارتها إلى آخر براح مستوٍ يقودها مباشرةً، وجهًا لوجه، إلى منزل التلّ، سائرة دون تفكير، ضغطت قدمها على المكبح لتبطئ السيارة، جلست محدّقةً.

كان المنزل مُنفرًا. ارتعشت، جاءت الكلمات بانسيابيّة إلى ذهنها، منزل التلّ منفر، إنه موبوء؛ اهربي من هنا حالًا.

1- شخصيّة خياليّة من شخصيّات لويس كارول في "أليس في بلاد العجائب."

الفصل الثاني

(1)

لا يمكن للعين أن تفصل بين عشوائية السبل التعيسة وموقع المنزل الذي يعزز الشؤم في واجهته، إضافة إلى أن فرصة التقاء السقف والسماء، بتجاورهما الجنوني، والزاوية السيئة، حوّلا منزل التلّ إلى مأوى للخيبة، كما بدا أكثر افزاعًا إذ يبدو وجه المنزل يقظًا، أرقًا من نوافذه الصماء مع لمسة الطرب في حواجب الإفريز. أي منزل تقريبًا، حين يُنظر إليه فجأة أو من زاوية غريبة، قد يبدو مضحكًا بشدة بالنسبة للرائي، حتى المدخنة المصفرة المشرحية، أو الكوة في العليّة الغائرة مثل هزمة مثلًا، قد تشعر الرائي بالألفة؛ لكن غرور منزل متعجرف وبغيض، دون أن يكون هذا أبدًا على حين غرة، لا يمكن أن يكون إلا شؤمًا وحسب. هذا المنزل الذي يبدو أنه بنى نفسه بنفسه بشكلٍ ما. حلّق إلى شكله الجبّار تحت أيدي بنائيه، منسجمًا مع تكوينه الخاص، خطوطه وزواياه، مادًا قمته باتجاه السماء دون حاجة إلى البشرية. كان منزلًا خاليًا من اللطف، لم يُعدّ للسكنى قط، ليس مكانًا ملائمًا للناس، أو للحب أو للأمل. لا يمكن أن تبدّل التعويذة سيماء المنزل؛ سيظل منزل التلّ كما كان حتى يهدم.

فكّرت إلينور: كان علي أن أتراجع حين رفضتني البوابة. أصابها المنزل بارتداد أتافزمي تمثل في وخزٍ شعرت به في وهدة المعدة، نظرت إلى امتداد خطوط سطحه، وقد باءت محاولة تحديد سوئه، أو مهما يكن هذا الشيء

الكامن في المنزل، بالفشل، تحولت كفاها إلى الزرقة من القلق، وعليه كانت ترتجف محاولة إخراج سيجارة، وخائفة أكثر من أي شيء آخر، تستمع إلى الصوت المرير بداخلها هامسًا: اهربي من هنا، اهربي.

لكن هذا ما جئت من أجله، قالت لنفسها؛ لا يمكن أن أتراجع. إضافةً إلى أنه سيسخر مني إن أنا حاولت الخروج عبر تلك البوابة.

محاولةً ألّا ترفع بصرها إلى المنزل - لم تستطع حتى أن تتبيّن لونه، أو طرزه، ولا حجمه، باستثناء أنه ضخم وقاتم، يطرق نظره إليها - شغّلت سيارتها مجدّدًا، قطعت آخر جزء من الزقاق المؤدي مباشرةً إلى عتبة المنزل، التي تقود بدورها، دون أن تترك سبيلًا للفرار، إلى الشرفة ثم تسير إلى الباب الأمامي. ينتهي الزقاق عند الجهتين ليحيط بالمنزل، ربما لاحقًا ستبحث بسيارتها عن مبنى ما تضعها فيه؛ شعرت حينها بأنها غير مرتاحة لأنها لم ترغب في الابتعاد تمامًا عن وسيلتها للمغادرة. حرّكت السيارة بما يكفي لتنقلها إلى إحدى الجهتين، بعيدًا عن طريق الواصلين بعدها. قالت في سرها؛ سيكون مثيرًا لشفقة أي أحد أن يلقي نظرة أولى على هذا المنزل مع شيء مرح للغاية مثل سيارة متوقفة أمامه. ترجّلت من السيّارة، حاملةً حقيبتها ومعطفها. حسنًا، قالت بعدم رضى، أنا هنا.

كانت قوة منها أن ترفع قدمها وتطأ بها على العتبة السفلى، فكّرت بأن رفضها العميق للمس منزل التلّ للمرة الأولى نابع مباشرةً من الشعور الجلي بأنه، في نظرها، مشؤوم، لكنه صبور. "بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال.[1]" قالت، متذكّرةً أغنيتها أخيرًا، وضحكت، واقفةً على عتبات منزل التلّ، "بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال." وضعت قدمها بصرامة، وانطلقت إلى الشرفة

1 - إحدى سونيتات شكسبير من مسرحية «الليلة الثانية عشرة».

والباب. تحلّق منزل التلّ حولها على عجالة، كانت مظللة، ووقع خطاها على خشب الشرفة يدوّي في الصمت المطلق، نعم، مضى وقت طويل منذ أن داست أقدامٌ أرضية منزل التلّ. رفعت يدها إلى الجرس الحديدي الثقيل، الذي يحمل وجه طفل، عازمة على إحداث المزيد من الازعاج، حتى يتيقّن منزل التلّ من أنها هنا، ثم فُتِح الباب بغتة، فنظرت إلى امرأة، إذا كانت الأشباه تتلاقى، فلا يمكن إلا أن تكون زوجة الرجل الواقف بالبوابة.

"السيدة دودلي؟" سألت، وهي تلتقط أنفاسها. "أنا إلينور ڤانس. أنا مدعوّة."

تنحّت المرأة جانبًا بصمت. مريلتها نظيفة، شعرها مرتّب، لكنها أيضًا تعطي إيحاءً لا يمكن تحديده بالقذارة، كانت ملائمة لزوجها تمامًا، والتجهم الخادر في وجهها يتماشى مع شراسته المؤذية. لا، قالت إلينور لنفسها، يعود هذا لكون كل شيء يبدو قاتمًا جدًا، وإلى أنني قد توقعت أن تكون امرأة ذلك الرجل قبيحة. لو لم أر منزل التلّ، هل سأكون غير منصفة تجاه هؤلاء الناس؟ في النهاية، هما يعتنيان به وحسب.

الردهة التي تقفان فيها كانت مغطاةً بالخشب القاتم، والنقوش الثقيلة. ردهة مظلمة تحت وطأة بيت الدرج، القادم من الخلف، من الزاوية القصيّة. يبدو أن في الأعلى ردهة أخرى، باتّساع المنزل؛ استطاعت أن ترى امتداد بسطة الدرج من بيته. الأبواب مغلقة على امتداد الطابق الأعلى. على جانبيها الآن أبواب ضخمة بدرفتين، منقوش عليها فواكه وسنابل قمح وكائنات حيّة؛ كل الأبواب التي كانت في مرمى بصرها في هذا المنزل؛ مغلقة.

عندما حاولت أن تتحدث، غرق صوتها في سكون مبهم، فبات عليها أن تحاول ثانيةً لتصدر صوتًا. "هل يمكنكِ أن تدلّيني على غرفتي؟" سألت أخيرًا، مشيرةً إلى حقيبتها على الأرض، مشاهدةً انعكاس ايماءة يدها ينغمس

أكثر وأكثر في الظلال الساقطة على الأرضية النظيفة.

"أرى أنني أول من قدم إلى هنا، أنتِ، هل قلتِ إنّكِ السيدة دودلي؟" أظن أنني سأصرخ، قالت لنفسها، مثل طفل ينشج وينتحب: لم يعجبني هذا المكان...

استدارت السيدة دودلي وصعدت الدرج، حملت إلينور حقيبتها وتبعتها، مسرعة خلف أي شيء حي في هذا المنزل. لا، قالت، لم يعجبني هذا المكان. وصلت السيدة دودلي إلى قمة الدرج ثم استدارت إلى اليمين، أدركت إلينور بحدس نادر أن بنّائي المنزل سئموا أي محاولة تتعلق بتصميمه - ربّما بعد أن أدركوا ما الذي سيكونه هذا المنزل، سيّان اختاروا أم لا - وكان عليهم في الطابق الثاني، بناء ردهة طويلة مستقيمة تتّسع لكل أبواب غرف النوم؛ تكوّن لديها انطباع سريع بأن البنائين أنهوا الطابقين الثاني والثالث من المنزل بعجلة غير لائقة. تائقون إلى الانتهاء من عملهم، دون تنميق، والخروج من هنا، متّبعين أبسط تصميم ممكن للغرف. في الطرف الأيسر من الردهة كان هنالك درج آخر، يهبط من غرف الخدم، على الأرجح، في الطابق الثالث، مارًا بالطابق الثاني وصولًا إلى حجرات الاستقبال في الأسفل؛ في الطرف الأيمن من الردهة غرفة أخرى ربّما قد أعدت، بما إنها في الطرف، لتحصل على أقصى كمية من ضوء الشمس. مستثناة من امتداد الخشب القاتم، وما يبدو أنه سلسلة من نقوش نقشت برداءة، على امتداد جهتي الردهة. لا شيء يكسر استقامة الردهة عدا سلسلة الأبواب، وجميعها مغلقة. ذرعت السيدة دودلي الردهة وفتحت بابًا، ربما بعشوائية: "هذه هي الغرفة الزرقاء." قالت.

من استدارة بيت الدرج استنتجت إلينور أن الغرفة ستكون في مقدمة

المنزل؛ هجست: "الأخت آن، الأخت آن(1)،" ثم عبرت ممتنة باتجاه الضوء القادم من الغرفة.

"ما أجملها." قالت وهي واقفة بمدخل الغرفة من منطلق شعورها بأن عليها أن تقول شيئًا وحسب؛ لم تكن الغرفة جميلة قط؛ بل لا تكاد تكون مقبولة، تطبق على عدم الاتساق المنفّر ذاته الذي يميز منزل التلّ في كل أرجائه.

تنحّت السيدة دودلي جانبًا لتمكّن إلينور من الدخول، وتحدّثت للجدار تقريبًا قائلة: "أضع العشاء على منضدة حجرة الطعام في تمام الساعة السادسة،" وأردفت قائلة، "يمكنكِ خدمة نفسكِ. أنظّف في الصباح. أقدّم الفطور لكم في التاسعة. هذا ما تعاقدت عليه. لا أستطيع توضيب الغرف كما تفضلون، كما لا يوجد أحد آخر يساعدني. لا أخدم أي أحد وقت تناول الطعام. العمل الذي وافقت عليه لا يعني أن أخدم الناس."

أومأت إلينور، واقفة مترددة في مدخل الغرفة.

"لا أبقى بعد تقديم العشاء،" أكملت السيّدة دودلي. "ليس بعد أن يحل الظلام. تعلمين، أغادر قبل أن يخيّم الظلام."

"أعلم،" قالت إلينور.

"نحن نعيش هناك في البلدة، على بعد ستة أميال من هنا."

"نعم،" قالت إلينور، متذكرة هيلزديل.

"ومن ثمّ، لن يكون هنالك أي أحد حولكِ إذا ما احتجتِ إلى المساعدة."

1- وردت العبارة على لسان زوجة ذي اللحية الزرقاء وهي تنادي أختها مرارًا لتسألها هل لاح إخوتها في الأفق أم لا، راجيةً أملًا يحول دون موتها تحت يدي زوجها القاتل. القصة للكاتب الفرنسي شارل بيرو.

"أفهم هذا."

"لن أتمكّن من سماعكِ حتى في الليل."

"لا أظن..."

"لا أحد يستطيع. لا أحد يعيش أقرب من البلدة. لا أحد آخر سيكون أقرب منها."

"أعلم،" قالت إلينور بتعب.

"في الليل،" قالت السيدة دودلي وابتسمت فورًا "في الظلام." قالت، وأغلقت الباب خلفها.

ضحكت إلينور بشدة متخيّلة نفسها تستنجد: يا سيّدة دودلي، أحتاج مساعدتكِ في الظلام. ثم ارتجفت.

(2)

وقفت وحيدة بجانب حقيبتها، ما زال معطفها متدليًا من ذراعها، بائسة تمامًا، تقول لنفسها بعجز: "بلقاء الأحبة ينتهي الترحال،" راجيةً أن تعود إلى بيتها. خلفها حقيبتها مغلقة والدرج المظلم والردهة الملمّعة والباب الأمامي الضخم والسيدة دودلي ودودلي يضحكان عند البوابة والمزلاج وهيلزديل والكوخ ذي الأزهار والعائلة في الحانة وحديقة الدفلى والمنزل بتمثالي الأسدين أمامه، كلها قد جلبتها، تحت عين د. مونتاغيو الصائبة إلى غرفة منزل التلّ الزرقاء. هذا مريع، قالت، غير راغبة في التحرك، حيث الحركة قد تعني القبول، علامة على الانسجام، هذا مريع، وأنا لا أود البقاء؛ لكن لا يوجد مكان آخر أذهب إليه؛ فرسالة د. مونتاغيو أحضرتها إلى هنا ولا يمكن

أن تأخذها أبعد من ذلك. تنهّدت بعد دقيقة وهزّت رأسها، ذرعت الغرفة إلى حقيبتها لتضعها على السرير.

ها أنا ذا هنا في غرفة منزل التلّ الزرقاء، قالت هذا بصوتٍ مرتفع قليلًا، رغم أن كون الغرفة زرقاء كان أمرًا حقيقيًّا بما يكفي وفوق كل الشكوك. كانت هنالك ستائر زرقاء من البفتة الهندية تغطي النافذتين اللتين تطلان على سقف الشرفة، وسجادة زرقاء منقوشة على الأرض، وشرشف أزرق على السرير، ولحاف أزرق عند موضع الأقدام من السرير. كانت الجدران الخشبية القاتمة مغطاة على ارتفاع الكتف بورق حائط منقوش بنقوش زرقاء وزهور صغيرة زرقاء، تتضافر ثم ترقّ فتخبو. ربما أَمِل أحدهم مرة أن يلطّف جوّ غرفة منزل التلّ الزرقاء بورق حائط أنيق. دون أن يرى كيف لمثل هذا الأمل أن يتبخر في منزل التلّ؛ تاركًا علامة باهتة على وجوده، تمامًا مثل صدى نحيب خافت بعيد جدًا.... هزت إلينور نفسها، مستديرة لترى الغرفة كاملة. تصميمها كلها سيئ بشكل لا يصدق، أحالها شيئًا يقشعر له البدن، في كل أبعادها، تبدو الجدران في جهة أطول مما تحتمله العين، وفي الجهة الأخرى أقصر قليلًا مما يمكن ملاحظته بالعين المجردة، هنا حيث يريدونني أن أنام، فكّرت إلينور، غير مصدّقة؛ أي كوابيس تنتظرني، أي كوابيس تندس في هذه الزاوية المرتفعة - أي نفس هلِعٌ بجنون سيعبر فمي، انتفضت مجدّدًا. حقًا، قالت لنفسها، حقًا يا إلينور؟

فتحت حقيبتها الموضوعة على السرير المرتفع، خلعت حذاء المدينة الصلب، بارتياح شديد، بدأت في تفريغ الحقيبة، وفي ذهنها قناعة تامة بأن أفضل طريقة لإراحة ذهن قلِق هي ارتداء حذاء مريح. بالأمس، وهي تحزم حقيبتها في المدينة، اختارت ملابسًا تعتقد أنها ستكون ملائمة لترتديها في منزل ريفي معزول؛ حتى إنها قد هرعت في اللحظة الأخيرة، وابتاعت، مثارةً

بجسارتها - زوجًا من البناطيل، شيء لم ترتده على مر سنوات عدة أكثر من أن تتذكرها. ستسخط أمي، هجست، واضعةً البنطالين في أسفل الحقيبة، ما دام ليس عليها إخراجها، وما دامت لن تضطر إلى أن تخبر أحدًا بأنها تمتلكها في حال فقدت شجاعتها. الآن، في منزل التلّ، لم يعد زوج البناطيل يبدو جيدًا بالنسبة لها؛ أخرجت أمتعتها دون مبالاة، طوت فساتينها على المشاجب، ألقت ببنطاليها داخل الدرج السفلي للخزانة الطويلة التي يعلوها الرخام، رمت بحذاء المدينة في زاوية الدولاب الكبير. كانت قد ملّت من الكتب التي ابتاعتها، أظن أنني لن أبقى على أيّة حال، قالت، ثم أغلقت حقيبتها الفارغة ووضعتها في زاوية الدولاب؛ لن يستغرق حزم أمتعتي مجدّدًا أكثر من خمس دقائق. انتبهت إلى أنها حاولت وضع حقيبتها دون أن تصدر صوتًا، ثم أدركت أنها أثناء فك الأمتعة بقدمين حافيتين إلا من الجوارب، حاولت التحرك دون صوت ما أمكن، كان الصمت حتميًا في منزل التلّ؛ تذكّرت أن السيدة دودلي كانت تسير أيضًا دون أن تصدر صوتًا. عندما وقفت ساكنة في منتصف الغرفة، عاد صمت منزل التلّ الملح وتحلّق حولها. فكّرت بأنها مثل مخلوق صغير ابتلعه وحش، والوحش يشعر بتحركاته الطفيفة داخله. "لا" قالت بصوتٍ مرتفع، فدوّت الكلمة الوحيدة. عبرت الغرفة مسرعةً لتفتح ستارة البفتة الهنديّة الزرقاء، لكن ضوء الشمس جاء، عبر الزجاج الكثيف، باهتًا وحسب، لم تكد ترى سقف الشرفة، وامتداد الحديقة خلفها. في مكانٍ ما في الأسفل، تقف سيارتها الصغيرة، التي تستطيع أخذها مجدّدًا. فكرت أنه بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال، وأنها قد اختارت المجيء إلى هنا. أدركت أنها خائفة من عبور الغرفة مجدّدًا.

كانت تقف وظهرها إلى النافذة، تجوّل بصرها من الباب إلى الدولاب، ثم إلى الخزانة ومنها إلى السرير، قائلةً لنفسها إنها ليست خائفة على الاطلاق،

عندما سمعت، في الأسفل، باب سيارة يصطفق ثم وقع خطوات سريعة، رقص على الأرجح، عبر العتبة ثم الشرفة، وبعدها طرْق الجرس الحديدي الثقيل القادم من الأسفل. عجبًا! إذًا سيأتي غيري. لن أكون هنا بمفردي. ضحكت، ثم هرعت عبر الغرفة إلى الردهة، نزلت مع الدرج إلى ردهة الطابق السفلي.

"أشكر الرب لأنكِ هنا،" قالت محدقةً في العتمة. "أشكر الرب لأن أحدًا هنا،" أدركت أنها كانت تتحدث كأن السيدة دودلي لا تستمع إليها، رغم أن السيدة دودلي وقفت مستقيمة وشاحبة في البهو. "اصعدي،" قالت إلينور، "عليكِ حمل حقيبتكِ." كانت لاهثة، ويبدو أنها غير قادرة على التوقف عن الكلام، خجلها المعتاد قد أذابه الارتياح. "اسمي إلينور ڤـانس،" قالت "وأنا سعيدة للغاية بوجودكِ هنا."

"أنا ثيودورا، ثيودورا وحسب. هذا المنزل اللعين..."

"إنه بالسوء نفسه هنا، اصعدي. دعيها تعطيكِ الغرفة المجاورة لغرفتي."

صعدت ثيودورا الدرج خلف السيدة دودلي تنظر غير مصدقة إلى زجاج النوافذ المتسخ على بسطة الدرج، جرة الرخام في المشكاة، السجادة المطرزة، كانت حقيبتها أكبر من حقيبة إلينور بشكل واضح، وأكثر رفاهية، تقدّمت إلينور إليها لمساعدتها، سعيدة بأن أشياءها بعيدة بأمان عن أعين الآخرين. "انتظري حتى تشاهدي غرف النوم." قالت إلينور، "غرفتي كانت للتحنيط، أظن هذا."

"إنه البيت الذي طالما حلمت به،" قالت ثيودورا. "ناءٍ قليلًا حيث أستطيع أن أظل وحدي مع أفكاري. خاصةً إذا كانت أفكاري عن القتل والانتحار أو...."

"الغرفة الخضراء،" قالت السيدة دودلي ببرود، شعرت إلينور، بادراك مفاجئ، أن نقد منزل التلّ أو التطاول عليه يزعج السيدة دودلي بشكلٍ ما، ربما تعتقد أن بمقدوره الاستماع إلينا، قالت إلينور، ثم شعرت بالأسف لأنها فكرت في هذا. ربما أنها ارتجفت لأن ثيودورا استدارت بابتسامة سريعة ولمست كتفها بعناية، على نحو تطميني، إنها فاتنة، قالت إلينور، بادلتها الابتسامة، ليست الشخص الذي ينتمي إلى هذا المكان المظلم الميت، على الأرجح أنا أيضًا لا أنتمي إليه؛ لست الشخص المنسجم مع منزل التلّ، كما لا يمكنني أن أفكر بشخص ينسجم معه. ضحكت حينها مشاهدة تعبير وجه ثيودورا وهي تقف بباب الغرفة الخضراء.

"ربّاه،" قالت ثيودورا، محدّقة إلى إلينور بجانبها.

"غرفة فاتنة تمامًا. مصيف جيد."

"أضع العشاء على نضد المائدة في غرفة الطعام في تمام السادسة." قالت السيدة دودلي، "يمكنكم خدمة أنفسكم. أنظف صباحًا، أقدم فطوركم عند التاسعة. هكذا وافقت أن أعمل."

"أنتِ فزِعة،" قالت ثيودورا، محدقة في إلينور.

"لا يمكنني أن أوضّب الغرف كما تودون كما لا يوجد أحد آخر يساعدني. لا أخدم الناس أثناء تناول الطعام، ما وافقت عليه لا يتضمن أن أخدم الناس."

"فقط حين ظننت أنني سأظل وحدي." قالت إلينور.

"لا أظل بعد السادسة، ليس بعد أن يحل الظلام."

"أنا هنا الآن،" قالت ثيودورا، "فكل شيء على ما يرام."

"لدينا حمام مشترك،" قالت إلينور. "الغرف متطابقة تمامًا."

ستائر بفتة هندية خضراء معلّقة فوق النافذة في غرفة ثيودورا، وورق الحائط مزيّن بأكاليل خضراء، اللحاف أخضر وشرشف السرير كذلك، الخزانة التي يعلوها الرخام والدولاب الكبير ذاته. "لم أر مكانًا بهذا القبح في حياتي،" قالت إلينور، وقد علا صوتها.

"يضاهي أحسن الفنادق،" قالت ثيودورا، "أو أي مخيم فتيات جيّد."

"أغادر قبل حلول الظلام،" أضافت السيدة دودلي.

"لن يسمعكِ أحد إذا صرختِ في الليل،" أخبرت إلينور ثيودورا. لاحظت أنها متشبّثة بمقبض الباب، وتحت عين ثيودورا المستفهمة أفلتت أصابعها ومشت بخطى ثابتة عبر الغرفة. "علينا أن نجد طريقة لفتح هذه النوافذ،" قالت.

"وعليه، لن يكون هنالك أحد بالقرب إذا ما احتجتِ إلى المساعدة،" قالت السيدة دودلي. "لن نستطيع سماعكِ، حتى في الليل، لا أحد يستطيع."

"هل هذا أفضل الآن؟" سألت ثيودورا، فأومأت إلينور.

"لا يعيش أحد على مقربة من هنا. البلدة هي أقرب مكان. لا أحد أيضًا سيقترب أكثر من هذا."

"على الأرجح أنكِ جائعة بالتأكيد،" قالت ثيودورا. "وأنا نفسي أيضًا طاوية." وضعت حقيبتها على السرير وخلعت نعليها. قالت: "لا شيء يزعجني أكثر من الجوع، أزمجر وأحطّم وأجهش بالبكاء." أخرجت زوجًا من البناطيل ذات الخياطة الجيدة من حقيبتها.

"في الليل،" قالت السيدة دودلي. ابتسمت. "في الظلام،" قالت، وأغلقت

الباب خلفها.

بعد دقيقة قالت إلينور، "إنها تسير أيضًا دون أن تصدر صوتًا."

"جسدٌ عتيق فاتن" استدارت ثيودورا، قاصدةً غرفتها. "أنا أتراجع، عن تشبيهها بأفضل الفنادق." قالت، "تشبه قليلًا مدرسة داخلية التحقت بها لبعض الوقت."

"تعالي وشاهدي غرفتي،" قالت إلينور. فتحت الحمام وقادتها إلى غرفتها الزرقاء. "كنت قد صففت أمتعتي وأفكر بحزمها مجدّدًا حينما وصلتِ."

"الطفلة المسكينة. أنتِ حقًا طاوية. كل ما استطعت أن أفكر فيه وأنا ألقي نظرة على المكان من الخارج أي متعة ستنجم عن الوقوف في الخارج ومشاهدته يحترق. ربّما قبل مغادرتنا...."

"قد كان بقائي هنا بمفردي مريعًا."

"لو أنكِ رأيتِ مدرستي الداخليّة تلك أثناء العطل." عادت ثيودورا إلى غرفتها، بالحركة والصوت في كلتي الغرفتين شعرت إلينور بالسرور. عدّلت ملابسها على المشاجب في الدولاب ورتبت كتبها على طاولة السرير الجانبية. "أتعلمين" صرخت ثيودورا من الغرفة الأخرى، "كأنه اليوم الأول في المدرسة؛ كل شيء قبيح وغريب، لا تعرفين أحدًا، وتخشين من أن الجميع سيسخرون من ملابسكِ."

إلينور، التي كانت قد فتحت درج الخزانة لتخرج بنطالًا، توقفت ثم ضحكت ورمت بالبنطال على السرير.

"هل فهمي صحيح،" أكملت ثيودورا، "أن السيدة دودلي لن تأتي إذا صرخنا ليلًا؟"

"ليس هذا العمل الذي وافقت عليه، هل التقيتِ بالحارس العجوز الودود عند البوابة؟"

"تحدثنا محادثة طيبة. قال إنه لا يمكنني الدخول فقلت بل يمكنني ثم حاولت دهسه بسيارتي لكنه قفز. هل تعتقدين أن علينا الجلوس هنا في غرفنا والانتظار؟ أود أن أغيّر إلى شيء مريح إلا إذا اضطررنا أن نتأنق من أجل العشاء، هل تظنين؟"

"لن أفعل إذا لم تفعلي."

"لن أفعل إذا لم تفعلي أنتِ، لا يمكنهم محاربتنا نحن الاثنتان. على أية حال، دعينا نخرج من هنا ونستكشف؛ أتشوق إلى أن أبعد هذا السقف من فوق رأسي."

"يخيّم الظلام باكرًا وسط هذه التلال، مع كل هذه الأشجار...." اتّجهت إلينور إلى النافذة مجدّدًا، لكن ما يزال هناك بعض الضوء يتسلل إلى الحديقة.

"لن يحل الظلام حقًا قبل ساعة من الآن. أريد أن أخرج وأتدحرج على العشب."

اختارت إلينور كنزة حمراء، معتقدةً أنه في هذه الغرفة وفي هذا المنزل ستكون حمرة الكنزة والصندل الذي جاءت به ليناسبه في صراع بالتأكيد، رغم أنهما كانا قريبين جدًا أمس في المدينة. يخدم رغبة ارتدائي هذه الأشياء كما يجب على أيّة حال، فكّرت؛ لم أرتد مثلها من قبل. بدا لها أنها شاذة تمامًا، وهي تقف بارتياحٍ بالغ أمام المرآة الطويلة على باب الدولاب. "هل لديكِ أي فكرة عمّن سينضم إلينا؟" سألت. "أو متى؟"

"دكتور مونتاغيو،" أجابت ثيودورا. "ظننت أنه سيكون هنا قبل أي أحد."

"هل تعرفين دكتور مونتاغيو منذ مدة طويلة؟"

"لم ألتق به قط." قالت ثيودورا، "وأنتِ؟"

"أبدًا. ستجهزين قريبًا؟"

"جهزت تمامًا." خرجت ثيودورا من باب الحمام باتجاه غرفة إلينور، فكرت إلينور بأن ثيودورا جميلة، استدارت لتنظر، أتمنى لو أنني جميلة. كانت ثيودورا ترتدي كنزة صفراء فاقعة، ضحكت إلينور وقالت: "تنيرين هذه الغرفة أكثر من النافذة."

تقدّمت ثيودورا ونظرت إلى نفسها بإعجاب في مرآة إلينور. قالت: "أحس أن مهمتنا في هذا المكان الباهت أن نبدو مشرقات قدر الإمكان. أجيز سترتكِ الحمراء، كلتانا سنصبح مرئيتين من أول منزل التلّ إلى آخره." وهي ما تزال تنظر إلى المرآة، سألت: "أظن أن دكتور مونتاغيو كتب لكِ؟"

"نعم." كانت إلينور محرَجة. "لم أعرف في البدء إن كانت مزحة أم لا. لكن زوج أختي تأكد منه."

"تعرفين،" قالت ثيودورا ببطء "حتى اللحظة الأخيرة، إلى أن وصلت إلى البوابة، أظن، لم أصدق قط بوجود منزل التلّ تصديقًا كافيًا. لا تتوقعين حدوث مثل هذه الأشياء."

"لكن بعضنا يأمل بها يكفي،" قالت إلينور.

ضحكت ثيودورا وتمايلت أمام المرآة وأمسكت بيد إلينور. "اتبعيني رفيقتي الحبيبة في الغابات،" قالت، "لنستكشف."

"لا نستطيع الذهاب بعيدًا عن المنزل..."

"أعدكِ بأنني لن أتقدم خطوة عمّا تقولين. هل تعتقدين أن علينا أن نقيّد

الدخول والانصراف لدى السيدة دودلي؟"

"ترى على الأرجح كل حركة نقوم بها، على كل حال يبدو أنه ضمن ما اتفقت عليه."

"اتفقت عليه مع من، أتساءل؟ الكونت دراكولا؟"

"تعتقدين أنه يعيش في منزل التلّ؟"

"أظن أنه يقضي جميع عطل نهاية الأسبوع هنا؛ أقسم أنني رأيت خفافيشًا في الإطارات الخشبية في الأسفل. الحقيني، الحقيني."

هبطتا الدرج، تسيران باللون والحياة في كنف الخشب المعتم وإنارة الدرج الضعيفة، تخبط أقدامهن على الدرجات، والسيدة دودلي تقف صامتة في الأسفل، تراقبهن.

"سنخرج للاستكشاف، يا سيدة دودلي." قالت ثيودورا بصوت خفيض. "سنكون في الخارج في مكانٍ ما."

"لكننا سنعود قريبًا." أضافت إلينور.

"أضع العشاء على منضدة حجرة الطعام في السادسة تمامًا." قالت السيدة دودلي.

فتحت إلينور بالسحب باب المدخل الضخم؛ كان ثقيلًا كما يبدو بالضبط، فكّرت بأن عليهن العثور على طريقة أسهل للدخول. "دعيه مفتوحًا." قالت لثيودورا خلفها دون التفات. "ثقيلٌ جدًا، خذي إحدى هذه المزهريات الكبيرة وأسنديه بها ليبقى مفتوحًا."

دحرجت ثيودورا إحدى المزهريات الحجرية الكبيرة من زاوية الردهة، وضعتاها على الباب وأسندتا درفته بها. ضوء الشمس الذي بدأ يخفت في

الخارج بدا لهن مشرقًا بعد ظلمة المنزل، كما أن الهواء عليلٌ ومنعش. أعادت السيدة دودلي المزهريّة خلفهن إلى مكانها مجدّدًا، فانغلق الباب الضخم مدوّيًا.

"شيء عتيق محبّب." قالت ثيودورا للباب المغلق. لوهلة كان وجهها يتّقد حنقًا، تمنّت إلينور ألا تنظر ثيودورا إليها هكذا أبدًا، وكانت متفاجئة، متذكرة أنها كانت دائمًا خجولة مع الغرباء، مرتبكة ونافرة، مع ذلك شعرت فيما لا يتجاوز النصف ساعة أن ثيودورا قريبة ومهمة، شخصٌ سيكون غضبه مفزعًا.

"أظن." قالت إلينور بتردّد، ثم ارتاحت، إذ ما إن تحدثت حتى استدارت ثيودورا وابتسمت مجدّدًا، "أظن أن خلال ساعات النهار عندما تكون السيدة دودلي موجودة فعلي أن أبحث لنفسي عن مكان أخّاذ بعيد، بعيد عن المنزل. أتدحرج في ملعب التنس أو أعتني بالعنب في الدفيئة."

"أو ربّما تساعدين السيد دودلي عند البوّابة."

"أو أبحث عن قبور بلا شواهد في رقعة القريص."

كانتا تقفان بجانب درابزين الشرفة؛ من هناك يمكنهن رؤية الزقاق إلى النقطة التي يدخل فيها إلى الأشجار مجددًا، وعبر انحناءات التلال الناعمة، إلى الخط الصغير البعيد الذي ربما يكون الطريق الرئيسي السريع، الطريق الذي يعود إلى المدن التي جاءتا منها. باستثناء الأسلاك التي تتصل بالمنزل من نقطة خلف الشجر، لا يوجد أي دليل آخر يثبت أن منزل التلّ ينتمي إلى بقية العالم بأي شكل كان. استدارت إلينور وذرعت الشرفة؛ التي تمتد على ما يبدو حول المنزل. "أوه، انظري،" قالت، متأملة الزاوية.

خلف المنزل تتكوّم التلال في مجموعات ضخمة مغمورة بخضرة الصيف الآن، زاخرة وهادئة.

"لهذا أسموه منزل التلّ،" قالت إلينور.

"إنه فكتوري تمامًا،" قالت ثيودورا. "إنهم ببساطة يسترخون في مثل هذه الكتلة المبالغ فيها، ويدفنون أنفسهم في طيّات من الخميلة والشُرابات والقطيفة البنفسجية. أي أحد قبلهم أو بعدهم كان سيضع هذا المنزل هناك، أعلى تلك التلال حيث ينتمي، عوضًا عن ركنه هنا في الأسفل."

"لو كان أعلى التلّ لاستطاع الجميع رؤيته. أصوّت على إبقائه مخفيًا جيدًا حيث هو."

"طيلة الوقت الذي سنكون فيه هنا سأظل فزعة،" قالت ثيودورا، "متخيلةً أن إحدى هذه التلال ستقع علينا."

"لن تقع عليكِ. ستنزلق ببطء وحسب، بصمت وسريّة، تتدحرج فوقكِ بينما تحاولين الهرب."

"شكرًا لكِ،" قالت ثيودورا بصوتٍ خافت. "ما بدأت به السيدة دودلي أتممته أنتِ بنجاح على أكمل وجه. يجدر بي أن أحزم أمتعتي وأعود للبيت حالًا."

مصدّقة إيّاها لوهلة، استدارت إلينور وحدّقت، ثم رأت السخرية على وجهها، ثم فكرت بأن ثيودورا أشجع منها بكثير.

على نحو مفاجئ - رغم أنه بات لاحقًا أمرًا مألوفًا، نتيجة واضحة لما تكونه ثيودورا في تصور إلينور - خمّنت ما خطر ببال إلينور، وأجابتها: "لا تكوني خائفة طيلة الوقت،" قالت وتقدمت لتلامس خد إلينور بإصبعٍ واحد. "نحن لا نعلم أبدًا من أين تأتي شجاعتنا." ثم، بسرعة، ركضت عبر العتبة ثم إلى الحديقة، بين الأشجار المتحلّقة الطويلة. "أسرعي" صرخت، "أريد أن أرى إن كان هنالك جدول في مكانٍ ما."

"لا يمكن أن نبتعد كثيرًا،" قالت إلينور، لاحقة بها.

مثل طفلتين ركضتا على العشب، مرحبتان بالانفتاح المفاجئ على الساحات الفسيحة بعد قضاء وقت قصير في منزل التلّ، أقدامهن ممتنة للعشب بعد الأرضيّة الصلبة، بغريزة حيوانية تقريبًا تبعتا صوت الماء ورائحته. "هناك،" قالت ثيودورا، "درب صغير."

قادهن مفتونتين بالقرب من صوت الماء، تردّد بين الأشجار، مانحًا إيّاهن لمحة من التلّ إلى الزقاق، ثم أوصلهن إلى منحنى ليس في مرمى الناظر من منزل التلّ، عبر مرج صخري، ثم إلى المنحدر. حين ابتعدتا عن المنزل والأشجار وخرجتا إلى أماكن يعثر ضوء الشمس عليهن فيها، أصبحت إلينور أكثر ارتياحًا، رغم أنها ترى الشمس تغرب في كومة التلال. نادت ثيودورا، لكن ثيودورا أجابتها بقول: "الحقيني، الحقيني." وحسب. قطعت الدرب ركضًا. توقّفت فجأة، لاهثة مترنحة، على ضفة الجدول، الذي بزغ أمامها فجأة؛ إلينور التي تباطأت خلفها، أمسكت بيدها وسحبتها إلى الوراء ثم وقعتا ضاحكتين خلف الضفة التي تنحدر بشدة إلى الجدول.

"يحبّون مفاجأتكِ هنا." قالت ثيودورا، زافرة.

"كنت تستحقين الغوص فيه." قالت إلينور، "بركضك هكذا."

"المكان أخّاذ، أليس كذلك؟" يجري ماء الجدول بسرعة في موجات صغيرة، في الجهة الأخرى نبت العشب على الضفة، أزهار صفراء وزرقاء أمالت رؤوسها عليه؛ هنالك تلة مدوّرة ناعمة، وربّما حقول أكثر وراءها وبعيدًا التلال الضخمة التي ما تزال تلتقط ضوء الشمس. "إنها أخّاذة." قالت ثيودورا أكيدة.

"واثقة من أنني قد كنت هنا من قبل،" قالت إلينور، "في كتاب قصص

الجنيّات، ربّما."

"واثقة من هذا. هل يمكنكِ قفز الصخور؟"

"هنا حيث جاءت الأميرة لتلتقي السمكة الذهبية السحريّة التي هي في الحقيقة أمير متخفٍ..."

"لا يستطيع السباحة في ماء عميق، سمكتكِ الذهبية هذا؛ لا أعتقد أن عمق الماء يزيد على ثلاث بوصات."

"توجد صخور لتعبري من فوقها، وسمكات صغيرة تسبح، باللغة الصغر-بلهات؟"

"أمراء متخفون، جميعهم." تمدّدت ثيودورا تحت الشمس على الضفة، وتثاءبت.

"شراغف؟" سألت.

"بلهات. الموسم متأخر جدًا على إيجاد الشراغف. لكن أراهن أننا نستطيع أن نجد بيض ضفادع. اعتدت على امساك البلهات بيدي ثم إطلاقها."

"أي زوجة رائعة لمزارع كان يمكن أن تكوني."

"هذا مكان للتنزه، نزهة غداء بجانب الجدول، مع بيض مسلوق."

ضحكت ثيودورا. "سلطة دجاج وكعك شوكولاتة."

"ليموناضة في كظيمة، ملح مرشوش."

تدحرجت ثيودورا بغنج: "إنهم مخطئون فيما يتعلق بالنمل، أتعلمين؟ لم يوجد نمل على الإطلاق. ربما بقر، لكن لا أعتقد أنني رأيت نملة في نزهة قط."

"أكان هناك ثور في الحقل دائمًا؟ هل يقال باستمرار: لكن لا يمكننا عبور هذا الحقل، هنا حيث يعيش الثور؟"

فتحت ثيودورا عين واحدة. "هل كان لديكِ عم كوميدي، يضحك الجميع دائمًا مهما يكن ما قاله؟ وهو يخبركِ ألّا تخافي من الثور - إذا لحق بكِ الثور فإن ما عليكِ فعله أن تمسكيه ببُرّته التي تثقب أنفه وتلوّحي به فوق رأسكِ؟"

رمت إلينور بحصاة في الجدول وراقبتها وهي تغوص بوضوح إلى الأسفل. "هل لديكِ الكثير من الأعمام والأخوال؟"

"آلاف. وأنتِ؟"

بعد برهة قالت إلينور: "أوه، نعم. كبار وصغار، بدناء ونحيلون"

"هل لديك العمة إدنا؟"

"والخالة ميوريل."

"نحيلة نوعًا ما؟ بنظارات غير مؤطرة؟"

"ترتدي دبّوس صدر من العقيق." قالت إلينور.

"هل ترتدي فستانًا خمريًا في حفلات العائلة؟"

"بأكمام دانتيل..."

"إذًا أظن أننا لا بد من أن نكون قريبتين في الواقع."

قالت ثيودورا: "هل كان على أسنانكِ تقويم؟"

"لا. فقط نمش في وجهي."

"ذهبت إلى تلك المدرسة الداخلية حيث علّموني انحناءة التحيّة."

"كنت أصاب بالبرد طيلة الشتاء. جعلتني أمي أرتدي جوارب صوفيّة."

"جعلت أمي أخي يأخذني إلى حفلات الرقص، كنت أنحني كمجنونة. لهذا أخي ما زال يكرهني."

"سقطت في مسيرة التخرّج."

"نسيت أبياتي في الأوبريت."

"كتبت الشعر."

"نعم،" قالت ثيودورا، "أنا واثقة من أننا قريبتان." وقفت ضاحكة، ثم قالت إلينور، "لا تتحركي، يوجد شيء يتحرك هناك." متجمدتان، كتفًا بكتف، حدّقتا إلى بقعة في ناحية عند التلال خلف الجدول حيث يتحرك العشب، تشاهدان أثر حركة بطيئة لشيء غير مرئي على عشب التلّ الأخضر الفاتح، شيء برّد أشعة الشمس وهزّ الجدول الصغير الراقص. "ما هذا؟" قالت إلينور بذعر، فقبضت ثيودورا على معصمها بشدة.

"لقد ذهب." قالت بثقة، عادت الشمس والدفء مجدّدًا. "كان أرنبًا،" قالت ثيودورا.

"لم أتمكن من رؤيته." قالت إلينور.

"رأيته في اللحظة التي تحدّثتِ فيها،" قالت ثيودورا بصرامة. "كان أرنبًا؛ اعتلى التلّ وغاب عن مرمى النظر."

"لقد أطلنا في الخروج،" قالت إلينور وهي تنظر بقلق إلى الشمس التي تلامس قمم التلال. نهضت مسرعة فوجدت أن ساقيها قد تنمّلتا لجثوّها على العشب الرطب.

"تخيّلي أن فتاتين كبيرتين متمرستين بامتياز في النزهات مثلنا،" قالت

ثيودورا، "تخشيان أرنبًا."

تمدّدت إلينور ومدت يدها للمساعدة. "يجدر بنا العودة بسرعة،" قالت، ولأنها نفسها لم تفهم قلقها الملح، أضافت، "لا بد أن الآخرين في المنزل الآن."

"سنعود إلى هنا قريبًا، من أجل التنزه،" قالت ثيودورا، متتبعةً الدرب، الذي يقود مباشرة إلى التلال، بانتباه. "يجب حقًا أن نحظى بنزهة جيدة على الطراز القديم عند الجدول."

"يمكننا أن نطلب من السيدة دودلي أن تسلق بعض البيض." توقفت إلينور في الدرب، دون استدارة. "ثيودورا،" قالت، "لا أظن أنني أستطيع، تعرفين، لا أظن أنني قادرة حقًا على البقاء."

"إلينور." طوّقت ثيودورا كتفيها بذراعها. "هل ستدعينهم يفرقوننا الآن؟ بعد أن اكتشفنا أننا قريبتان؟"

الفصل الثالث

(1)

غربت الشمس برتابة خلف التلال، اندسّت بتوق أخيرًا، إلى الأكوام وسائديّة الشكل. كانت هنالك ظلال طويلة في الحديقة حينما جاءت إلينور وثيودورا مع الزقاق المؤدي إلى شرفة منزل التلّ الجانبيّة، الذي كان مخفيًا وجهه الغاضب، لحسن الحظ، في الظلمة المتنامية.

"أحدهم ينتظر هناك،" قالت إلينور، وهي تحث الخطى، حينها رأت لوك للمرّة الأولى. خطر لها أن الترحال ينتهي بلقاء الأحبة، لم تستطع سوى أن تتفوّه مضطربة بسؤال: "هل تبحث عنّا؟"

جاء إلى درابزين الشرفة، أطرق النظر إليهن في الغسق، انحنى بعدها مرحبًا بتلويحة ثم قال: "إن كان هؤلاء موتى، فلا بد من أنني ميّت أيضًا. سيدتيّ، إن كنتما شبحين من أشباح منزل التلّ، فسأظل هنا للأبد."

شعرت إلينور بأنه سخيف حقًا، بينما قالت ثيودورا: "نأسف أن لم نكن في المنزل حين وصولك، إنما كنا نستكشف."

قال: "شمطاء فظّة بوجهٍ خاثر رحّبت بنا، شكرًا لكِ. قالت لي: كيف حالك؟ آمل أن أراك حيًا حين أعود في الصباح وعشاؤك على المنضدة. قالت ذلك ثم ركبت سيارة مكشوفة من آخر طراز مع القاتل الأول والثاني[1]."

---

1 - إشارة إلى شخصيّات من مسرحيّة ماكبث - لويليام شكسبير.

"هذه هي السيدة دودلي،" قالت ثيودورا. "لا بد أن القاتل الأول دودلي الحارس، وأظن أن الآخر الكونت دراكولا. عائلة مقتدرة."

"ما دمنا نعدّد شخصيات المسرحية،" قال، "فأنا لوك ساندرسن." قالت إلينور مدهوشة: "إذًا أنت أحد أفراد العائلة؟ مالكي منزل التلّ؟ لست أحد ضيوف الدكتور مونتاغيو؟"

"أنا أحد أفراد العائلة؛ هذه الكومة الفخمة ستكون لي يومًا ما، حتى ذلك اليوم، على أيّة حال، فأنا هنا بصفتي أحد ضيوف د. مونتاغيو."

قهقهت ثيودورا. قالت: "نحن إلينور وثيودورا، فتاتان صغيرتان كانتا تخطّطان لنزهة عند الجدول هناك، عادتا إلى المنزل مرعوبتين بسبب أرنب."

"أحس برعب مميت من الأرانب." علّق لوك بلباقة. "هل يمكنني أن أنضم إليكما إذا حملتُ سلّة النزهة؟"

"يمكنك أن تجلب معك أكلالك وتعزف لنا بينما نأكل شطائر الدجاج. هل د. مونتاغيو هنا؟"

"إنه في الداخل،" قال لوك، "متباهيًا بمنزله المسكون."

صمتوا لبرهة، أرادوا الاقتراب من بعضهم، ثم قالت ثيودورا برقّة: "لا يبدو مضحكًا، أليس كذلك؟ والظلام يخيّم الآن؟"

"أهلًا بالسيدتين." فُتح الباب الأمامي الضخم. "تفضلا بالدخول. أنا الدكتور مونتاغيو."

(2)

وقف الأربعة، لأول مرة، في ردهة منزل التلّ الأماميّة الواسعة المظلمة.

حولهم المنزل الذي يحتويهم ويثبتهم، فوقهم التلال التي تنام حذرة، تيّارات خفيفة من الهواء والصوت والحركة تختلط وتنتظر وتتهامس، ومركز الوعي كان بشكلٍ ما المساحة الصغيرة حيث يقف أشخاص أربعة متفرقون، ينظر أحدهم إلى الآخر بثقة.

"أنا سعيد جدًا لأن الجميع وصلوا بسلامة، وعلى الوقت" قال د. مونتاغيو. "أهلا بكم، جميعًا، أهلًا في منزل التلّ - على الرغم من أن هذا الترحيب من الأنسب أن يأتي منك ربّما يا بنيّ. على أيّة حال، أهلًا، أهلًا. لوك، بنيّ، هلّا مزجت لنا مارتيني؟"

(3)

رفع د. مونتاغيو كأسه وارتشف منه رشفة ملؤها الأمل وتنهّد. "لا بأس بها،" قال. "جيّدة يا بنيّ، من أجل نجاحنا في منزل التلّ، على كل حال."

"كيف يمكن لأحد أن يقدّر النجاح، بدقّة، في قضية مثل هذه؟" استفسر لوك بفضول.

ضحك الدكتور. "ضعها، إذًا،" قال، "أرجو أن نحظى جميعنا بزيارة ممتعة، وأن الكتاب سيجعل زملائي يرتدون على أعقابهم. لا يمكنني أن أسمي زيارتكم عطلة، رغم أنها قد تبدو هكذا للبعض، لأنني متفائل بعملكم - على الرغم من أن العمل، طبعًا، يعتمد بشكل كبير على ما يجب أن يُنجز، أليس كذلك؟ الملاحظات." قال بارتياح كمن يقرر وفق صلابة لا تهتز في عالم من الضباب، "الملاحظات. سندوّن الملاحظات - بالنسبة للبعض، تدوين الملاحظات ليست بالمهمة التي لا تطاق."

"طالما أن أحدًا لن يتلاعب لفظيًا بين الأرواح والروحيّات [المشروبات

الروحيّة]،" قالت ثيودورا، مادّة كأسها للوك حتى يملأه.

"أرواح؟" حدجها الدكتور بنظرة. "أرواح؟ نعم، بالطبع. بالتأكيد لا أحد منّا...." تردّد، عابسًا، "بالتأكيد لا،" قال وارتشف ثلاث رشفات سريعة متوترة من شرابه.

"كل شيء شديد الغرابة،" قالت إلينور. "أعني، هذا الصباح كنت أتساءل كيف يبدو منزل التلّ، والآن لا أصّدق أنه حقيقي، وأننا هنا."

كانوا يجلسون في حجرة صغيرة، اختارها الدكتور، وهو الذي قادهم إليها، عبر رواق ضيق، متعثرًا في البدء بعض الشيء، لكنه عثر بعدها على طريقه. لم تكن حجرة دافئة، بالطبع. كان لها سقف مرتفع ارتفاعًا غير مريح، وموقد ضيق مطوّب، المدفأة الذي يبدو أنها باردة رغم النار التي أوقدها لوك فور دخوله؛ المقاعد التي يجلسون عليها كانت مستديرة وزلقة، والنور الناتج عن المصابيح الملوّنة المزينة بالخرز يرسل الظلال في الزوايا. كان البنفسجي هو اللون المهيمن؛ تحت أقدامهم تتزيّن السجّادات بزخارف باهتة معقدة، الجدران مغطاة بالورق ومذهّبة، وكيوبيد رخامي متّجه إليهم من رف المدفأة. كانوا يرزحون تحت ثقل هدوء المنزل من حولهم عندما يصمتون لبرهة. تساءلت إلينور إن كانت هنا حقًا، وأنّها لا تحلم بمنزل التلّ من نقطة آمنة بعيدة جدًا من هنا، تقلب نظرها في الحجرة ببطء وانتباه، قائلة لنفسها بأن هذا حقيقي، هذه الأشياء موجودة، من الطوب حول المدفأة إلى كيوبيد الرخامي؛ هؤلاء الناس سيصبحون أصدقاءها. كان الدكتور مستديرًا وأقهب وملتحيًا، ويبدو أنه أنسب له أن يجلس أمام نار في حجرة جلوس صغيرة جذّابة، مع قطة في حجره، وزوجة قهباء تجلب له كعكًا محشوًا بالمربى، أمّا الآن فهو الدكتور مونتاغيو الذي لا يعصى، من قاد إلينور إلى هنا، رجل صغير عنيد مطّلع في آن. على الطرف الآخر من الدكتور، وراء النار،

كانت ثيودورا، التي أصابت بالذهاب إلى أكثر كرسي قريب مريح وتمعّجت فيه بشكلٍ ما مدلية ساقيها من فوق مسند ذراعه، ورأسها مسندة إلى ظهره، فكّرت إلينور بأنها مثل قطة، وبوضوح أكثر قطة تنتظر عشاءها. لم يسكن لوك للحظة، بل ذرع الغرفة جيئة وذهابًا عبر الظلال يملأ الكؤوس، يلمس كيوبيد الرخامي، يذكي النار التي كان يبدو متوهّجًا تحت نورها، ومجهدًا في الوقت نفسه. كانوا صامتين، يحدقون إلى النار، خاملين بعد تجوالهم المتعدد، فكّرت إلينور بأنها الشخص الرابع في هذه الحجرة؛ أنا منهم، أنا أنتمي.

"ما دمنا هنا جميعًا،" قال لوك فجأة كأن المحادثة لم تتوقف، "ألا يجدر بنا أن نتعرّف، نعرف الأسماء وحسب، حتى الآن. أعرف أن هذه إلينور، الجالسة هنا، من ترتدي كنزة حمراء ومن ثمّ لا بد من أن ثيودورا من ترتدي الأصفر.."

"لدكتور مونتاغيو لحية،" قالت ثيودورا، "وعليه يجب أن تكون لوك."

"وأنتِ ثيودورا،" قالت إلينور، "لأنني إلينور." هجست إلينور بفخر: إلينور التي تنتمي، التي تتحدث بطلاقة، وتجلس بالقرب من النار مع أصدقائها.

"وعليه أنتِ ترتدين كنزة حمراء،" شرحت لها ثيودورا واعيةً.

"ليس لي لحية،" قال لوك، "لذلك لا بد من أن هذا دكتور مونتاغيو."

"لي لحية،" قال الدكتور، مبتهجًا، ونظر إليهم بالتفاتة سعيدة. "زوجتي تحب أن يعفي الرجل لحيته. العديد من النساء، على النقيض، يرين اللحى مقززة. الرجل الذي يملط لحيته، اعذرني بنيّ، لا يبدو أنيقًا أبدًا، هذا ما تقوله زوجتي." مد كأسه إلى لوك.

"بما أنني أعرف مَن مِن بيننا أنا،" قال لوك، "لأعرّف بنفسي أكثر. أنا، في

حياة خاصة - مفترضًا أن هذه حياة عامة وباقي العالم بالطبع خاص - لنقل إنني مصارع ثيران. نعم. مصارع ثيران."

"أحب حبي بالبي،" قالت إلينور بالرغم من نفسها، "لأنه بلحية." [1]

"صحيح جدًا." أومأ لوك إليها. "هذا ما يجعل مني دكتور مونتاغيو. أعيش في بانكوك، وهوايتي ازعاج النساء."

"قطعًا." اعترض دكتور مونتاغيو مستمتعًا "أعيش في بلمونت."

ضحكت ثيودورا، وأعطت لوك تلك النظرة السريعة المتجاوبة التي أعطتها لإلينور من قبل. إلينور، تراقب، فكرت بسخرية أن من الخانق أحيانًا أن تكون بصحبة شخص ينسجم فورًا، ذي بصيرة شديدة مثل ثيودورا. "أنا، وفقًا لمهنتي، عارضة يرسمني الرسّامون،" قالت إلينور بسرعة لتسكت أفكارها. "أعيش حياة مجنونة تخلو من القيود، ألفّ نفسي بشالي وأتنقّل من محترف لآخر."

"هل أنتِ لعوب قاسية؟" سأل لوك. "أم أنكِ واحدة من المخلوقات الهشّة التي قد تغرم بابن اللورد وتذوي؟"

"تفقدين كل جمالكِ وتسعلين كثيرًا؟" أضافت ثيودورا.

"على العكس أعتقد أن لدي قلب من الذهب،" قالت إلينور بتأمّل. "على أيّة حال، كانت حياتي حديث المقاهي." يا سلام، قالت لنفسها، يا سلام!

"للأسف." قالت ثيودورا، "أنا ابنة لورد. أرتدي عادةً الحرير والدانتيل وأقمشة مقصبة بالذهب، لكنني استعرت حلية خادمتي لأظهر بينكم.

1- تنويع على لعبة أطفال كانت شائعة في العصر الفيكتوري، مشابهة للعبة "إنسان - حيوان - نبات - جماد - بلاد" إذ يذكر اللاعب قائمة من هذه الأشياء تبدأ بذات الحرف.

بالطبع قد أغرم بحياة العامة حد أنني لن أعود أبدًا، وسيتحتم على الفتاة المسكينة أن تبتاع لنفسها ملابس جديدة. وأنت يا دكتور مونتاغيو؟"

ابتسم في ضوء النار. "حاج، سوّاح."

"مجموعة متجانسة بحق،" قال لوك. "مقدر أن نكون أصدقاء لا يفترقون، في الحقيقة. غانية، حاج، أميرة، ومصارع ثيران. بالتأكيد لم ير منزل التلّ مثلنا قط."

"أمنح هذا الشرف لمنزل التلّ،" قالت ثيودورا. "لم أر شبيهًا له مطلقًا." نهضت، حاملة كأسها، وذهبت تتفحّص قصعة زهور زجاجية. "ماذا يسمّون هذه الحجرة، هل تعرفون؟"

"صالون، ربّما،" قال دكتور مونتاغيو. "ربّما منزول. أظن أننا سنكون مرتاحين هنا أكثر من أي حجرة أخرى. في الحقيقة، أظن أن علينا أن نعتبرها بمثابة مركز العمليات، استراحة بشكلٍ ما؛ ربما أنها ليست مرحة -"

"بالطبع مرحة،" قالت ثيودورا جازمةً. "لا شيء يبهج مثل نجيرة من البلوط ونجيدة كستنائية، وما هذا الذي في الزاوية هناك؟ محفّة؟"

"غدًا سترين الحجرات الأخرى،" قال لها الدكتور.

"إن كنّا سنتّخذ هذه للاستجمام،" قال لوك، "أقترح أن ندخل إليها شيئًا لنجلس عليه. لا أستطيع أن أحط على شيءٍ هنا لوقتٍ طويل. أنزلق،" قال لإلينور.

"غدًا،" قال الدكتور، "غدًا، في الحقيقة، سنستكشف المنزل برمته ونرتب الأشياء وفق ما يناسبنا. أمّا الآن، إن كنتم قد انتهيتم، أقترح أن نرى ماذا أعدت السيدة دودلي لعشائنا."

تحرّكت ثيودورا فورًا ثم توقّفت، محتارة. "يجدر بأحد أن يقودني،" قالت، "لن أدل حجرة الطعام." أشارت بإصبعها "هذا الباب يقود إلى الممر الطويل، ثم للردهة الأماميّة،" قالت.

ضحك الدكتور ضحكة خافتة. "خطأ، عزيزتي. هذا الباب يقود إلى الدفيئة." نهض ليقودهم. "لقد درست خريطة للمنزل،" قال برضى، "وأعتقد أن علينا أن نعبر هذا الباب، نقطع الرواق، إلى الردهة الأماميّة، نعبر الردهة، نذرع صالة البلياردو لنجد حجرة الطعام. ليس صعبًا حين تشرعين في التطبيق."

"لماذا يربكون أنفسهم هكذا؟" سألت ثيودورا. "لماذا هذه الحجرات العديدة الصغيرة الغريبة؟"

"ربما رغبوا الاختباء من بعضهم البعض." قال لوك.

"لا أفهم لم قد رغبوا بأن يكون كل شيء قاتم جدًا." قالت ثيودورا. كانت هي وإلينور تتبعان دكتور مونتاغيو عبر الرواق، خلفهن لوك، بقي يطالع أدراج طاولة صغيرة، متعجبًا بصوتٍ عالٍ من ستارة مليئة برؤوس كيوبيد ورزم الشرائط التي زيّنت النجيرة في الردهة المظلمة.

"بعض هذه الحجرات تقع كاملةً داخل حجرات،" قال الدكتور الذي يتقدمهم. "لا نوافذ، لا منفذ على الساحة الخارجية أبدًا. على كل حال، سلسلة من الحجرات المغلقة ليس أمرًا مفاجئًا تمامًا في منزل من تلك الحقبة، خاصةً حين تتذكر كيف كانت تكتنف نوافذهم ستائر وسجف من الداخل وجنبات من الخارج. آه." فتح باب الرواق وقادهم إلى الردهة الأماميّة. "الآن،" قال، متطلعًا إلى الأبواب المتقابلة، بابان صغيران يتوسطهما باب كبير بدرفتين؛ "الآن" قال، واختار الأقرب. "للمنزل غرائبه الطفيفة،" أكمل،

ممسكًا بالباب ليتمكنوا من العبور إلى الغرفة المظلمة خلفه. "لوك، تعال وابق هذا مفتوحًا، حتى أتمكن من العثور على حجرة الطعام." متحرّكًا بحذر، ذرع الحجرة المظلمة وفتح بابًا، تبعوه إلى أجمل حجرة قد رأوها منذ أن دخلوا المنزل، الأجمل، تحديدًا، بسبب الأنوار، والمنظر ورائحة الطعام. "أهنئ نفسي،" قال، فاركًا كفاه بسعادة. "لقد أخذتكم إلى المدنية عبر متاهات منزل التلّ المقفرة."

"علينا أن نعتاد على ترك أي باب مفتوح على مصراعيه." التفتت ثيودورا بتوتّر نصف التفاتة. "أكره هذا التيه في الظلام."

"يتعيّن علينا منع انغلاقها بشيء، إذًا،" قالت إلينور. "كل باب في هذا المنزل يصطفق منغلقًا حين تفلته."

"غدًا،" قال دكتور مونتاغيو. "سأكتب ما ينقصنا. مساند أبواب." مشى مبتهجًا إلى المنضدة الجانبية حيث وضعت السيدة دودلي فرن تسخين وسلسلة من الأطباق الشهية المغطاة. كانت الطاولة مُعدّة لأربعة أشخاص، مع شمعدانات فاخرة، إستبرق وفضة ثقيلة. "لا أرى تقتيرًا،" قال لوك، متناولًا شوكةً مع إشارة كانت لتؤكد أسوأ شكوك عمته. "نحن بصحبة الفضة."

"أعتقد أن السيدة دودلي فخورة بالمنزل،" قالت إلينور.

"لم ترغب أن تعد لنا وليمة متواضعة،" قال الدكتور، محدقًا في فرن التسخين. "هذا إعداد ممتاز، أعتقد. يسمح للسيّدة دودلي بالمغادرة من هنا قبل الظلام، ويتيح لنا تناول عشاءنا دون صحبتها غير المرحبة."

"ربّما،" قال لوك، محدّقًا إلى الطبق الذي ملأه بسخاء، "ربّما أفعل يا سيدة دودلي الطيّبة – لماذا يجب علي أن أفكر فيها، دون منطقية، بصفتها السيدة

دودلي الطيّبة؟ - ربّما أنني أظلمها حقًا. قالت إنها ترجو أن تجدني حيًا بحلول الصباح، وعشاؤنا في الفرن، الآن أشك أنها أرادت أن أموت من التخمة."

"ما الذي يبقيها هنا؟" سألت إلينور دكتور مونتاغيو. "لماذا بقيت هي وزوجها بمفردهما في هذا المنزل؟"

"كما فهمت، اهتمت عائلة دودلي بمنزل التلّ منذ زمن بعيد؛ بالتأكيد أن عائلة ساندرسن راضية عنهم بما يكفي حتى أبقوا عليهم. لكن غدًا..."

قهقهت ثيودورا. "يمكن أن تكون السيدة دودلي الناجية الوحيدة الحقيقية التي سيؤول إليها منزل التلّ حقًا. أظن أنها فقط تنتظر موت ورثة ساندرسن - أنت يا لوك - بطرق مريعة متعددة، حينها تحصل على المنزل وثروة المجوهرات المدفونة في القبو. أو ربّما أنها قد خبأت مع زوجها ذهبهما في حجرة سرية، أو أن هنالك نفطًا تحت المنزل."

"لا توجد حجرات سريّة في منزل التلّ،" قال الدكتور بجزم. "بالطبع، مثل هذا الاحتمالات قد طُرحت مسبقًا، وأنا أعتقد أن بإمكاني القول بثقة إنه لا يوجد مثل هذا الأشياء الرومانسية هنا. لكن غدًا..."

"على أيّة حال، مسألة النفط موضة قديمة تمامًا، لا شيء أبدًا يمكن اكتشافه تحت المباني هذه الأيام،" أخبر لوك ثيودورا. "أحدث ما يمكن أن تقتلني من أجله السيدة دودلي بدمٍ بارد هو اليورانيوم."

"أو فقط من أجل متعة القتل الخالصة،" قالت ثيودورا.

"نعم،" قالت إلينور، "لكن لم نحن هنا؟" لدقيقة بدت طويلة، نظر الثلاثة إليها، ثيودورا ولوك بفضول، والدكتور بوقار. ثم قالت ثيودورا: "تمامًا ما أردت أن أسأل عنه. لم نحن هنا؟ ما خطب منزل التلّ؟ ما الذي سيحدث؟"

"غدًا..."

"لا،" قالت ثيودورا، بنزق تقريبًا. "نحن ثلاثة أشخاص بالغون وأذكياء. قطعنا جميعنا دربًا طويلًا، دكتور مونتاغيو، لنلتقيك هنا في منزل التلّ؛ إلينور تود أن تعرف السبب، وأنا أيضًا أود."

"أنا أيضًا،" قال لوك.

"لماذا إلى هنا، دكتور؟ لماذا أنت هنا؟ كيف سمعت عن منزل التلّ، ولم له مثل هذه السمعة؟ ما الذي يحدث هنا حقًا؟ ما الذي سيحدث؟"

قطّب الدكتور بتعاسة. "لا أعلم،" قال، ثم حين أومأت ثيودورا إيماءة سريعة ومنزعجة، أكمل: "أعرف عن المنزل أكثر بقليل ممّا تعرفون، وطبعًا أنوي أن أخبركم كل شيء أعرفه؛ أما فيما يتعلّق بما سيحدث، فسأعرف حين تعرفون. لكن غدًا قريب جدًا لنتحدث عنه، أظن، ضوء النهار–"

"ليس بالنسبة لي." قالت ثيودورا.

"أؤكد لكِ،" قال الدكتور، "أن منزل التلّ سيكون هادئًا الليلة، يوجد نمط لهذه الأشياء، كأن الظواهر الماورائية موجهة وفقًا لترتيب معين."

"أعتقد أن علينا أن نتحدث عنها الليلة،" قال لوك.

"لسنا خائفين." أضافت إلينور.

تنهّد الدكتور مجدّدًا. "افترضوا،" قال ببطء، "أنكم سمعتم بقصة منزل التلّ، وقررتم المغادرة. كيف ستغادرون الليلة؟" نظر إليهم مجددًا، نظرة خاطفة. "البوّابات مغلقة. يشتهر منزل التلّ بالضيافة القسرية؛ يبدو أنه لا يحب أن يسمح لضيوفه بالمغادرة. آخر شخص حاول مغادرة منزل التلّ في الليل – وكان هذا قبل ثماني عشرة سنة، أؤكد لكم – قُتل عند المنعطف، حيث جرى الفرس فجأة بسرعة وهشّمه مصطدمًا بالشجرة الكبيرة. افرضوا أنني أخبرتكم عن منزل التلّ وأراد أحدكم المغادرة؟ غدًا، على الأقل، يمكننا أن

نتأكد من وصولكم سالمين إلى القرية."

"لكننا لن نهرب،" قالت ثيودورا. "لن أهرب، كما لن تهرب إلينور ولا لوك."

"بإصرار، من فوق الأسوار،" أضاف لوك.

"أنتم مجموعة من المساعدين العصاة. بعد العشاء، إذًا. نعود إلى حجرة القيادة نحتسي القهوة وبعض البراندي اللذيذ الذي يحمله لوك في حقيبته، وسأخبركم بكل ما أعرف عن منزل التلّ. الآن، على أيّة حال، لنتحدث عن الموسيقى أو الفن التشكيلي، أو عن آرائنا السياسيّة."

(4)

"لم أقرر بعد،" قال الدكتور، مقلبًا البراندي في كأسه، "أي طريقة هي الأفضل لأعد ثلاثتكم لمنزل التلّ. بالتأكيد لم أستطع الكتابة لكم عنه، ولا أرغب الآن أبدًا التأثير في آرائكم بتاريخه الكامل قبل أن تحظوا بفرصة رؤيته بأنفسكم." كانوا في الصالون مجددًا، يشعرون بالدفء والنعاس. سئمت ثيودورا من المحاولة على الكرسي فتربّعت ناعسة على السجادة قلبيّة الشكل. إلينور، راغبة في الجلوس على السجادة بجانبها، لم تفكر في هذا حينها وأجبرت نفسها على أحد الكراسي المنزلقة، غير راغبة الآن أن تجذب الانتباه إليها بالتحرك وإحراج نفسها بالجلوس على الأرض. عشاء السيدة دودلي اللذيذ وساعة من المحادثة الهادئة قد بخّرا صبغة الحدود واللاواقعية الضبابيّة؛ قد بدأوا في معرفة بعضهم، أدركوا أصوات بعضهم وأساليبهم التي تميّزهم، الوجوه والضحكات؛ استوعبت إلينور بمفاجأة صغيرة أنها في منزل التلّ منذ أربع أو خمس ساعات وحسب، وابتسمت قليلًا أمام النار.

يمكنها أن تحس بقاعدة كأسها الصغيرة بين أصابعها، ضغط المقعد الصلب على ظهرها، تيّارات الهواء الخفيفة في الحجرة، الظاهرة في تأرجح سلاسل الخرز والشرابات. يمتد الظلام في الزوايا، بينما يبتسم لهم كيوبيد الرخامي بسخرية.

"ما أنسب الوقت لقصة أشباح،" قالت ثيودورا.

"لو سمحتِ." قال الدكتور وقد كان صارمًا. "لسنا أطفالًا يحاول أحدنا أن يخيف الآخر،" قال.

"أعتذر." ابتسمت له ثيودورا. "فقط أحاول أن أعوّد نفسي على كل هذا."

"دعونا،" قال الدكتور، "نكون دقيقين في لغتنا. الإيمان المسبق بالأشباح والأطياف..."

"والكف المقطوعة في الحساء،" قال لوك بنيّة المساعدة.

"بنيّ العزيز. لو سمحت. كنت أحاول أن أوضّح أن هدف وجودنا هنا، حيث إنه ذو طبيعة علمية واستكشافيّة، يجب ألّا يتأثر، وربّما ألّا يغلّف حتى، بحكايات محكية لا يمكن تذكرها بشكل كامل، من تلك التي تلائم أن تحكى في... لنقل.. في جلسة شواء حلوى القطن." مزهوًا بنفسه، نظر إليهم ليتأكد أنهم قد دهشوا جميعهم. "في الحقيقة، أبحاثي خلال السنوات القليلة الماضية قادتني إلى نظريات محددة متعلقة بالظواهر الماورائية، هذه التي تسنت لي اليوم لأول مرة، فرصة لاختبارها. نظريًا، بالتأكيد، يجب ألّا تعرفوا شيئًا عن منزل التلّ. يجب أن تكونوا جهلة ومتلقين."

"وندوّن الملاحظات،" همهمت ثيودورا.

"الملاحظات. نعم، بالتأكيد. الملاحظات. على كل حال، أدركت أن

من غير العملي مطلقًا أن أدعكم بلا خلفية تمامًا، بشكل أكبر لأنكم لستم معتادين على مواجهة مثل هذه الحالة دون استعداد." التفت إليهم بمكر. "ثلاثتكم أطفال مشاغبون مدلّلون عنيدون، مستعدون للزن علي من أجل قصة النوم." قهقهت ثيودورا، فأومأ الدكتور لها بمرح. نهض وقصد النار ليقف بجانبها في وضعية معلم صف لا يشوبها النقص؛ يبدو أنه شعر بحاجة إلى السبورة خلفه، لأنه استدار نصف استدارة مرة أو مرتين، رفع يده، كأنه يبحث عن طبشور ليوضّح نقطة ما. "الآن،" قال، "سنأخذ تاريخ منزل التلّ." ليت معي دفتر وقلم، فكّرت إلينور، فقط لأشعره بالراحة. نظرت إلينور إلى ثيودورا ولوك فوجدت وجهيهما قد تحولا فورًا إلى وضعية طلاب في الصف بشكل مدهش؛ يبدو عليها الإنصات الشديد، خطر لإلينور أنهم قد انتقلوا إلى مرحلة أخرى من مغامرتهم.

بدأ الدكتور: "تتذكرون المنازل التي وصفت في سفر اللاويين بصفتها "مجذومة" التي ضربها البرص، أو وصف هومر للعالم السفلي: منزل هاديس، أظن أنني لا أحتاج إلى أن أذكركم، بأن فكرة كون منازل معينة نجسة أو محرمة - ربّما مرعبة - فكرة قديمة بقدم عقل الإنسان. بالطبع هنالك بقع لا مفر من أن تلصق بنفسها هالة من العظمة والطيبة؛ ربّما لا يكون حينها من الخيالي قول إن بعض المنازل ولدت سيئة. منزل التلّ، مهما يكن السبب، لم يكن ملائمًا للاستيطان البشري لما يزيد على عشرين سنة. كيف كان يبدو، وهل تشكّلت شخصيّته وفقًا لمن عاشوا فيه، أو وفقًا للأشياء التي فعلوها، أو أنه كان مشؤومًا منذ بدايته، جميعها أسئلة لا أستطيع إجابتها. بطبيعة الحال آمل أننا جميعنا سنعرف الكثير عن منزل التلّ قبل أن نغادر. لا أحد يعرف، حتى، لم قد تدعى بعض البيوت بالمسكونة."

"ماذا أيضًا قد تسمي منزل التلّ؟" ألح لوك.

"حسنًا - مضطرب، ربما. مجذوم. مريض. أي كناية شائعة عن الجنون. توجد نظريات شائعة، على أية حال، تحط من شأن الغرابة والغموض، يوجد أشخاص قد يخبرونكم بأن الاضطراب الذي أسميه "ماورائي" هو في الواقع نتيجة للمياه الجوفية، أو تيارات كهربائية، أو هلوسات بسبب الهواء الملوّث؛ الضغط الجوي، الكلف الشمسيّة، حركة الأرض، لديهم جميعهم مؤيديهم من المشككين. الناس،" قال الدكتور بحزن، "متلهّفون دائمًا من أجل نقل الأمور إلى مساحة مفتوحة حيث يمكنهم تسميتها، حتى لو كانت أسماء بلا معنى، ما دام لها ختم علمي." تنهد، مسترخيًا، وأعطاهم ابتسامة محيرة. "منزل مسكون،" قال. "سخر الجميع. وجدت نفسي أخبر زملائي في الجامعة أنني ذاهب للتخييم هذا الصيف."

"أخبرت الناس أنني أشارك في تجربة علمية،" قالت ثيودورا، "دون أن أخبرهم أين وعن ماذا، بالطبع."

"على الأرجح شعر أصدقاؤكِ بحماس تجاه التجربة العلمية أقل من حماس أصدقائي تجاه تخييمي. نعم" تنهّد الدكتور مرة أخرى. "التخييم، لمن هم في عمري. وأيضًا مسألة أنهم صدقوا. حسنًا." نهض مجدّدًا، مترنحًا، على مدى ياردة. "سمعت بمنزل التلّ للمرة الأولى قبل عام، من مستأجر سابق. بدأ مؤكدًا لي أنه غادر منزل التلّ لأن عائلته رفضت العيش بعيدًا بمنأى في الريف، وانتهى بقوله إنه يرى أن من الواجب أن يُحرق منزل التلّ وأن الأرض يجب أن تُرش بالملح. سمعت عن آخرين استأجروا منزل التلّ، ووجدت أن لا أحد منهم قد مكث أكثر من بضعة أيّام، تحديدًا لم يبق أحد مدة الإيجار كاملة، معطين أسبابًا تراوحت ما بين رطوبة المكان - ليس صحيحًا، بالمناسبة، المنزل جاف جدًا - إلى حاجة ملحة إلى الانتقال لمكان آخر، لأسباب عملية. أي أن كل مستأجر غادر منزل التلّ فورًا قد بذل

مجهودًا ليضفي على مغادرته سببًا منطقيًا، ومع ذلك غادر كل واحد منهم. حاولت، طبعًا، أن أعرف المزيد من هؤلاء المستأجرين السابقين، لكنني لم أستطع أن أقنع أحدًا منهم ليناقش معي أمر المنزل؛ بدا أن جميعهم لا يرغبون في إعطائي معلومات، وكانوا في الحقيقة يرفضون تذكّر تفاصيل بقائهم فيه. اتفق جميعهم على رأي واحد، دون استثناء، أي شخص أمضى أي فترة في هذا المنزل نصحني أن أبقى بعيدًا عنه قدر ما أمكن. لم يجرؤ أحد من المستأجرين السابقين على الاعتراف بأن منزل التلّ مسكون، لكنني حين زرت هيلزديل وتفحصت أرشيف الجرائد..."

"الجرائد؟" استفسرت ثيودورا. "هل كانت هنالك فضيحة؟"

"أوه، نعم." أجاب الدكتور. "فضيحة فخمة جدًا، إضافة إلى انتحار وجنون وقضايا. عرفت بعدها أن أهل القرية ليس لديهم شك في أمر المنزل. سمعت دزينة من القصص المختلفة، بالطبع من الصعب أن تحصل على معلومات دقيقة حول منزل مسكون؛ ستدهشكم معرفة ما مررت به لأعرف ما أعرفه الآن فقط - ونتيجةً لهذا ذهبت إلى السيدة ساندرسن، عمّة لوك، ورتبت لاستئجار منزل التلّ. كانت أكثر صدقًا حول عدم الرغبة فيه..."

"حرق المنزل أصعب مما تتصوّر،" قال لوك.

"... لكنها وافقت على تأجيري لفترة قصيرة حتى أكمل أبحاثي، بشرط أن يكون أحد أفراد العائلة ضمن بعثتي."

"يرجون،" قال لوك بجدية، "أنني سأثنيك عن نبش الفضائح القديمة الرائعة."

"حسنًا. وضّحت لكم الآن كيف حدث وجئت إلى هنا، ولِمَ جاء لوك، جميعنا نعرف أنكن هنا لأنني كتبت لكن، وقبلتن دعوتي. آمل أن كل واحد

منكم، كل بطريقته، سيركز جهوده على العمل في المنزل؛ أظهرت ثيودورا امتلاكها شيئًا من القدرة على التخاطر، وإلينور قد خضعت في الماضي لظاهرة من ظواهر الأشباح الضّاجة."

"أنا؟"

"بالطبع." نظر إليها الدكتور بفضول. "قبل سنوات، حين كنتِ طفلةً. الحصى..."

عبست إلينور، وهزّت رأسها. ارتعشت أصابعها حول قاعدة الكأس، ثم قالت: "كانوا الجيران. قالت أمي إن الجيران من فعلوا هذا. الناس غيورون دائمًا."

"ربّما الأمر كذلك." قال الدكتور بهدوء وابتسم لإلينور. "نُسي الحادث منذ زمن بعيد، بالطبع، ذكرته فقط لأنه السبب الذي بعثت من أجله لكِ حتى تأتي إلى منزل التلّ."

"عندما كنت طفلة،" قالت ثيودورا بكسل، "قبل سنوات، كما قلت يا دكتور، قد جُلدت لأنني قذفت طوبة على سطح دفيئة. أذكر أنني فكرت فيها لوقت طويل، أتذكر الجلد لكنني أتذكر أيضًا التحطم الجميل، وبعد التفكير فيه بجدية شديدة، خرجت وكرّرتها مجدّدًا."

"لا أتذكّر جيدًا،" قالت إلينور للدكتور بارتياب.

"لكن لم؟" سألت ثيودورا. "أعني أنني أستطيع أن أقبل بافتراض أن منزل التلّ مسكون، وأنت تريدنا هنا يا دكتور مونتاغيو، لنساعد في تدوين ما يحدث - وأشك أنك بجانب هذا لا تود البقاء هنا أبدًا بمفردك - لكنني لا أفهم. إنه منزل قديم ومريع، ولو أنني استأجرته، لصرخت طالبة استعادة نقودي بعد نظرة سريعة على الردهة الأماميّة، لكن ماذا هنا؟ ما الذي يخيف

الناس حقًا هكذا؟"

"لن أسمي ما ليس له اسم،" أجاب الدكتور. "لا أعلم."

"لم يخبروني قط حتى ما الذي حدث،" قالت إلينور بسرعة للدكتور. "قالت والدتي بأنه من الجيران، كانوا دائمًا ضدنا لأنها لم تكن تختلط بهم. والدتي..."

قاطعها لوك، ببطء وعمد. "أعتقد،" قال، "أن الحقائق هي ما نريده كلنا. شيء يمكننا فهمه وربطه ببعضه."

"أولًا،" قال الدكتور، "سأسألكم جميعًا سؤالًا واحدًا. هل تريدون المغادرة؟ هل تنصحون بأن نحزم أمتعتنا الآن ونترك منزل التلّ لنفسه، وألّا نفعل شيئًا مطلقًا في هذا الخصوص؟"

نظر إلى إلينور، التي أحكمت قبضتيها على بعضهما، كانت تفكر بأنها فرصة أخرى تتيح لها المغادرة، قالت، "لا،" ونظرت بخجل إلى ثيودورا. "تصرفت كطفلة هذه الظهيرة،" أضافت. "سمحت لنفسي أن تنذعر."

"لم تقل الحقيقة كاملة،" قالت ثيودورا منصفةً. "لم تكن مذعورة أكثر مما كنت، لقد أخفنا بعضنا حتى الموت بسبب أرنب."

"كائنات مريعة، هذه الأرانب،" قال لوك.

ضحك الدكتور. "أظن أننا جميعنا متوتّرون هذه الظهيرة، على كل حال. إنها صدمة فجة أن تستدير عبر ذلك المنعطف وترى منزل التلّ رؤية واضحة."

"ظننت أنه سيقود السيّارة إلى شجرة،" قال لوك.

"أمّا الآن فأنا أكثر شجاعة، في حجرة دافئة وبجانبي نار وصحبة،" قالت

ثيودورا.

"لا أظن أن باستطاعتنا المغادرة الآن لو أردنا." قالت إلينور قبل أن تتبيّن بوضوح ما تود قوله، أو كيف سيبدو للآخرين؛ رأت أنهم يحدّقون بها، فضحكت وأضافت بتعب: "السيدة دودلي لن تسامحنا أبدًا." تساءلت إن كانوا قد صدقوا حقًا أن هذا ما أرادت قوله، وفكّرت، ربّما أنه يحتجزنا الآن، ربّما لن يسمح لنا هذا المنزل بالمغادرة.

"لنشرب المزيد من البراندي،" قال الدكتور، "وسأخبركم بقصة منزل التلّ." عاد إلى وضعيّة الصف أمام النار، وبدأ يتحدّث ببطء، مثل شخص يؤرخ للملوك ماتوا منذ زمن طويل، وحروب وقعت منذ زمن طويل، كانت نبرته بعيدة عن العاطفيّة: "بُني منزل التلّ منذ ثمانين سنة أو تزيد. بناه رجل يدعى هيو كراين لعائلته، أراده منزلًا ريفيًا حيث أَمِل أن يرى أطفاله وأحفاده يعيشون برخاء وطمأنينة، وحيث توقع أن ينهي أيامه في هدوء. لسوء الحظ كان منزل التلّ حزينًا منذ بدايته تقريبًا؛ توفيت زوجة هيو كراين الشابة قبل أن تضع عينيها على المنزل لأول مرة بدقائق، عندما جلبتها العربة إلى هنا، عند منعطف الزقاق، جُلِبت السيدة... آه، بلا حياة، أظن أن هذه العبارة التي استخدموها – في المنزل الذي بناه زوجها من أجلها. أصبح هيو كراين رجلًا حزينًا مريرًا، وقد وقعت عليه مسؤولية تربية ابنتين صغيرتين. لكنه لم يغادر منزل التلّ."

"كبرت الطفلتان هنا!" سألت إلينور غير مصدقة.

ابتسم الدكتور. "المنزل جاف، كما قلت. لا توجد مستنقعات تسبب لهن الحمى، اعتقد أن هواءه مفيد لهن، والمنزل نفسه كان يعتبر فارهًا. لا أشك في أن طفلتين يمكنهن اللعب هنا، وحيدتين ربما، لكن ليستا تعيستين."

"أرجو أنهن قد جدفتا في الجدول،" قالت ثيودورا ثم حدّقت بشرود في النار. "الصغيرتان المسكينتان. أرجو أن أحدًا قد جعلهن تركضان في ذلك الحقل وتقطفان أزهارًا برية."

"تزوّج والدهن مجدّدًا،" أكمل الدكتور. "مرتين، في الواقع. يبدو أنه لم يكن محظوظًا بزوجاته. السيدة كراين الثانية توفت إثر سقوط، رغم أنني لم أتمكن من التأكد من كيفيته وسببه. كان موتها المأساوي غير متوقع كما كان موت سابقتها. السيدة كراين الثالثة ماتت مما يدعونه السل، في مكانٍ ما في أوروبا؛ يوجد في مكانٍ ما من المكتبة مجموعة من البطاقات البريديّة المرسلة للابنتين الصغيرتين المتروكتين في منزل التلّ من والدهن وزوجته المسافرة من منتجع صحي إلى آخر. تُرِكت الفتاتان هنا مع مربيتهن حتى موت زوجة والدهن. بعدها أعلن هيو كراين عن نية إغلاق منزل التلّ والعيش في الخارج، أُرسلت ابنتاه للعيش مع قريبة لوالدتهن، وهناك بقيتا حتى كبرتا."

"أرجو أن قريب ماما كان أكثر مرحًا من هيو العجوز،" قالت ثيودورا، وهي ما تزال محدقة ببؤس في النار. "تخيُّل طفلتين تكبران كالفطر، في الظلام! ليس لطيفًا أبدًا."

"كان شعورهن مختلفًا،" قال الدكتور، "قضت الأختان ما تبقى من حياتهن تتخاصمان على منزل التلّ. بعد آمال هيو كراين العالية بمدّ جذور أسرته هنا، توفي في مكانٍ ما من أوروبا، بعد زوجته بفترة قصيرة، وتُرك المنزل مناصفةً للأختين، اللتين كانتا حينها سيدتين شابتين. على كل حال، بزغت الأخت الكبرى في المجتمع."

"تعلّمت كيف تسرّح شعرها، وكيف تشرب الشامبانيا وتحمل مهفّة...."

"كان منزل التلّ خاليًا لسنوات، لكنه بقي مجهزًا للعائلة دائمًا؛ في البداية

توقعًا لعودة هيو كراين، ثم لاحقًا، بعد وفاته، لمن تختار العيش هناك من الأختين. في وقتٍ ما خلال هذه الفترة اتفقت الأختان كما علمتُ على أن منزل التلّ يجب أن يكون ملكًا للأخت الكبرى؛ لأن الصغرى قد تزوجت..."

"آها،" قالت ثيودورا. "الأخت الصغرى تزوّجت. سرقت عشيق أختها، متأكدة من ذلك."

"يقال إن لا حظ للكبرى في الحب،" أضاف الدكتور، "لكن هذا يقال تقريبًا لأي سيدة تفضل، لأي سببٍ كان، أن تعيش بمفردها. على كل حال، كانت هي الأخت الكبرى من عادت للعيش هنا. يبدو أنها تشابه والدها كثيرًا، عاشت هنا بمفردها لسنوات، في عزلة تقريبًا، مع هذا عرفها أهل قرية هيلزديل. لقد كان عجيبًا كما يبدو لكم، لكنها أحبت منزل التلّ بصدق وكانت تعتبره بيت عائلتها. أخيرًا، أخذت فتاة من القرية لتعيش معها، كنوع من الرفقة؛ بحسب ما عرفت لم يكن هنالك شعور طيب تجاه منزل التلّ بين سكان القرية حينها، حيث وظفت السيدة كراين العجوز - كما كانت تعرف دون شك - خدمها في القرية. السيدة كراين العجوز كانت على خلاف مستمر مع أختها من أجل المنزل، كانت الأخت الصغرى تصر على أنها تنازلت عن حقها في المنزل مقابل بعض الأملاك التي ورثتاها، البعض مما له قيمة معتبرة، ما رفضت أختها لاحقًا إعطاءها إياه. كان هنالك بعض المجوهرات، العديد من قطع الأثاث العتيقة، ومجموعة من الأطباق المؤطرة بالذهب. الأمر الذي يبدو أنه ما أزعج الأخت الصغرى أكثر من أي شيء آخر. سمحت لي السيدة ساندرسن أن أفتّش في صندوق أوراق العائلة، فرأيت بعض الرسائل التي استقبلتها السيدة كراين من أختها، في جميعها صمدت تلك الأطباق بصفتها موضوع الألم المستمر. على أيّة حال، ماتت الأخت الكبرى من الالتهاب الرئوي هنا في المنزل، لم يكن معها لمساعدتها

سوى المرافقة الصغيرة - ثم دارت لاحقًا بعض الأقاويل عن طبيب استدعي متأخرًا جدًا، عن السيدة العجوز المهمَلة في الدور العلوي، بينما تتسحب المرأة الشابة في الحديقة مع بعض المغفلين من أهل القرية، لكنني أشك في أنها مجرد اختلاقات فضائحية؛ لم أجد أبدًا أن شيئًا من هذا القبيل كان مصدقًا لدى الكثيرين آنذاك، وفي الواقع يبدو أن أغلب القصص تعزى مباشرة إلى رغبة الأخت الصغرى السامة في الانتقام، التي لم تهدأ في غضبها أبدًا."

"لا أحب الأخت الصغرى،" قالت ثيودورا. "في البدء سرقت عشيق أختها، ولاحقًا حاولت سرقة أطباق أختها. لا، لا أحبّها."

"ترتبط بمنزل التلّ قائمة طويلة من المآسي، لكن في ذلك الحين كان أمرًا منتشرًا بين غالبية المنازل القديمة. لا بد أن يعيش الناس ويموتوا في مكانٍ ما، على كل حال، ولا يكاد منزل أن يظل ثمانين سنة دون أن يشهد موت أحد من ساكنيه بين جدرانه. بعد وفاة الأخت الكبرى، كان هنالك قضية متعلقة بملكية المنزل. أصرّت المرافِقة أن المنزل قد تُرك لها، لكن الأخت الصغرى وزوجها قد أصرّا على أن المنزل قانونيًا لهما وادعيا أن المرافقة قد خدعت الأخت الكبرى لتوقع على أوراق تمنحها ملكية المنزل الذي كانت تنوي دائمًا تركه لأختها. كان أمرًا شائنًا، شأنه شأن كافة النزاعات العائلية، وكما في كل النزاعات العائلية، قيلت أشياء جارحة ووقحة جدًا من الطرفين. أقسمت المرافقة في المحكمة - وهنا، أظن، الإشارة الأولى لشخصية منزل التلّ الحقيقية - أن الأخت الصغرى جاءت في الليل إلى المنزل وسرقت أشياءَ. حين طُلب منها أن تتوسع في هذا الادعاء، توتّرت كثيرًا وتشتّتت، وأخيرًا، حينما أُجبرت على إعطاء أدلة على دعواها، قالت إن طقم تقديم الفضة مفقود، وأيضًا آنية ثمينة مطلية بالمينا، إضافة إلى طقم الأطباق المؤطرة بالذهب الشهير، ولكن حين تفكر في الأمر تجد أنه من الصعوبة الشديدة

سرقة هذه الأشياء. من جهتها، بالغت الأخت الصغرى بذكرها احتمالية قتل أختها وطالبت بتحقيق في وفاة السيّدة كراين العجوز، مصدرة أول بذرة لقصص الإهمال وسوء التدبير. لم أستطع التأكد من أن تلك الأقوال قد أخذت بجديّة. لا يوجد أي سجل لأي شيء من أي نوع سوى الشهادة الرسمية لموت الأخت الكبرى، وبالتأكيد فإن أهل القرية سيكونون أول من يتساءل لو أن هنالك أي غرابة حول الموت. ربحت المرافقة قضيتها في آخر الأمر، واستطاعت أن تربح في رأيي قضية رد اعتبار بجانبها، أصبح المنزل لها بشكل قانوني، مع هذا لم تكفّ الأخت الصغرى عن محاولة أخذه. لقد ظلت تلاحق المرافقة المنحوسة بالرسائل والتهديدات، تتهمها بأشنع الاتهامات في كل مكان، وفي سجلات الشرطة المحليّة قيّدت حادثة واحدة على الأقل حين أجبرت المرافقة على طلب حماية الشرطة لتمنع عدوتها من مهاجمتها بمكنسة. دخلت المرافقة في نوبة هلع، كما يبدو؛ تسلّل أحدهم إلى منزلها في الليل - لم تتوقف عن إصرارها على أنهم جاؤوا وسرقوا أشياءً - وقرأتُ رسالة مثيرة للشفقة اشتكت فيها أنها لم تمضِ ليلة سلام واحدة في المنزل منذ وفاة السيدة كراين التي رعتها. الغريب أن تعاطف أهل القرية كان كله تقريبًا مع الأخت الصغرى، ربما لأن المرافقة التي كانت يومًا قروية، أصبحت الآن سيدة قصر. آمن أهل القرية وما يزالون مؤمنين، على ما أظن، أنها سيدة شابة مخادعة احتالت على الأخت الصغرى في ورثها. لم يصدقوا بأنها قد تقتل صديقتها، تعلمون، لكنهم انتشوا باعتقاد أنها لم تكن أمينة، بالتأكيد لأنهم هم أنفسهم قادرين على الغش حين تسنح الفرصة. حسنًا، دائمًا ما كانت الشائعات عدوًا سيئًا. حين قتلت المخلوقة المسكينة نفسها..."

"قتلت نفسها؟" إلينور، تحدّثت مصدومة، نصف ناهضة. "اضطرت إلى أن تقتل نفسها؟"

"أتقصدين بأن هنالك طريقة أخرى للخلاص من معاناتها؟ بالتأكيد لم تفكر في هذا. شاع بين الناس أنها قد اختارت الانتحار لأن ضميرها الآثم قادها إليه. أميل أكثر إلى التصديق بأنها واحدة من الشابات اللاتي يفتقرن إلى الذكاء، أولئك المتشبثات بما لديهن، من يستطعن التمسك بيأس فيما يعتقدن أنه لهن، لكن لا يقدرن على الاستمرار في الصمود، ذهنيًا، أمام التعسف المستمر؛ لم يكن لديها بالتأكيد أسلحة ترد بها على حملة الكراهية التي تديرها الأخت الصغرى، أصدقاؤها في القرية انقلبوا ضدها، ويبدو أنها جنّت من اعتقادها أن الأقفال والزرافين لن تصد العدو الذي يتسلل إلى منزلها ليلًا..."

"كان يجدر بها أن تغادر" قالت إلينور. "تغادر المنزل وتهرب إلى أبعد مكان يمكنها الوصول إليه."

"وهذا ما فعلته. أعتقد في الواقع أن الفتاة المسكينة قد أُبغضت بشدّة حد رغبتها في الموت؛ لقد شنقت نفسها، بالمناسبة. تقول الشائعات أنها علّقت نفسها من بريج البرج، لكن حين يكون لديك منزل مثل منزل التلّ ببرج وبريج، فإن الشائعات لن تسمح لك أن تشنق نفسك في مكان آخر. بعد موتها، انتقل المنزل قانونيًا إلى أيدي عائلة ساندرسن، الذين كانوا أقاربها، وبلا شك باتوا وجهة لتعسف الأخت الصغرى، التي كانت قد جننت نفسها قليلًا في ذلك الحين. سمعت من السيدة ساندرسن أنه حين جاءت العائلة - والدا زوجها - أول مرة لرؤية المنزل، ظهرت الأخت الصغرى لمهاجمتهما، وقفت على الطريق تصرخ عليهما حين عبرا، ثم ألفت نفسها قد حُملت إلى مقر الشرطة. يبدو أن هذا آخر شق يخص الأخت الصغرى في القصة: منذ اليوم الذي أرسلها فيه آل ساندرسن الأوائل مقيدة إلى إشعار قصير بوفاتها بعد سنوات قليلة، يبدو أنها أمضت وقتها نادمة بصمت على أخطائها، لكن بعيدة جدًا عن آل ساندرسن. الغريب أنها أصرت دائمًا في

أحاديثها على أمر واحد، أنها لم تأت ولن تأتي إلى هذا المنزل في الليل، لا لتسرق أو لأي سبب آخر."

"هل سُرِق حقًا أي شيء قط؟" سأل لوك.

"كما قلت لكم، اضطرت المرافقة أخيرًا إلى أن تقول إن شيئًا أو شيئين قد فقدا، لكن لم تستطع أن تكون متأكدة. كما أتصوّر، قصة التسلل الليلي ساهمت بشكل كبير في سمعة منزل التلّ اللاحقة. إضافة إلى أن آل ساندرسن لم يعيشوا هنا قط. أمضوا بضعة أيام في المنزل، أخبروا القرويين أنهم يعدونه لإقامتهم الحالية، ثم غادروا فجأة، أغلقوا المنزل بالشكل الذي ظل عليه. أخبروا القرويين أن عملًا طارئًا يحتم عليهم العيش في المدينة، لكن القرويين اعتقدوا أنهم يعرفون أكثر منهم. لم يعش أحد في المنزل منذ ذلك الحين لأكثر من بضعة أيام، منذ ذلك الحين ظل في السوق، إمّا للبيع أو الإيجار. حسنًا، هذه قصة طويلة. أحتاج إلى المزيد من البراندي."

"الفتاتان الصغيرتان التعيستان،" قالت إلينور، محدقة في النار. "لا يمكنني نسيانهن، تتمشيان في هذه الحجرات المعتمة، تحاولان اللعب بالعرائس، ربّما، هنا أو في غرف النوم التي في الطابق الثاني."

"ومذّاك ظل المنزل العتيق هنا." مد لوك إصبعًا مرتعشة ولمس كيوبيد الرخامي بعناية. "لا شيء لُمِس فيه، لا شيء استخدم، لم يعد أحد يرغب في أي شيء هنا، ظل هنا يفكر وحسب."

"وينتظر،" قالت إلينور.

"وينتظر،" أكّد الدكتور. "أساسًا،" أكمل ببطء، "الشؤم هو المنزل نفسه، أظن. لقد قيّد وحطم ناسه وحيواتهم، إنه مكان للإرادة المريضة المحدودة. حسنًا، غدًا سترونه كله. أدخل آل ساندرسن الكهرباء والإنارة والهاتف

حينما فكروا أول مرة أن يعيشوا هنا، لكن رغم هذا لم يتغير شيء."

"حسنًا،" قال لوك بعد صمتٍ قصير، "أنا متأكد من أننا جميعًا سنكون مرتاحين جدًا هنا."

(5)

ألفت إلينور نفسها تطالع قدميها في إعجاب مفاجئ. حلمت ثيودورا بالنار التي تطل من وراء بنان قدميها، فكرت إلينور برضى عميق أن قدميها جذّابة في صندلها الأحمر؛ في شدة كمالها واستقلالها، فكرت بأنها، من أصابعها الحمراء إلى قمة رأسها، بمفردها تمتلك مواقفًا تخصها وحدها. أمتلك زوجًا من الأحذية الحمراء، قالت لنفسها - هذا يتلاءم مع كوني إلينور؛ إلينور التي لا تحب الكركند، ولا النوم على جانبها الأيسر، تفرقع أصابعها عند التوتّر، وتتفقد أزرتها. أمسك بكأس من البراندي، وهو لي، لأنني هنا ولأنني أشربه، ولأن لي مكانًا في هذه الحجرة. لدي نعل حمراء، وغدًا سأنهض وسأظل هنا.

"لدي زوج حذاء أحمر،" قالت هذا بنعومة بالغة، التفت ثيودورا وابتسمت لها.

"أردت أن..." ونظر الدكتور إليهم بتفاؤل براق ومتردد. "أردت أن أسألكم إن كنتم جميعًا تلعبون الورق؟"

"طبعًا،" قالت إلينور. ألعب الورق، قالت لنفسها؛ كانت عندي قطة اسمها دانسر؛ وأستطيع السباحة.

"أنا لا أعرف،" قالت ثيودورا، التفت الثلاثة الآخرون ونظروا إليها بارتباك جلي.

"إطلاقًا؟" سأل الدكتور.

”كنت ألعب الورق مرتين في الأسبوع طوال إحدى عشرة سنة،“ قالت إلينور، ”مع والدتي ومحاميها وزوجته -أنا متأكدة من أنكِ قد لعبتِ بهذا القدر.“

”ربّما يمكنكِ تعليمي؟“ سألت ثيودورا. ”أنا سريعة في تعلّم الألعاب.“

”أوه، عزيزتي،“ قال الدكتور، ضحكت إلينور ولوك.

”سنفعل شيئًا آخر بدلًا منها،“ حدثت إلينور نفسها؛ أستطيع أن ألعب الورق، أحب فطيرة التفاح مع قشدة حامضة، وقدت السيارة إلى هنا بمفردي.

”النرد،“ قال الدكتور بمرارة.

”ألعب الشطرنج جيدًا،“ قال لوك للدكتور، الذي فرح فورًا. أطبقت ثيودورا شفتيها بعناد وقالت: ”لا أظن أننا جئنا إلى هنا لنلعب.“

”الاسترخاء“ قال الدكتور بغموض، استدارت ثيودورا وهزت كتفها بحنق، وحدقت مجددًا في النار.

”سأحضر الشطرنج، إذا أخبرتني بمكانها،“ قال لوك فابتسم الدكتور.

”من الأفضل أن أذهب أنا،“ قال. ”لقد درست مخططًا للمنزل، تذكّر هذا. إذا تركناك تذهب وتتجول بمفردك فمن الأرجح أننا لن نجدك أبدًا مرة أخرى.“ بعد أن أغلق الباب خلفه، أعطى لوك ثيودورا نظرة خاطفة فضولية، ثم مشى حتى وقف بجانب إلينور. ”لستِ متوترة، أليس كذلك؟ هل أخافتكِ تلك القصة؟“

هزّت إلينور رأسها نافيةً بثقة، فقال لوك: ”بدوتِ شاحبة.“

”يجدر بي أن أكون في السرير، على الأرجح“ قالت إلينور. ”لست معتادة على السفر وقيادة السيارة بقدر المسافة التي قطعتها اليوم.“

"براندي،" قال لوك. "سيجعلكِ تنامين بشكل أفضل. أنتِ أيضًا." قالها قاصدًا ثيودورا من ورائها.

"شكرًا لك،" قالت ثيودورا ببرود، دون أن تلتفت. "يندر أن أواجه مشاكل في النوم."

ابتسم لوك لإلينور ابتسامة متواطئة، ثم استدار حين فتح الدكتور الباب. "خيالي المجنون،" قال الدكتور، واضعًا طقم الشطرنج. "أي منزلٍ هذا."

"هل حدث شيء؟" سألت إلينور.

هزّ الدكتور رأسه. "يبدو أن علينا أن نتفق الآن أنه لا يجدر بأحد التجول في المنزل بمفرده." قال.

"ما الذي حدث؟" سألت إلينور.

"مجرد خيال،" قال الدكتور بصرامة. "هذه الطاولة مناسبة، لوك؟"

"إنه طقم شطرنج قديم جميل،" قال لوك. "أتساءل كيف لم يحدث وأن تلاحظه الأخت الصغرى؟"

"يمكنني أن أخبرك بأمر واحد،" قال الدكتور، "إذا كانت الأخت الصغرى من تتسلل إلى هذا المنزل في الليل، فإن أعصابها من حديد. إنه يراقب..." أضاف فجأة. "المنزل، يراقب كل حركة تقوم بها." ثم أكمل، "إنه خيالي أنا وحسب، بالطبع."

في ضوء النار كان وجه ثيودورا جامدًا وحانقًا، فكرت إلينور بأن ثيودورا تحب الاهتمام، ثم دون تفكير، تحركت وجلست على الأرض بجانب ثيودورا. يمكنها أن تسمع خلفها صوت بيادق الشطرنج الطفيف بينما يصفّونها على اللوحة، وتحرّكاتِ لوك والدكتور الأولى المرتاحة وهما يقيمان بعضهما، وفي النار كانت هنالك ألهبة واهية وتوقّدات، انتظرت لدقيقة

أن تتحدث ثيودورا، ثم قالت: "ما تزالين غير مصدقة بأنكِ حقًا هنا؟"

"لم يكن لدي أدنى توقع بأن الأمر سيكون مملًا جدًا،" قالت ثيودورا.

"سنجد العديد من الأشياء التي نفعلها في الصباح،" قالت إلينور.

"في البيت، يكون حولكِ ناس، الكثير من الأحاديث والضحك والنور والمتعة!"

"أظن أنني لا أحتاج إلى مثل هذه الأشياء،" قالت إلينور، على نحوٍ تبريري. "لم يكن هنالك قط الكثير من المتعة بالنسبة لي. كان علي أن أظل مع والدتي بالطبع، وعندما تنام ألعب السوليتير أو أستمع إلى المذياع. لا أطيق القراءة في المساءات لأن علي أن أقرأ لها بصوتٍ عالٍ لساعتين ظهيرة كل يوم. قصص حب" وابتسمت قليلًا، محدقة في النار. لكن هذا ليس كل شيء، قالت متعجبة من نفسها، كل هذا لا يكفي لوصف حقيقة الأمر، حتى لو أردت أن أصف؛ لماذا أتحدث؟

"أنا سيئة، أليس كذلك؟" تحركت ثيودورا بسرعة ووضعت كفها على كف إلينور. "أنا أجلس هنا وأتبرّم لعدم وجود ما يسلّيني؛ أنا أنانية جدًا. أخبريني بسوئي" وفي نور النار لمعت عيناها بحنان.

"أنتِ سيئة،" قالت إلينور بطواعية؛ أربكها بقاء كف ثيودورا على كفها. لا تحب أن تُلمس، مع هذا يبدو أن اللمسات البسيطة هي طريقة ثيودورا المختارة للتعبير عن الأسف، أو المتعة، أو التعاطف؛ أتساءل إذا ما كانت أظافري نظيفة، فكرت إلينور، ثم سحبت كفها بلطف.

"أنا سيئة،" قالت ثيودورا، بمرح مجددًا. "أنا سيئة وبغيضة ولا أطاق. الآن أخبريني عن نفسكِ."

"أنا سيئة وبغيضة ولا أطاق."

ضحكت ثيودورا. "لا تسخري مني. أنتِ حلوة ومهذبة، والكل يحبكِ كثيرًا؛ لوك وقع في حبكِ بجنون، وأنا أشعر بالغيرة. الآن أريد أن أعرف المزيد عنكِ. هل حقًا قمتِ برعاية والدتكِ لسنوات؟"

"نعم،" قالت إلينور. كانت أظافرها قذرة فعلاً، وكفها سيئة البنية والناس ينسجون نكتًا حول الحبّ لأنه كان مضحكًا أحيانًا. "إحدى عشرة سنة، إلى أن قضت نحبها قبل ثلاثة أشهر."

"هل شعرتِ بالأسى حين ماتت؟ هل يجدر بي أن أقول إنني آسفة؟"

"لا. لم تكن سعيدة جدًا."

"ولا أنتِ؟"

"ولا أنا."

"لكن ماذا عن الآن؟ ماذا فعلتِ بعد ذلك، حينما أصبحتِ حرة في النهاية؟"

"بعت المنزل،" قالت إلينور. "أخذت أنا وأختي ما نريد من المنزل، أشياء صغيرة؛ لم يكن هنالك الكثير حقًا سوى أشياء بسيطة احتفظت بها أمي ساعة أبي، وبضعة مجوهرات. لسنا أبدًا مشابهتين لأختي منزل التلّ."

"وبعتِ كل شيء آخر؟"

"كل شيء. حالما أمكنني ذلك."

"ولاحقًا بالطبع بدأتِ مغامرة مجنونة جلبتكِ حتمًا إلى منزل التلّ؟"

"ليس تمامًا." ضحكت إلينور.

"لكن، كل هذه السنوات الضائعة! هل ذهبتِ في رحلة بحرية؟ غامرتِ مع شبابٍ مثيرين؟ ابتعتِ ملابس جديدة...؟"

"للأسف،" قالت إلينور بجفاء، "لم يكن هنالك هذا القدر من المال. وضعت أختي نصيبها في المصرف لتعليم ابنتها الصغيرة. ابتعت بعض الملابس، لآتي إلى منزل التلّ."

يحب الناس إجابة أسئلة تدور حولهم، قالت لنفسها؛ ما أغرب هذه المتعة. سأجيب أي شيء الآن.

"ماذا ستفعلين حين تعودين؟ هل لديكِ وظيفة؟"

"لا، ليس لدي وظيفة حاليًا. لا أعلم ماذا سأفعل."

"أما أنا فأعلم ماذا سأفعل." تمددت ثيودورا برفاهية. "سأشعل كل مصباح في شقتنا وأسترخي."

"كيف تبدو شقتكِ؟"

هزّت ثيودورا كتفيها. "جميلة،" قالت. "وجدنا مكانًا قديمًا ورممناه بأنفسنا. غرفة واحدة كبيرة، وغرفتي نوم صغيرتين، مطبخ جميل - صبغناه أبيض وأحمر ونجدنا العديد من الأثاث القديم، لقد نبشنا في محلات الخردوات - عثرنا على طاولة جميلة حقًا، مع سطح رخامي. كلانا نحب أن نرمم الأشياء القديمة."

"هل أنتِ متزوّجة؟" سألت إلينور.

ساد بعض الصمت، ثم ضحكت ثيودورا بسرعة وقالت: "لا."

"أعتذر،" قالت إلينور، بخجلٍ شديد، "لم أقصد أن أكون فضولية."

"أنتِ مسلّية،" قالت ثيودورا ولمست خد إلينور بإصبعها. يوجد تجاعيد تحت عيني، تذكرت إلينور، فأدارت وجهها بعيدًا عن ضوء النار. "أخبريني أين تعيشين،" سألت ثيودورا.

فكّرت إلينور، وهي تنظر إلى كفيها اللتين تبدوان سيئتين. كان يمكننا

أن نوفّر مُغَسِّلة، فكرت، لم يكن عدلًا. كفاي بشعان. "لدي مكان صغير لي وحدي،" قالت ببطء. "شقة، مثل شقتكِ، أعيش فيها بمفردي. أصغر من شقتكِ، أنا متأكدة. ما أزال أؤثثها، أشتري شيئًا كل مرة، تعلمين، لأتأكد من أن كل شيء ملائم تمامًا. ستائر بيضاء. أمضيت أسابيع قبل أن أعثر على تمثالي أسدين حجريّين صغيرين حتى أضعهما على زاويتي رف المدفأة، كما أن لدي قطة بيضاء، كتبي، تسجيلاتي، صوري. كل شيء يجب أن يكون تمامًا كما أريد، لأنه لا يوجد إلا أنا لأستخدمه؛ في الماضي كان لدي فنجان أزرق بنجوم مرسومة في قاعه من الداخل؛ حينما تنظرين إلى فنجان الشاي تجدينه مليئًا بالنجوم. أريد فنجانًا مثل هذا."

"ربما سيظهر يومًا في دكاني،" قالت ثيودورا. "ثم يمكنني أن أرسله لكِ. يومًا ما سيصلكِ طرد مكتوب عليه: إلى إلينور مع الحب، من صديقتها ثيودورا. وسيكون فنجانًا أزرقًا مليئًا بالنجوم."

"كنت لأسرق تلك الأطباق المؤطرة بالذهب،" قالت إلينور، ضاحكةً.

"كش ملك،" قال لوك، فقال الدكتور، "أوه يا إلهي، يا إلهي."

"ضربة حظ،" قال لوك، مبتهجًا. "هل نمتن أيتها السيدتين بجانب النار؟"

"على وشك،" قالت ثيودورا. ذرع لوك الحجرة ومدّ يدًا لكل واحدة منهن ليساعدهن على النهوض، وإلينور، متحركة بارتباك، كادت تسقط؛ أما ثيودورا فوقفت بحركة سريعة وتمدّدت بعدها وتثاءبت. "ثيو نعسى،" قالت.

"علي أن أرافقكن إلى الأعلى،" قال الدكتور.

"لا بد أن نبدأ غدًا في تعلم طريقنا. لوك، هل تخمد النار؟"

"ألا يجدر بنا أن نتأكد من إغلاق الأبواب؟" سأل لوك. "أظن أن السيدة

دودلي أغلقت الباب الخلفي عندما غادرت، لكن ماذا عن الأخرى؟"

"لا أظن أننا سنمسك بأحدٍ يتسلل،" قالت ثيودورا. "على أيّ حال، المرافقة الصغيرة اعتادت على قفل أبوابها، بماذا نفعها هذا؟"

"افرض أننا أردنا الخروج؟" سألت إلينور. حدج الدكتور إلينور بنظرة سريعة ثم أشاح بصره. "لا أرى حاجة إلى قفل الأبواب،" قال بهدوء.

"لا يوجد بالتأكيد خطر كبير من لصوص القرية،" قال لوك.

"على أي حال،" قال الدكتور، "لن أنام قبل ساعة أو أكثر بعد؛ في سني، قراءة ساعة قبل النوم أمر ضروري، وأنا جلبت "پاميلا " معي. إذا تعسّر نوم أحدكم، سأقرأ له بصوتٍ عالٍ. لم ألتق أحدًا قط لا ينتابه النعاس مع استماعه لريتشاردسون يُقرَأ عليه بصوتٍ عالٍ." متحدثًا بهدوء، قادهم عبر الممر الضيق إلى الردهة الأمامية الواسعة ثم إلى الدرج. "لقد خططت دائمًا تجريبها على أطفال صغار جدًا،" أكمل.

تبعت إلينور ثيودورا على الدرج، لم تدرك حتى الآن مدى إنهاكها. وأن كل خطوة كانت مجهدة. ذكّرت نفسها بأنها في منزل التلّ، لكن حتى الغرفة الزرقاء مثلت لها، الآن، السرير بالشرشف الأزرق واللحاف الأزرق وحسب. "من جهة أخرى،" أكمل الدكتور خلفها "رواية لفيلدنغ مشابهة في الطول، بالرغم من صعوبة موضوعها لن يكون لها نفس التأثير أبدًا على أطفالٍ صغار. حتى أن لدي شك حول ستيرن ..."

اتجهت ثيودورا إلى باب الغرفة الخضراء، استدارت وابتسمت. "إذا شعرتِ بأدنى توتر،" قالت لإلينور، "هلمّي فورًا إلى غرفتي."

"سأفعل،" قالت إلينور بقناعة. "شكرًا لكِ؛ ليلة طيبة."

"... طبعًا ولا سمولت . سيّدتيّ، أنا ولوك من هنا، في الجهة الأخرى من الدرج..."

"ما لوني غرفتاكما؟" سألت إلينور، لم تستطع المقاومة.

"صفراء،" قال الدكتور متفاجئًا.

"زهريّة،" قال لوك مع إشارة صغيرة بعدم الرضى.

"نحن زرقاء وخضراء هنا،" قالت ثيودورا.

"سأكون مستيقظًا، أقرأ،" قال الدكتور. "سأترك بابي مواربًا، وعليه سأسمع بالتأكيد أي صوت. ليلة طيّبة ونومًا هانئًا."

"ليلة طيبة،" قال لوك. "ليلة طيّبة جميعًا."

حينما أغلقت باب الغرفة الزرقاء خلفها، فكّرت إلينور قلقة أن ظلمة منزل التلّ هي التي أنهكتها، فليس هذا خطبًا مهمًا. السرير الأزرق كان ناعمًا بشكل لا يصدق. غريب، فكرت نعسى، يجدر أن يكون المنزل مريعًا وفي الوقت نفسه، على عدة أوجه، المنزل مريح جدًا فيزيائيًا - السرير الناعم، الحديقة الجميلة، النار الدافئة، طبخ السيدة دودلي. الصحبة أيضًا، فكّرت، وفكّرت، الآن يمكنني التفكير بهم؛ فأنا بمفردي. لماذا جاء لوك؟ لكن لماذا جئت أنا؟ بلقاء الأحبة ينتهي الترحال. لقد أدركوا جميعهم أنني خائفة.

ارتعشت وجلست على السرير لتلحق اللحاف عند موضع القدمين منه. ثم، نصف مندهشة ونصف باردة، فزّت من السرير ومشت، حافية وصامتة، ذرعت الغرفة وأعملت المفتاح في قفل الباب، لن يعرفوا أنني أقفلته، قالت، وعادت إلى سريرها فورًا. ألفت نفسها تحدج النافذة بنظرة سريعة مرتابة ولحافها ملتف حولها، النافذة المنيرة بشحوب في الظلمة، ثم حوّلت نظرها إلى الباب. ليت لدي حبوبًا منوّمة لأبلعها، حدثت نفسها، والتفتت نصف التفاتة، قهرًا، إلى النافذة ثم مجدّدًا إلى الباب، وتساءلت، هل يتحرك؟ لكنني أقفلته؛ هل يتحرك؟

قررت بأنها ستتحسّن لو أن رأسها مغطى بالبطانيات. وهي مختفية في

السرير تحت البطانيات، ضحكت وكانت سعيدة أن لا أحد من الآخرين قد يسمعها. في المدينة لا تنام أبدًا ورأسها تحت الأغطية، فكّرت بأنها قد قطعت كل هذا الطريق.

ثم نامت، آمنة، في الغرفة المجاورة نامت ثيودورا، مبتسمة، ومصباحها مشعل. في آخر الممر، الدكتور يقرأ "پـاميلا،" رافعًا رأسه من وقت لآخر كي يستمع، ومرة توجه إلى بابه ووقف لدقيقة، ينظر إلى الممر، قبل أن يعود لكتابه. مصباح ليلي في قمة الدرج أضاء على الممر؛ بركة الظلام. نام لوك، على الطاولة الجانبية لسريره مصباح وقطعة الحظ التي يحملها دائمًا معه. المنزل من حولهم مستغرق في التفكير، يقرر ويهتاج في حركة تبدو كرجفة.

على بعد ستة أميال استيقظت السيدة دودلي، نظرت إلى ساعتها، فكرت بمنزل التلّ، وأغلقت عينيها بسرعة. السيدة غلوريا ساندرسن، التي تمتلك منزل التلّ وتعيش على بعد ثلاثمائة ميل منه، أغلقت قصتها البوليسية، تثاءبت، ومدت يدها لتطفئ المصباح، متسائلة تساؤلًا مقتضبًا إذا كانت قد تذكرت أن تضع السلسلة على الباب الأمامي. نامت صديقة ثيودورا؛ هكذا أيضًا فعلت زوجة الدكتور وأخت إلينور. بعيدًا، في الغابة وراء منزل التلّ، صرخت بومة، وقبيل الصبح، بدأ هتّان ضبابي ورتيب.

الفصل الرابع

(1)

استيقظت إلينور لتجد الغرفة الزرقاء رماديةً يعوزها اللون في مطر الصباح. ألفت نفسها وقد ألقت اللحاف خلال الليل وآلت إلى النوم بطريقتها المعتادة، برأسها فوق المخدة. تفاجأت لكونها قد نامت إلى ما بعد الثامنة، خطر لها أنه من المثير للسخرية أن أول نومة ليليّة جيدة منذ سنوات أصبحت في منزل التلّ. متمدّدة في السرير الأزرق، تحدق إلى السقف الباهت، بنحوته البعيدة، سألت نفسها، وهي ما تزال نصف نائمة: ماذا فعلت؟ هل جعلت نفسي أضحوكة؟ هل سخروا مني؟

فكّرت بسرعة في الليلة الماضية، استطاعت أن تتذكر فقط أنها - لا بد أنها - قد بدت مرتاحة بحماقة وطفولية، سعيدة تقريبًا؛ هل اندهش الآخرون إذ رأوا أنها بسيطة جدًا؟ قلت أشياء سخيفة، قالت لنفسها، وبالطبع لاحظوا هذا. اليوم سأكون متحفظة، وأقل اندفاعًا في التعبير عن امتناني لهم جميعًا جراء احتوائي.

ثم، مستيقظة تمامًا، هزّت رأسها وتنهّدت. أنتِ شديدة السخف صغيرتي إلينور، أخبرت نفسها، كما تفعل كل صباح. انتعشت الغرفة حولها بوضوح، كانت في الغرفة الزرقاء في منزل التلّ، كانت ستائر البفتة الهندية الباهتة تنوس بخفة على النافذة، لا بد أن وقع الماء الصاخب في الحمام من ثيودورا، استيقظت، لتثق بأنها ارتدت وجهزت أولًا، متأكدة أنها جائعة. "صباح

الخير،" صرخت إلينور، أجابت ثيودورا بزفير، "صباح النور.. سأنتهي بعد لحظة.. سأترك الحوض مملوءًا لكِ.. هل أنتِ جائعة؟ لأنني كذلك." هل تظن أنني لن أستحم ما لم تترك حوضًا ممتلئًا لي؟ تساءلت إلينور، ثم شعرت بالخجل؛ جئت إلى هنا لأتوقف عن التفكير هكذا، قالت لنفسها بصرامة ثم قفزت من السرير وقصدت النافذة. نظرت من فوق سقف الشرفة إلى الحديقة الواسعة في الأسفل، بحشائشها وعشائر الأشجار المحاطة بالضباب. أقصى الحديقة كان هنالك صف الأشجار الذي يسم الدرب المؤدي إلى الجدول، رغم أن احتمالية النزهة المرحة على العشب لم تكن، هذا الصباح، مثيرة جدًا. من الواضح أن الجو سيكون رطبًا طيلة اليوم، لكنه كان مطر صيف، يزيد خضرة الأشجار والحشائش، ينقي وينعش الهواء. إنه فاتن، فكرت إلينور، متفاجئة من نفسها، تساءلت إذا ما كانت أول شخص على الإطلاق يجد أن منزل التلّ فاتن، ثم فكّرت، مرتجفة، أم أنهم جميعًا فكّروا بهذا في الصباح الأول؟ ألفت نفسها في الوقت ذاته غير قادرة على الاعتراف بالمتعة التي شعرت بها، ما جعل من الصعب عليها تذكر لم كان استيقاظها سعيدة في منزل التلّ أمرًا شديد الغرابة.

"إنني أتضوّر جوعًا." طرقت ثيودورا باب الحمام، التقطت إلينور رداءها وأسرعت. "حاولي أن تبدي مثل شعاع شمس متسلّل إلى المنزل." نادت ثيودورا من غرفتها. "إنه يوم كئيب، علينا أن نكون مشرقات أكثر بقليل من المعتاد."

عندما تغنّي قبل الفطور، ستبكي قبل الليل، حدّثت إلينور نفسها، إذ كانت تغني برقة، "لا غنى مع التسويف..."

"ظننت أنني الكسولة،" قالت ثيودورا مغترةً من خلف الباب، "لكنكِ أشد سوءًا، بكثير. مفردة الكسل لا تكاد تشرع في وصفكِ. لا بد أنكِ نظيفة

بما يكفي الآن لتأتي وتتناولي الفطور."

"السيدة دودلي تقدّم الإفطار عند التاسعة. ماذا سيدور في ذهنها حين نظهر مشرقات ومبتسمات؟"

"ستنوح خائبةً. أتخالين أن أحدًا استنجد بها في الليل؟"

نظرت إلينور إلى ساقها وهي مغطّاة بالصابون تمامًا. "لقد استغرقت في النوم مثل جذع مقطوع،" قالت.

"وأنا أيضًا. إذا لم تجهزي في ثلاث دقائق سآتي وأغرقكِ. أريد فطوري."

كانت إلينور تفكّر بأن وقتًا طويلًا قد مضى منذ آخر مرة تأنقت فيها لتبدو مثل شعاع شمس، أو كانت تائقة بشدة إلى الفطور، أو استيقظت بإدراك لنفسها، متأنّية وحنونة؛ حتى أنها فرّشت أسنانها بلطف لم تعهد مثيلًا له من قبل. كل هذا نتيجة نومة ليلية هانئة، خطر لها أنها حتمًا قد نامت ببؤس يفوق إدراكها منذ توفيت أمها.

"ألم تجهزي بعد؟"

"قادمة، قادمة،" قالت إلينور، وهرعت إلى الباب، متذكرةً أنه ما يزال مقفلًا، ففتحته برفق. كانت ثيودورا تنتظرها متألقة في رتابة الردهة، بقماش بلّيد مزيّن؛ كان من غير الممكن لإلينور وهي تحدث ثيودورا أن تصدق أنها قد تأنقت أو استحمّت أو تحركت أو أكلت أو نامت أو تحدثت دون أن تستمتع بكل لحظة مما تفعل؛ على الأرجح لم تأبه ثيودورا مطلقًا بما يفكّر به الآخرون عنها.

"هل تدركين أننا قد نحتاج إلى ساعة أو أكثر فقط لنعثر على حجرة الطعام؟" قالت ثيودورا.

”لكن ربّما أنهم قد تركوا لنا خريطة. هل تعلمين أن لوك والدكتور قد استيقظا منذ ساعات؟ كنت أحادثهما من النافذة.“

لقد بدأوا دوني، قالت إلينور؛ غدًا سأستيقظ أبكر وسأكون على النافذة لأحادثهم أيضًا. وصلتا إلى أسفل الدرج، عبرت ثيودورا الردهة الفسيحة المظلمة، ثم وضعت كفها واثقة على أحد الأبواب. ”هنا،“ قالت، لكن الباب فتح على غرفة باهتة فارغة، لم ترها أيًا منهن من قبل. ”هنا،“ قالت إلينور، لكن الباب الذي اختارته يقود عبر ممر ضيّق إلى الصالون الصغير الذي جلسوا فيه ليلة البارحة قبالة النار.

”في جهة الردهة المقابلة،“ قالت ثيودورا، استدارت، ارتبكت. ”اللعنة،“ قالت، تراجعت وصرخت. ”لوك؟ دكتور؟“ من بُعد سمعتا جوابًا للنداء، وتحرّكت ثيودورا لتفتح بابًا آخر. ”إذا ظنّا،“ قالت دون أن تلتفت، ”أنهما سيبقياني إلى الأبد في هذه الردهة القذرة، أجرّب بابًا بعد آخر لأتناول فطوري...“

”هذا هو الباب الصحيح، أظن،“ قالت إلينور، ”حيث نعبر الحجرة المظلمة ثم خلفها حجرة الطعام.“

صرخت ثيودورا مجدّدًا، تعثّرت في قطع أثاث بسيطة، لعنت، ثم فُتِح الباب خلفها وقال الدكتور: ”صباح الخير.“

”منزلٌ نتنٌ قذر،“ قالت ثيودورا وهي تفرك ركبتها. ”صباح الخير.“

”لن تصدقي هذا الآن بالطبع،“ قال الدكتور، ”لكن قبل ثلاث دقائق كانت هذا الأبواب مفتوحة على مصراعيها. تركناها مفتوحة حتى يتسنّى لكن تبيّن طريقكن. جلسنا هنا ورأيناها تصطفق منغلقة قبيل مناداتكِ. حسنًا. صباح الخير.“

"سمك رنكة مدخّن،" قال لوك من مكانه على الطاولة. "صباح الخير. آمل أنكن يا سيدتيّ تفضلان الرنكة المدخّنة."

اجتازوا معًا ظلام ليلة واحدة، التقوا صباحًا في منزل التلّ، كانوا عائلة، يحيّون بعضهم بأريحية، قصدوا الكراسي التي جلسوا عليها البارحة أثناء العشاء، أماكنهم الخاصة على مائدة الطعام.

"إفطار شهي سخي هو بالتأكيد ما تعاقدت السيدة دودلي على تقديمه في التاسعة،" قال لوك، ملوحًا بالشوكة. "لقد تساءلنا إذا ما كنتن من النوع الذي يفضّل قهوة وفطيرة في السرير."

"كنا لنصل إلى هنا في وقت أبكر في أي منزل آخر،" قالت ثيودورا.

"هل تركتما حقًا كل الأبواب مفتوحة من أجلنا؟" سألت إلينور.

"وبها عرفنا أنكن قادمتان،" أخبرها لوك. "حين رأيناها تصطفق منغلقة."

"اليوم سنسمّرها وهي مفتوحة،" قالت ثيودورا. "لن أدّخر جهدًا وسأذرع هذا المنزل حتى أستطيع العثور على الطعام. لقد رقدت بمصباحٍ مشعل طيلة الليل،" أسرّت للدكتور، "لكن لا شيء حدث مطلقًا."

"عمّ الهدوء التام البارحة." قال الدكتور.

"هل حرستنا طيلة الليل؟" سألت إلينور.

"حتى الثالثة تقريبًا، حين نوّمتني "پـاميلا." لم يكن هنالك أي صوت حتى انهمر المطر بعد الثانية. إحداكن يا سيّدتيّ صرخت في نومها مرة..."

"لا بد من أنها أنا،" قالت ثيودورا دون خجل. "وأنا أحلم بالأخت الشريرة على بوابات منزل التلّ."

"حلمت بها أيضًا،" قالت إلينور. نظرت إلى الدكتور وقالت فجأة: "إنه

مخجل. التفكير في أنني خائفة أعني."

"جميعنا في الأمر سواء، كما تعلمين،" قالت ثيودورا.

"يصبح أسوأ إذا حاولتِ إخفاءه،" قال الدكتور.

"سلّحي نفسكِ بالرنكة المدخّنة،" قال لوك. "حينها سيكون من المستحيل أن تشعري بأي شيء على الإطلاق."

شعرت إلينور، كما في اليوم السابق، أن المحادثة قد وجهت بمهارة بعيدًا عن فكرة الخوف، الفكرة الشاخصة في ذهنها. ربما أنها تتحدث أحيانًا عنهم، وبطمأنتها فهم يطمئنون أنفسهم ليستطيعوا ترك الموضوع خلفهم؛ ربّما، لأنها وعاء لكل نوع من أنواع الخوف، فهي تحتوي على ما يكفي للجميع. فكّرت بنزق أنهم كانوا كالأطفال، يتحدّون بعضهم ليتقدّموا أولًا، مستعدون للالتفات ومعايرة من يتبع أخيرًا؛ أبعدت طبقها وتنهّدت.

"قبل أن أنام الليلة،" كانت ثيودورا تقول للدكتور، "أريد أن أتأكد من أنني قد رأيت كل بوصة من هذا المنزل. لا أريد المزيد من التمدد هناك متسائلةً ما الذي فوق رأسي أو تحتي. علينا أيضًا فتح بعض النوافذ وابقاء الأبواب مفتوحة والكف عن التخبط لمعرفة طريقنا حول المنزل."

"علامات صغيرة،" اقترح لوك أن يضعوا. "أسهم تشير، تقول: هذا الطريق يؤدي للخارج."

"أو طريق مسدود،" قالت إلينور.

"أو احترس، أثاثٌ يقع،" قالت ثيودورا. "سنصنعها،" قالت للوك.

"أولًا سنستكشف المنزل جميعنا،" قالت إلينور بسرعة شديدة ربّما، لأن ثيودورا استدارت ونظرت لها بفضول. "لا أريد أن أجد نفسي وقد تركت في

العليّة وما شابه،" أضافت إلينور بعدم ارتياح.

"لا أحد يريد ترككِ في أي مكان،" قالت ثيودورا.

"أقترح،" قال لوك، "أن ننهي الآن القهوة التي في الإبريق قبل كل شيء، وبعدها نمضي بتوتر من حجرة لأخرى، جاهدين لاكتشاف بعض المنطقية في تخطيط هذا المنزل، ولنترك الأبواب مفتوحة أثناء ذلك. لم أفكر قط،" قال هازًا رأسه بحزن،" أنني سأصبر لأرث منزلًا لا أعرف طريقي فيه دون إشارات."

"علينا أن نتفق على تسمية للحجرات،" قالت ثيودورا. "افترض أنني أخبرتك يا لوك أنني أريد لقاءك منفردًا في ثاني أفضل مرسم - كيف ستعرف أين تجدني؟"

"يمكنكِ الاستمرار في التصفير حتى أصل إلى هناك." اقترح لوك.

ارتجفت ثيودورا. "ستسمعني أصفّر وأناديك، بينما أنت تائه تتخبّط من باب إلى باب، لا تفتح الباب الصحيح أبدًا، وسأكون في الداخل، عاجزة عن العثور على طريق يخرجني..."

"ولا شيء لتأكليه،" قالت إلينور بفظاظة.

نظرت ثيودورا إليها مجدّدًا. "ولا شيء لآكله،" اتفقت مع إلينور بعد برهة. ثم، "إنه كمنزل المتاهات في أي كرنفال،" قالت. "تتناسل الحجرات من بعضها، الأبواب في كل مكان وتصطفق منغلقة حين تجيء، أراهن على وجود مرايا في مكانٍ ما تظهرك مقلوبًا، ولِيّ هواء يطير التنانير، وشيءٌ يخرج من ممر مظلم ليضحك في وجهك..." صمتت فجأة وأخذت فنجانها بسرعة اندلقت على إثرها قهوتها.

"ليس بهذا السوء،" قال الدكتور بارتياح. "طبعًا، الطابق الأرضي ممتد

فيما يمكن أن أسميه تقريبًا دوائر متداخلة من الحجرات؛ في المنتصف الصالون الصغير حيث جلسنا البارحة، حوله تتوزع سلسلة من الحجرات بعشوائية، صالة البلياردو، مثلًا، المختلى الكئيب الصغير المؤثث كاملًا بساتان زهري..."

"حيث سنذهب أنا وإلينور كل صباح بعدة التطريز."

"... ويحيط بهذه - ما أسميها الحجرات الداخليّة لأنها الوحيدة دون طريق مباشر للخارج؛ ليس لها نوافذ، تتذكرون - محيط بهذه حلقة من الحجرات الخارجيّة، المرسم، المكتبة، الدفيئة، الـ..."

"لا،" قالت ثيودورا، هازةً رأسها. "ما أزال ضائعة في حجرة الساتان الزهري."

"والشرفة مستديرة حول المنزل. يوجد أبواب تفتح على الشرفة من المرسم، الدفيئة، وحجرة الجلوس. يوجد أيضًا ممر"

"توقف، توقف." كانت ثيودورا تضحك، لكنها تهز رأسها. "منزلٌ قذرٌ عفِن."

فُتح الباب المتأرجح في زاوية حجرة الجلوس، ووقفت السيدة دودلي هناك، إحدى يديها تبقي الباب مفتوحًا، تنظر بجمود إلى مائدة الإفطار. "أنظف عند العاشرة،" قالت السيدة دودلي.

"صباح الخير، سيدة دودلي،" قال لوك.

نظرت السيدة دودلي إليه. "أنظف عند العاشرة،" قالت. "لا بد أن تعاد الأطباق إلى الأرفف. أخرجها مجدّدًا عند الغداء. أقدّم الغداء عند الواحدة، لكن أولًا يجب أن تُعاد الأطباق إلى الأرفف."

"طبعًا يا سيدة دودلي." نهض الدكتور ووضع منديله. "هل الجميع جاهزون؟" سأل.

تحت عين السيدة دودلي رفعت ثيودورا فنجانها بتروٍ وعبّت ما تبقى من قهوتها، ثم لمست فمها بمنديلها واتكأت على ظهر المقعد. "إفطار لذيذ،" قالت رغبة في المحادثة. "هل تنتمي الأطباق للمنزل؟"

"تنتمي إلى الأرفف." قالت السيدة دودلي.

"وأواني الزجاج والفضّة والكتّان؟ الأشياء الجميلة العتيقة."

"الكتّان،" قالت السيدة دودلي، "ينتمي إلى درج الكتّان في حجرة الطعام. الفضة إلى خزانة الفضّة. الزجاج على الأرفف."

"لا بد من أننا نشكّل إزعاجًا لكِ." قالت ثيودورا.

كانت السيدة دودلي صامتة. قالت أخيرًا: "أنظف عند العاشرة. أقدّم الغداء عند الواحدة."

ضحكت ثيودورا ونهضت. "هيّا،" قالت، "هيّا، هيّا. لننهض ونفتح الأبواب."

بدأوا عمليًا بباب حجرة الطعام، الذي أبقوه مفتوحًا بمقعد ثقيل، الحجرة التالية حجرة الألعاب؛ الطاولة التي تعثرت بها ثيودورا كانت طاولة شطرنج خفيضة ("حسنًا، لم أنتبه إليها ليلة البارحة،" قال الدكتور بانزعاج) وفي زاوية الحجرة طاولات كوتشينة ومقاعد، وخزانة طويلة حيث تحفظ بيادق الشطرنج وكرات الكروكيّة ولوح الكريبج.

"رقعة مرحة لقضاء ساعةٍ خالية من الهم،" قال لوك، واقفًا بالباب ناظرًا إلى الحجرة البائسة. خضرة قمم الطاولة الباردة منعكسة بتعاسة في

الرخام القاتم المحيط بالمدفئة؛ لم ينعشوا النجيرة الخشبية هنا بسلسلة النقوش الرياضيّة التي يبدو أنها مكرّسة كليًا لطرق قتل الحيوانات البرية المختلفة أبدًا، وفوق رف المدفأة رأس أيّل يطرق النظر إليهم بارتباكٍ واضح.

"هنا حيث يأتون ليستمتعوا،" قالت ثيودورا، وصدى صوتها يدوّي من السقف المرتفع. "يأتون هنا،" وضّحت، "ليسترخوا من الجو الخانق في بقية المنزل." نظر إليها رأس الأيل بأسى. "تلك الفتاتان الصغيرتان،" قالت. "من فضلكم، هل ننزل تلك البهيمة هناك، التي في الأعلى؟"

"أظن أنها معجبة بكِ،" قال لوك. "لم تشح بصرها عنكِ قط منذ أن دخلتِ. لنخرج من هنا."

وضعوا شيئًا يمنع انغلاق الباب حين غادروا، وخرجوا إلى الردهة، التي أشرقت بشكلٍ باهت تحت ضوء الحجرات المفتوحة. "حينما نعثر على حجرة بنافذة،" أشار الدكتور، "سنفتحها، حتى ذلك الحين، لنكتفِ بفتح الباب الأمامي."

"تظلين تفكّرين بالطفلتين،" قالت إلينور لثيودورا، "لكنني لا يمكن أن أنسى تلك المرافقة الشابة الوحيدة، تطوف كل هذه الحجرات، متسائلة من كان أيضًا في المنزل."

فتح لوك الباب الأمامي الضخم سحبًا ودحرج المزهريّة الكبيرة لتمسكه؛ "هواء منعش،" قال ممتنًا. اندفعت رائحة المطر والعشب المبتل الدافئة إلى الردهة، وقفوا برهةً في المدخل المفتوح، يتنفسون هواءً من خارج منزل التلّ. ثم قال الدكتور: "حسنًا، هنا شيءٌ لم يتوقعه أيٌّ منكم،" وفتح بابًا صغيرًا مخفيًا بجانب الباب الأمامي الطويل ثم وقف خلفه، مبتسمًا. "المكتبة،" قال. "في البرج."

"لا أستطيع أن أدخل،" قالت إلينور، مفاجئةً نفسها، لكنها لم تستطع. تراجعت، مغمورة بتيار الطين والأرض البارد الذي اندفع إليها. "أمي..." قالت دون أن تدري ما الذي تود إخبارهم به، شدّت نفسها على الجدار خلفها.

"حقًا؟" قال الدكتور، متطلعًا إليها باهتمام. "ثيودورا؟" هزّت ثيودورا كتفيها وخطت إلى المكتبة؛ ارتجفت إلينور. "لوك؟" قال الدكتور، لكن لوك كان قد دخل. من حيث تقف، تمكنت إلينور فقط من رؤية جزء من جدار المكتبة المستدير، مع درج حديدي ضيّق يقود إلى الأعلى وربّما، بما إنه البرج، أعلى وأعلى وأعلى، أغمضت إلينور عينيها، سامعةً صوت الدكتور من بعد، مخترقًا حجارة جدران المكتبة.

"هل يمكنك رؤية الباب الصغير في تلك العتمة؟" كان يسأل. "إنه يقود إلى شرفة صغيرة، وبالطبع هناك حيث يشيع افتراض أنها شنقت نفسها... الفتاة، تتذكرين. المكان الأنسب، بالتأكيد، ملائم أكثر للانتحار، أظن، أكثر من الكتب. يُعتقد أنها ربطت الحبل في السياج الحديدي ثم قفزت وحسب..."

"شكرًا،" قالت ثيودورا من الداخل. "يمكنني أن أتصوّرها جيدًا، شكرًا. بالنسبة لي، كنت على الأرجح سأثبّت الحبل في رأس الأيل الذي في حجرة الألعاب، لكن أظن أن لها ارتباطًا عاطفيًا بالبرج؛ ما أجملها من كلمة "ارتباط" في هذا السّياق، ألا تعتقد هذا؟"

"لذيذ." كان صوت لوك أعلى من صوتيهما، كانوا قادمين من المكتبة عائدين إلى الردهة حيث تنتظر إلينور. "أظن أنني سأحوّل هذه الحجرة إلى نادٍ ليلي. سأضع الأوركسترا في الشرفة، والراقصات ينزلن من الدرج الحلزوني؛ المشرب..."

"إلينور،" قالت ثيودورا، "هل أنتِ بخيرٍ الآن؟ إنها حجرة مريعة تمامًا، كنتِ محقة بالبقاء خارجها."

وقفت إلينور بعيدةً عن الجدار؛ يداها باردتان وقد أوشكت على البكاء، لكنها أدارت ظهرها إلى باب المكتبة، الذي أبقاه الدكتور مفتوحًا بكومة كتب. "لا أظن أنني سأقرأ كثيرًا بينما أنا هنا،" قالت، محاولةً التحدث بمرح. "ليس عندما تشبه رائحة الكتب رائحة المكتبة."

"لم أنتبه إلى أي رائحة،" قال الدكتور. نظر متسائلًا إلى لوك، الذي هزّ رأسه موافقًا. "غريب،" واصل الدكتور، "لكن هذا ما نبحث عنه تمامًا. دوّنوا، أعزائي، وحاولوا أن تصفوه بدقة."

كانت ثيودورا محتارة. وقفت في الردهة، استدارت، ناظرةً إليها عند الدرج، ثم استدارت مجددًا إلى الباب الأمامي. "هل هنالك بابان أماميّان؟" سألت. "أم اختلطت علي الأمور؟"

ابتسم الدكتور سعيدًا، قد رغِب بشكلٍ واضح في سؤال كهذا. "هذا الباب الأمامي الوحيد،" قال. "هذا الذي دخلتِ منه يوم أمس."

عبست ثيودورا. "إذًا لم لا نستطيع أنا وإلينور رؤية البرج من نوافذ غرفتي نومنا؟ غرفتانا تطلان على الجزء الأمامي من المنزل، مع هذا..."

ضحك الدكتور وصفّق. "أخيرًا،" قال. "ثيودورا الذكيّة. لهذا أردت أن تروا المنزل في النهار. تعالوا، اجلسوا على الدرج بينما أخبركم."

جلسوا على الدرج طواعية، رافعين أبصارهم إلى الدكتور، الذي وقف وقفة المحاضر، وبدأ برسميّة: "إن إحدى الخصائص المميِّزة لمنزل التلّ؛ تصميمه..."

"منزل المتاهات في الكرنفال."

"تمامًا. ألم تتساءلوا عن الصعوبة البالغة التي تواجهنا ونحن نتعرّف طريقنا حول المنزل؟ منزل عاديّ لن يكلّف أربعة منّا مثل هذه الحيرة لوقتٍ طويل، كما أننا مرة بعد مرة نختار الباب الخطأ، الحجرة التي نريدها تهرب منّا. حتى أنا لدي هذه المشكلة" تنهّد وهزّ رأسه. "ما أعتقده هو أن هيو كراين العجوز توقّع أن منزل التلّ قد يكون يومًا مزارًا سياحيًا، مثل منزل وينشستر في كاليفورنيا، أو المنازل ثمانيّة الأضلاع العديدة؛ صمّم منزل التلّ بنفسه، تذكّروا، وقد أخبرتكم من قبل، كان رجلًا غريبًا. كل زاوية،" أشار الدكتور إلى المدخل، "كل زاوية منحرفة بنسبةٍ طفيفة. لا بد أن هيو كراين ضايق الآخرين ومنازلهم رباعية الأضلاع، لأنه بنى منزله ليلائم رغباته وحسب. الزوايا التي تفترضون أنها الزوايا الصحيحة التي اعتدتم عليها، ولديكم كل الحق لتتوقعوا أنها صحيحة، تحيد في الواقع قليلًا عن المعدل في اتجاه أو آخر. أنا متأكد، على سبيل المثال، أنكم تعتقدون أن الدرج الذي تجلسون عليه مستوٍ، لأنكم غير مهيئين لدرجات غير مستوية..."

تحركوا بحذر، ومدّت ثيودورا يدها بسرعة لتمسك الدرابزين، كأنها شعرت أنها قد تسقط.

"... في الواقع تميل قليلًا باتجاه الممر الرئيسي، الأبواب جميعها غير مستوية قليلًا - ربّما أن هذا، بالمناسبة، سبب تأرجح الأبواب منغلقة ما لم تمسك؛ تساءلت هذا الصباح إذا ما كانت خطواتكن المتقاربة أيتها السيدتان قد أربكت اتزان الأبواب الجيد. بالطبع نتيجة اختلالات المقاييس هذه أضافت إلى تشوّه المنزل ككل. لا تستطيع ثيودورا رؤية البرج من نافذة غرفة نومها لأن البرج يقع أساسًا في زاوية المنزل. غير مرئي أبدًا من نافذة غرفة نوم ثيودورا، حتى من هنا يبدو أنه خارج مطل غرفتها مباشرة. نافذة غرفة ثيودورا في الواقع تبعد خمس عشرة قدمًا يسارًا عن مكان وقوفنا الآن."

بسطت ثيودورا كفّيها باستسلام. "ياللعجب!" قالت.

قالت إلينور: "فهمت. إن سقف الشرفة هو ما يجعل الأمور تلتبس علينا. يمكنني أن أرى سقف الشرفة من نافذتي، ولأنني جئت مباشرةً إلى المنزل ثم إلى الأعلى افترضت أن الباب الأمامي كان في الأسفل تمامًا، رغم أنه فعليًا..."

"ترين فقط سطح الشرفة،" قال الدكتور. "الباب الأمامي بعيد جدًا؛ هو والبرج مرئيان من الحضانة، وهي الغرفة الكبيرة في آخر الردهة؛ سنراها في وقت لاحق اليوم. إنها..." ثم تعِس صوته، "تحفة في العمارة الخاطئة. الدرجان المزدوجان في تشامبورد"

"إذًا كل شيء منحرف قليلًا عن النسبة الصحيحة؟" سألت ثيودورا بتردد. "لهذا يبدو كل شيء غير متسق للغاية؟"

"ماذا يحدث حين تعود إلى منزل حقيقي؟" سألت إلينور. "أعني... حسنًا، منزل حقيقي."

"لا بد أنه مثل النزول من متن السفينة،" قال لوك. "بعد المكوث هنا لبعض الوقت، قد يختل حسّ الاتزان لديكِ كثيرًا إلى حد أنكِ ستحتاجين وقتًا لتتخلصي من دوار البحر، أو دوار منزل التلّ. هل يمكن أن تكون،" سأل لوك الدكتور، "ما ادعى الناس أنها ظواهر خارقة للطبيعة ليست في الحقيقة إلا نتيجة لفقدان الاتزان الذي أصاب الناس الذين عاشوا هنا وحسب؟ الأذن الوسطى،" أخبر ثيودورا بنبرة العارف.

"من المؤكد أنها قد أثّرت في الناس بشكلٍ ما،" قال الدكتور. "كبرنا لنثق ثقة عمياء في شعورنا بالاتزان والمنطق، يمكنني أن أرى أين حارب العقل بضراوة ليثبت مسلماته النمطية المألوفة أمام كل الأدلة على كونها

مائلة قليلًا." استدار ماضيًا. "ما يزال أمامنا أعاجيب." قال، ثم نزلوا من الدرج وتبعوه، مشوا حذرون، يتحسّسون الأرضيّة وهم يتحرّكون. عبروا الممر الضيّق إلى الصالون الصغير حيث جلسوا الليلة الماضية، ومن هناك، تركوا الأبواب مفتوحة بمساند خلفهم، تحرّكوا إلى الدائرة الخارجيّة من الحجرات، التي تطل على الشرفة. سحبوا الستر الثقيلة عن النوافذ، فدخل الضوء من الخارج إلى منزل التلّ. عبروا حجرة الموسيقى، تقف آلة الهارب بإصرار بعيدةً عنهم، دون أي صرير للأوتار يوازي وقع أقدامهم. بيانو ضخم يجلس مغلقًا بإحكام، فوقه شمعدان متشعّب، لم توقد شموعه أي شعلة. في طاولة مغطاة بالرخام حفظت زهور شمعيّة تحت الزجاج، كانت المقاعد صغيرة ومذهّبة. وراءها الدفيئة، بباب زجاجي طويل يكشف المطر في الخارج، والسرخس ينمو بوهن حول أثاث الصفصاف وفوقه. هنا حيث الرطوبة مزعجة، غادروها فورًا، عبروا بابًا مقوّسًا إلى المرسم ووقفوا بدهشة وذعر.

"ليست هنا،" قالت ثيودورا وهنةً ثم ضحكت. "لا أصدّق أنها هنا." هزّت رأسها. "إلينور، هل ترينها أيضًا؟"

"كيف...؟" قالت إلينور بجزع.

"ظننت أنكن ستسرّان،" قال الدكتور مقتنعًا. شغلت قطع من التماثيل الرخاميّة جدارًا كاملًا على خلفية من ورق الحائط الخُبّازي المخطط، والسجادة المورّدة. كانت التماثيل ضخمة ومتشوّهة بطريقة مضحكة قليلًا في عريها الأبيض. وضعت إلينور كفّيها على عينيها، بينما تشبّثت بها ثيودورا.

"أظن أنها تحاكي ولادة ڤينوس من الأمواج،" قال الدكتور.

"إطلاقًا،" قال لوك، عاثرًا على صوته، "إنه القديس فرانسيس يشفي

المجذومين."

"لا، لا،" قالت إلينور. "أحدهم تنّين."

"لا شيء من هذا،" قالت ثيودورا بحدّة، "إنه بورتريه عائلي يا حمقى. قطعة مركّبة. أي شخص سيعرف هذا فورًا؛ هذا التمثال في المنتصف، هذا الطويل المكشوف - ربّاه! - هذا التمثال الذكوري يمثّل هيو العجوز، يطبطب على نفسه مهنئًا لأنه بنى منزل التلّ. أما مرافقتاه الحوريّتان فهن ابنتاه. التي على اليمين، من يبدو أنها تلوّح بكوز ذرة تقص في الواقع قضيتّها، والأخرى، الصغيرة في الأخير، هي المرافقة، أمّا التي في الطرف الآخر..."

"فهي السيدة دودلي، منحوتة من صورتها الحية،" قال لوك.

"والشيء العشبي الذي يقفون جميعهم عليه أظن أنها سجادة حجرة الطعام، طالت قليلًا، هل لاحظ غيري سجادة حجرة الطعام تلك؟ تبدو مثل حقل القش، يمكنكم الشعور بها تدغدغ أعقابكم. في الخلف، ذلك النوع الممتد من أشجار التفّاح، إنها..."

"رمز على حماية المنزل، بالطبع" قال د. مونتاغيو.

"أكره أن أفكّر بأنها قد تقع علينا،" قالت إلينور. "بما إن المنزل غير متوازن يا دكتور، أليس هنالك احتمالية لهذا؟"

"قرأت أن التماثيل قد صنعت بحذر وبمبلغ باهظ، لتوازن اختلال الأرضيّة التي تقف عليها. لقد وضعت، على كل حال، بعد أن بُني المنزل، ولم تسقط منذ ذاك. من الممكن، كما تعلمون، أن هيو كراين قد فُتن بها، حتى وجدها جميلة."

"من الممكن أيضًا أنه استخدمها لإخافة صغيرتيه بها،" قالت ثيودورا. "ما أجمل ما يمكن أن تكونه الحجرة دونها." استدارت، متمايلةً. "حجرة

رقص،" قالت، "لسيدات بتنانير طويلة، ومساحة كافية لرقص ريفي. هيو كراين، هل تراقصني؟" ثم انحنت محيّيةً التمثال.

"أعتقد أنه سيوافق،" قالت إلينور، متراجعةً تلقائيًا خطوة إلى الخلف.

"لا تدعيه يدوس على أصابعكِ،" قال الدكتور وضحك. "تذكري ما حدث لدون جوان."

لمست ثيودورا التمثال بتردد، واضعةً إصبعها على يد أحد المجسمات الممتدّة. "الرخام يمثل صدمة دائمًا،" قالت. "لا تبدو كما تعتقد أنها ستكون أبدًا. أعتقد أن تمثالًا بحجم بشري يبدو بما يكفي كشخص حقيقي يجعلك تتوقع أن تلمس جلدًا." ثم، استدارت مجدّدًا، مشرقة في الحجرة الباهتة، رقصت الفالس وحدها، ثم استدارت لتنحني محيّيةً التمثال.

"في أقصى الحجرة،" قال الدكتور لإلينور ولوك، "تحت تلك السجف، توجد أبواب تقود إلى الشرفة؛ حين تحترّ ثيودورا من الرقص يمكنها الخروج إلى الهواء الأبرد." ذرع الحجرة ليسحب السجف الزرقاء الثقيلة ويفتح الأبواب. دخلت رائحة المطر الدافئ مجدّدًا، ودفقة من الهواء، يبدو أن نفسًا بسيطًا عبر التمثال، وأن ضوءًا لامس الجدران الملوّنة.

"لا يتحرك شيء في هذا المنزل،" قالت إلينور، "حتى تشيح بصرك عنه، حينها تلمح شيئًا من طرف عينك. انظر إلى المنحوتات الصغيرة على الأرفف؛ حينما أدرنا ظهورنا لها رقصت مع ثيودورا."

"أنا أتحرّك،" قالت ثيودورا، بينما تدور نحوهم.

"الزهور تحت الزجاج،" قال لوك. "الشُرابات. بدأت أُعجب بهذا المنزل."

شدّت ثيودورا شعر إلينور. "أسابقكِ في الشرفة." قالت وانطلقت نحو

الأبواب. إلينور، دون وقت للتردّد أو التفكير، لحقت بها، وركضتا خارجًا في الشرفة. إلينور، تجري وتضحك، وصلت إلى منحنى في الشرفة لتجد أن ثيودورا دخلت من باب آخر، وتوقّفت، لاهثة. وصلتا إلى المطبخ، والسيدة دودلي، تبتعد عن المغسلة، تتطلّع إليهن بصمت.

"سيدة دودلي،" قالت ثيودورا بأدب، "قد كنّا نستكشف المنزل."

انتقلت عينا السيّدة دودلي إلى ساعةٍ على رفٍ فوق الموقد. "إنها الحادية عشر والنصف،" قالت. "أنا..."

"أضع الغداء عند الواحدة،" أكملت ثيودورا. "نودّ أن نلقي نظرة على المطبخ، إذا أمكن ذلك. لقد رأينا كل حجرات الطابق السفلي، على ما أظن."

سكنت السيّدة دودلي لدقيقة ثم حرّكت رأسها موافقةً، استدارت وذرعت المطبخ قاصدةً بابًا بعيدًا. أمكنهن رؤية الدرج الخلفي حين فتحته، استدارت السيّدة دودلي وأغلقت الباب خلفها قبل أن تصعد الدرج. أمالت ثيودورا رأسها في المدخل وانتظرت لدقيقة قبل أن تقول: "أتساءل إذا ما كان في قلب السيّدة دودلي لطف تجاهي، حقًا أتساءل."

"أظن أنها صعدت لتعلّق نفسها من البريج،" قالت إلينور. "لنرى ماذا طهت للغداء بينما نحن هنا."

"لا تحرّكي أي شيء،" قالت ثيودورا. "تدركين تمامًا أن الأطباق تنتمي إلى الأرفف. هل تعتقدين أن تلك المرأة تنوي حقًا أن تعدّ لنا السوفليه؟ هنا طبق سوفليه، وبيض وجبنة..."

"إنه مطبخ لطيف،" قالت إلينور. "كان المطبخ كئيبًا وضيّقًا في منزل والدتي، لا شيء أبدًا ممّا تطهينه هناك يصبح له لون أو طعم."

"ماذا عن مطبخكِ؟" سألت ثيودورا دون مبالاة. "في شقّتكِ الصغيرة؟

إلينور، انظري إلى الأبواب."

"لا أعرف طريقة عمل السوفليه،" قالت إلينور.

"انظري إلينور. هذا هو الباب الذي يقود إلى الشرفة، وآخر يفتح على درجات تقود إلى الأسفل، للقبو على ما أظن... وآخر هناك يقود إلى الشرفة مجدّدًا، وذاك الذي استخدمته لتصعد، وواحدٌ هناك..."

"إلى الشرفة مجدّدًا،" قالت إلينور، فاتحةً الباب. "ثلاثة أبواب تقود خارجًا إلى الشرفة من مطبخٍ واحد."

"والباب الذي يقود إلى حجرة مؤونة الخدم ثم إلى حجرة الطعام. سيّدتنا الطيبة دودلي تحب الأبواب، أليس كذلك؟ يمكنها بالتأكيد" - والتقت عيناهن- "أن تخرج سريعًا بأي اتجاه إذا أرادت."

استدارت إلينور فجأة وعادت إلى الشرفة. "أتساءل هل جعلت دودلي يشق لها المزيد من الأبواب. أتساءل كيف تتقبّل العمل في مطبخ يمكن أن يُفتح فيه باب خلفها دون أن تشعر. أتساءل، في الواقع، ماذا قد اعتادت السيدة دودلي أن تواجه في مطبخها حتى أنها أرادت أن تتأكد من قدرتها على العثور على طريق يخرجها مهما تكن الوجهة التي تجري إليها. أتساءل..."

"اصمتي،" قالت ثيودورا بود. "الطاهي المتوتر لا يمكنه أن يخبز سوفليه جيّدًا، أي شخص يعرف هذا، وعلى الأغلب فهي تستمع إلينا على الدرج. لنختر أحد أبوابها ونتركه مفتوحًا خلفنا."

كان لوك والدكتور واقفان في الشرفة، ينظران إلى الحديقة؛ الباب الأمامي كان مغلقًا بغرابة خلفهما. خلف المنزل، تقريبًا في السماء، كانت التلال الضخمة مصمتة وصمّاء في المطر. تجوّلت إلينور في الشرفة، مفكرةً بأنه لم يسبق لها أبدًا رؤية منزل محاط بالكامل كهذا. مثل حزامٍ ضيّق، قالت،

هل سيطير المنزل بعيدًا لو انفصلت الشرفة؟ اعتقدت بأن ما تظنه يجب أن يكون أعظم جزء في الحلقة حول المنزل، ثم رأت البرج. بزغ أمامها فجأةً حينما جاءت عند انعطافة الشرفة. مبني من الحجارة الرماديّة، راسخ بغرابة، محشور بشدة في الجانب المشجّر من المنزل، والشرفة العنيدة تمسك به هناك. بشع، قالت، ثم فكّرت بأن المنزل لو احترق يومًا ما فإن البرج سيظل باقيًا، رماديًا بغيضًا مشرفًا على الأطلال، يحذر الناس ليبتعدوا عمّا تبقى من منزل التلّ، ربّما مع حجرٍ واقع هنا وحجر هناك، ومن ثمّ تستطيع البوم والخفافيش أن تطير داخلةً وخارجةً، وربّما تعشّش وسط الكتب في الأسفل. من منتصف الجدار إلى الأعلى تبدأ نوافذ نحيلة مغروزة في الحجارة، تساءلت كيف يبدو النظر إلى الأسفل منها، ثم تساءلت لِمَ لَمْ تستطع دخول البرج. قالت لن أستطيع أبدًا النظر إلى الأسفل من تلك النوافذ، وحاولت أن تتخيّل الدرج الضيق الحديدي يعلو ويلتف في الداخل. في أعلاه سقف خشبي مخروطي الشكل مغطى بخشب مدبّب. لا بد من أنه مدعاة للضحك في أي منزل آخر، لكنه هنا متّسق مع منزل التلّ، مقبول وبهيج، ربّما ينتظر مخلوقًا صغيرًا يتسلل من النافذة الصغيرة، عبر السقف المائل، ليصل إلى السقف المدبّب، عاقدًا حبلًا...

"ستسقطين،" قال لوك، وزفرت إلينور؛ نظرت إلى الأسفل بجهد فوجدت أنها كانت تمسك درابزين الشرفة بشدة وقد مالت إلى الخلف. "لا تثقي في توازنكِ في منزلي الأخاذ،" قال لوك، وتنفست إلينور بعمق، مصابة بالدوار، ترنّحت. التقطها وأمسك بها بينما كانت تحاول أن تستتب في العالم الصخري حولها حيث بدت الأشجار والحديقة معلّقة والسماء قد استدارت وتمايلت.

"إلينور؟" قالت ثيودورا بالقرب منها، سمعت وقع أقدام الدكتور يجري

عبر الشرفة. "هذا المنزل اللعين،" قال لوك. "عليك ألّا تغفل عنه لحظة."

"إلينور؟" قال الدكتور.

"أنا بخير،" قالت إلينور، هازةً رأسها وواقفة دون اتزان بمفردها. "كنت أميل إلى الخلف لأرى قمة البرج فأصبت بالدوار."

"كانت توشك على الوقوع حين أمسكت بها." قال لوك.

"لقد شعرت بهذا مرة أو اثنتين هذا الصباح،" قالت ثيودورا، "كما لو أنني أسير على الحائط."

"أدخلوها،" قال الدكتور. "ليس سيئًا حين تكونون داخل المنزل."

"أنا بخير حقًا،" قالت إلينور، خجلةً جدًا، ومشت بخطوات متأنية عبر الشرفة إلى الباب الأمامي الذي كان مغلقًا. "ظننت أننا تركناه مفتوحًا،" قالت بارتعاشة ضئيلة في صوتها، جاء الدكتور وتجاوزها ثم دفع الباب الضخم ليفتحه مجدّدًا. في الداخل، عادت الردهة كما كانت؛ كل الأبواب التي قد تركوها مفتوحةً باتت مغلقة بإحكام الآن. عندما فتح الدكتور باب حجرة الألعاب أمكنهم رؤية الأبواب التي تقود إلى حجرة الطعام قد أغلقت من خلفه، المقعد الذي استخدموه ليعيق انغلاق أحد الأبواب أعيد إلى مكانه بجانب الحائط. في المرسم، الصالون والمكتب، الأبواب والنوافذ كانت مغلقة، والستر مرخاة، قد عاد الظلام مجدّدًا.

"إنها السيدة دودلي،" قالت ثيودورا، وهي تسير في إثر لوك والدكتور، اللذين كانا يتحركان بسرعة من حجرة للتالية، يفتحان الأبواب دفعًا ويثبتانها، يزيحان الستر عن النوافذ، ويتيحان للهواء الدافئ الرطب الدخول. "فعلتها السيّدة دودلي يوم أمس، حالما غبت أنا وإلينور عن المكان، لأنها تفضل أن تغلقها بنفسها عوضًا عن أن تأتي وتتفاجأ بأنها أُغلقت، لأن

الأبواب تنتمي إلى الانغلاق والنوافذ أيضًا والأطباق تنتمي...“ بدأت تضحك بحماقة، فاستدار الدكتور وعبس في وجهها بانزعاج.

”يستحسن أن تعرف السيدة دودلي حدّها،“ قال. ”سأسمّر الأبواب مفتوحة في الجدار إذا تطلب ذلك.“ ذرع الرواق إلى صالونهم الصغير، وأرسل الباب متأرجحًا مفتوحًا بضربة.

”فقد أعصابي لن يجدي،“ قال، وأعطى الباب ركلة عنيفة.

”خمرة في الصالون قبل الغداء،“ قال لوك بتودّد. ”ادخلن يا سيدتيّ.“

(2)

”سيدة دودلي،“ قال الدكتور، واضعًا شوكته، ”سوفليه شهي.“

استدارت السيدة دودلي لتحدجه بنظرة خاطفة ثم ذهبت إلى المطبخ بطبقٍ فارغ.

تنهّد الدكتور وحرّك كتفيه بتعب. ”بعد سهري البارحة، أشعر بحاجة إلى الراحة هذه الظهيرة، وأنتِ،“ قال لإلينور، ”ستتحسنين بالاستلقاء لساعة. ربّما راحة ظهيرة روتينية ستكون مهدئة لنا جميعًا.“

”أتفق،“ قالت ثيودورا مسرورة. ”يجب أن آخذ قيلولة. قد يبدو مضحكًا حين أعود إلى البيت مجدّدًا، لكن يمكنني أن أخبرهم دائمًا أنه كان جزءًا من جدولي في منزل التلّ.“

”ربّما سيكون لدينا مشكلة في النوم ليلًا،“ قال الدكتور، سرت بعض القشعريرة حول الطاولة، أخفتت الفضّة، وألوان الصيني الزاهية، اندفعت غيمة صغيرة في حجرة الطعام جلبت السيدة دودلي خلفها.

"الساعة الثانية وخمس دقائق." قالت السيدة دودلي.

(3)

لم تنم إلينور فترة الظهيرة، رغم أنها أرادت هذا. عوضًا عن النوم، استلقت في سرير ثيودورا في الغرفة الخضراء وراقبت ثيودورا وهي تنمّق أظافرها، تدردش بكسل، غير راغبة بأن تقتنع أنها تبعت ثيودورا إلى الغرفة الخضراء لأنها لم تجرؤ على البقاء بمفردها.

"أحب تزيين نفسي،" قالت ثيودورا، محدّقة في كفّيها بافتتان. "أود أن أصبغ جسدي كلّه."

تحرّكت إلينور براحة. "بطلاء ذهبي،" اقترحت بلا تفكير. بعينيها المغلقتين تقريبًا لا ترى ثيودورا إلا كتلة من اللون تجلس على الأرضيّة.

"طلاء الأظافر والعطور وأملاح الاستحمام،" قالت ثيودورا، كواحدةٍ تعدّد مدن النيل. "الماسكارا. أنت لا تفكرين بهذه الأشياء كثيرًا يا إلينور."

ضحكت إلينور وأغلقت عينيها تمامًا.

"ليس لدي وقت من أجلها،" قالت.

"حسنًا،" قالت ثيودورا بصرامة، "أثناء الوقت الذي سأمضيه معكِ ستصبحين سيّدة أخرى؛ لا أحب صحبة نساء بلا لون." ضحكت لتريها بأنها تمزح، ثم أكملت، "أظن أنني سأضع طلاءً أحمرًا على أظافر قدميكِ."

ضحكت إلينور أيضًا ومدّت قدميها الحافيتين. بعد لحظة، وهي نائمة تقريبًا، شعرت ببرودة لمسة الفرشاة الغريبة على أظافرها، وارتعشت. "بالطبع عارضة شهيرة مثلكِ قد اعتادت على خدمة الخادمات،" قالت

ثيودورا. "قدماكِ قذرتان."

نهضت إلينور مصدومة ونظرت، كانت قدماها قذرتين، وأظافرها مطلية بأحمرٍ زاهٍ. "مريعة،" قالت لثيودورا، "إنها متسخة،" راغبةً في البكاء. ثم شرعت في الضحك بعجز على تعابير وجه ثيودورا. "سأذهب وأغسل قدميّ." قالت.

"ربّاه." جلست ثيودورا على الأرض بجانب السرير، شاردة. "انظري،" قالت. "قدماي متسختان أيضًا، عزيزتي، صدقًا، انظري."

"على أيّة حال،" قالت إلينور، "أكره أن يفعل الآخرون الأشياء لي."

"لا تقلّين جنونًا عمّن قابلت في حياتي،" قالت ثيودورا مبتهجة.

"لا أحب أن أشعر بأنني عاجزة،" قالت إلينور. "والدتي..."

"كانت والدتكِ ستسر عندما ترى أظافر قدميكِ مطلية بالأحمر،" قالت ثيودورا. "تبدو جميلة."

نظرت إلينور إلى قدميها مجدّدًا. "إنّها متّسخة،" قالتها لا إراديًا. "أعني - على قدميّ. تشعرني بأنني أبدو حمقاء."

"اختلطت عليكِ الحماقة والقذارة بشكلٍ ما." بدأت ثيودورا تجمع أدواتها. "على أيّة حال، لن أزيلها وسنراقب معًا لنرى إذا كان لوك والدكتور سينظران إلى قدميكِ أولًا."

"مهما حاولت أن أقول، تجعلينه يبدو أحمقًا." ردّت إلينور.

"أو قذرًا." نظرت ثيودورا إليها بحزن. "حدسي يقول إن عليكِ العودة إلى البيت، إلينور."

هل تهزأ بي؟ تساءلت إلينور؛ هل قررت بأنني غير مؤهلة للبقاء؟ "لا

أريد أن أذهب،" قالت، فحدجتها ثيودورا بنظرة سريعة ثم أشاحت بصرها، ولمست أصابع قدمي إلينور بلطف. "جفّ الطلاء،" قالت. "أنا بلهاء. مجرد شيء أفزعني لوهلة." نهضت وتمغّطت. "لنرَ أين ذهب الآخرون،" قالت.

(4)

اتّكأ لوك على جدار ردهة الطابق الثاني، يرتاح رأسه على إطار منحوتة الأطلال الذهبي. "ما أزال أفكّر في هذا المنزل بصفته أحد ممتلكاتي المستقبليّة،" قال، "الآن أكثر من أي وقتٍ مضى؛ ما أزال أخبر نفسي بأنه سينتمي إلي يومًا ما، وأستمر في سؤال نفسي لماذا." وأشار بيده على مدّ الردهة. "لو أن لدي ولعًا بالأبواب أو الساعات المذهّبة، أو المنمنات؛ لو أنني رغبت في ركنٍ مؤنث على الطريقة التركّية لنفسي، سأعتبر منزل التلّ على الأرجح بلاد الجمال السحريّة."

"إنه منزلٌ فاخر،" قال الدكتور بقناعة. "لا بدّ أنه قد اعتُبِر منزلًا أنيقًا عند بنائه." ذرع الردهة، إلى الغرفة الكبيرة في الطرف، التي كانت يومًا حضانة. "الآن، لا بد أن نرى البرج من إحدى النوافذ." ارتعش وهو يعبر الباب. ثم استدار ونظر بفضول. "هل يمكن أن تكون هنالك أداة تعديل تدفق هواء في هذا المدخل؟"

"تدفّق الهواء؟ في منزل التلّ؟" ضحكت ثيودورا. "ليس قبل أن تتمكن من جعل أحد هذه الأبواب يظل مفتوحًا."

"تعالي هنا في الحال إذًا،" قال الدكتور، فتقدّمت ثيودورا، عابسةً أثناء عبورها المدخل.

"مثل مدخل ضريح،" قالت. "رغم هذا، الغرفة دافئة بما يكفي في

الداخل."

جاء لوك، تردّد في الرقعة الباردة، ثم مضى سريعًا ليخرج منها، وإلينور، تابعةً، شعرت بوخز البرد الذي ضربها بين خطوة أخرى، غير مصدقة؛ خطر لها أنه مثل عبور حائط ثلج، وسألت الدكتور: "ما هذا؟"

كان الدكتور يخبط كفيه ببعضهما بمتعة، "يمكنك أن تحتفظ بأركانك التركيّة، بُنيّ،" قال. مدّ يده وأبقاها بحذر في المكان البارد. "لا يمكنهم تفسير هذا،" قال. "جوهر الضريح الخالص، كما ذكرت ثيودورا، الرقعة الباردة في بورلي ريكتوري تقل عن حرارة ما حولها إحدى عشرة درجة فقط، لا بد أن هذه البقعة أبرد بشكل معتبر. هذه قلب المنزل."

تحرّكت ثيودورا وإلينور لتقفا متقاربتين؛ رغم أن الحضانة كانت دافئة، كانت لها رائحة العفن والانغلاق، والبرد الذي يعبر البوّابة كان محسوسًا تقريبًا، مرئيًا مثل معبر يجب أن يتجاوزه المرء من أجل الخروج. وراء النوافذ، حجارة البرج الرماديّة المتراصة؛ في الداخل، الغرفة مظلمة وصف حيوانات الحضانة المرسومة على مدّ الحائط لا تبدو مبتهجة أبدًا، إنما كأنها قد أوقعت في مصيدة، أو لها صلة بالأيل الذي يموت في الرسومات الرياضة في صالة الألعاب. الحضانة، أكبر من غرف النوم الأخرى، تعطي انطباعًا بالنبذ، متعذر تحديده، وغير موجود في أي مكان آخر في منزل التلّ، عبرت ذهن إلينور فكرة أنه حتى رعاية السيدة دودلي اليقظة قد لا تجلبها عبر هذا المعبر البارد عادةً دون حاجة.

خطا لوك خطوة للوراء عبر رقعة الهواء البارد، كان يتحسس سجادة الردهة، ثم جدرانها، يخبط الأسطح كأنه يأمل العثور على سببٍ للبرد الغريب. "لا يمكن أن تكون أداة تعديل تدفق الهواء،" قال ناظرًا إلى الدكتور. "إلا إذا كان لديهم أنبوب يتصل مباشرة بالقطب الشمالي. كل شيء

جامد، على أيّة حال."

"أتساءل من ينام في الحضانة،" قال الدكتور عرضيًا.

"هل تظنون أنهم أغلقوها حالما غادرت الطفلتان؟"

"انظر،" قال لوك مشيرًا. في كلتي زاويتي الردهة، فوق مدخل الحضانة، وُضِع رأسان مبتسمان بمثابة زينة بهيجة لمدخل الحضانة، ليسا أكثر بهجة أو خلو بال من الحيوانات في الداخل. شرودهما المفترق خُلِّد في ضحكة مشوّهة، التقيا وسجنا في بقعة الردهة التي يتمركز فيها الهواء البارد القارس. "عندما تقف في مكانٍ يستطيعان فيه النظر إليك،" شرح لوك، "يجمّدانك."

خطى الدكتور بفضول، عبر الردهة لينضم إلى لوك، ناظرًا إلى الأعلى. "لا تتركانا بمفردنا هنا،" قالت ثيودورا، وركضت خارج الحضانة، عبرت البقعة الباردة ساحبةً إلينور، البرد الذي كان مثل صفعة سريعة، أو نفس بارد قريب. "مكان مناسب لنبرّد فيه بيرتنا،" قالت، ومدّت لسانها للرأسين المبتسمين.

"علي أن أدوّن هذا بالتفصيل،" قال الدكتور سعيدًا.

"يبدو أنّ البرد متحيّز،" قالت إلينور، شعرت بالحرج لأنها لم تكن تعلم تمامًا ما قصدته. "أشعر أنه مقصود، كأنه شيئًا أراد أن يعطيني صدمة قبيحة."

"ناتج عن الوجوه، أظن،" قال الدكتور؛ كان جاثمًا على كفّيه وركبتيه، يتحسس الأرضيّة. "شريط قياس ومقياس حرارة،" حدّث نفسه، "وطبشور للتحديد؛ ربّما يشتدّ البرد في الليل؟ كل شيء يسوء،" قال محدّقًا في إلينور، "إذا كنتِ تظنين أن شيئًا يحدق فيكِ."

خطا لوك في البرد، داهمته رعدة، أغلق باب الحضانة؛ عاد للبقيّة في الردهة بقفزة، كمن يعتقد أن بمقدوره الهرب من البرد بتجنب ملامسة الأرض. مع

إغلاق باب الحضانة، لاحظوا فورًا اشتداد الظلام، قالت ثيودورا بتعب: "لننزل إلى صالوننا؛ أشعر أن هذه التلال تضغط علي."

"الساعة تجاوزت الخامسة،" قال لوك، "موعد الكوكتيل، على ما أعتقد." قال للدكتور، "هل ستثق بي لأمزج لك كوكتيل مرة أخرى الليلة؟"

"أكثر من الفيرموت،" قال الدكتور، وتبعهم متباطئًا، يحدج باب الحضانة برأس ملتفت نصف التفاتة.

(5)

"أقترح،" قال الدكتور، واضعًا منديله، "أن نشرب قهوتنا في صالوننا الصغير. أجد أن النار مبهجة جدًا."

قهقهت ثيودورا. "غادرت السيّدة دودلي، لهذا دعونا نتسابق ونفتح تلك النوافذ والأبواب، وننزل كل شيء من الأرفف..."

"يبدو المنزل مختلفًا حين تغادره." قالت إلينور.

"أكثر فراغًا." نظر إليها لوك وهزّ رأسه متفقًا؛ كان يرتب أقداح القهوة في صينيّة، أما الدكتور فقد مضى بعناد في فتح الأبواب وتثبيتها. "كل ليلة أستوعب على حين غرة أننا نحن الأربعة بمفردنا هنا."

"رغم أن السيّدة دودلي ليست جيّدة إذا ما أخذنا الصحبة بعين الاعتبار؛ هذا مضحك،" قالت إلينور، مطرقةً النظر في طاولة العشاء، "أستاء من السيدة دودلي بقدر أي واحد منكم، لكن والدتي لن تسمح لي أبدًا بالنهوض وترك الطاولة وهي تبدو هكذا حتى الصباح."

"ما دامت ترغب في المغادرة قبل الظلام فعليها أن تنظف هذا صباحًا،"

قالت ثيودورا ببرود. "بالطبع لن أنظف."

"ليس من التهذيب أن ننهض ونترك طاولة قذرة."

"لن تستطيعي أن تعيديها إلى أرففها الصحيحة على أيّة حال، وسيجب عليها أن تمسح وتنظف كل شيء مرة أخرى، فقط لتمسح آثار أصابعكِ من الأشياء."

"لو آخذ الأواني الفضيّة فقط وأنقعها..."

"لا،" قالت ثيودورا، ممسكةً يدها. "هل تريدين الخروج إلى المطبخ بمفردكِ، في وجود كل تلك الأبواب؟"

"لا،" قالت إلينور واضعةً مجموعة الأشواك التي قد جمعتها. "لا أظن أنني أريد، حقًا." أبطأت ونظرت إلى الطاولة بتأنيب ضمير، إلى المناديل المجعّدة، وقطرات الخمر المنسكبة في مكان لوك، ثم هزّت رأسها. "على أيّة حال، لا أعرف ما كانت أمي ستقول."

"تعالي،" قالت ثيودورا. "تركوا المصابيح مضاءة من أجلنا."

كانت النار مضيئة في الصالون الصغير، جلست ثيودورا بقرب صينيّة القهوة بينما جلب لوك البراندي من الخزانة حيث رفعه بحرص الليلة الماضية. "يجب أن نبتهج مهما يكن الثمن،" قال. "سأتحدّاك الليلة يا دكتور، مجدّدًا."

فتّشوا قبل العشاء حجرات الطابق السفلي بحثًا عن مقاعد مريحة ومصابيح، الآن صالونهم الصغير بات أفضل حجرة في منزل التلّ دون منافس. "قد كان منزل التلّ سخيًا معنا." قالت ثيودورا، مناولةً إلينور قهوتها، جلست إلينور بامتنان في مقعد موسّد ووثير. "لا أطباق متّسخة على إلينور غسلها، مساء طيّب بصحبة حسنة، وعلى الأرجح ستشرق الشمس

غدًا."

"يجب أن نخطط لنزهتنا،" قالت إلينور.

"سأصاب بالكسل والسمنة في منزل التلّ،" أكملت ثيودورا. اصرارها على تسمية منزل التلّ أزعج إلينور. كأنها تقوله عمدًا، هجست إلينور، إنها تخبر المنزل أنها تعرف اسمه، تنادي المنزل لتخبره أين نقيم، هل هذا تظاهر بالشجاعة؟ "منزل التلّ، منزل التلّ، منزل التلّ،" قالت ثيودورا بنعومة، وابتسمت لإلينور.

"أخبريني،" قال لوك بأدب لثيودورا، "ما دمتِ أميرة، أخبريني عن الحالة السياسيّة في بلدكِ."

"غير مستقرة أبدًا،" قالت ثيودورا. "هربت بسبب والدي، الملك بالتأكيد، أصرّ على أن أتزوّج بلاك مايكل، الذي يطالب بالعرش. أنا، بالتأكيد، لا أستطيع تحمل منظر بلاك مايكل، الذي يرتدي قرطًا ذهبيًا واحدًا، ويضرب ساسته بالسوط."

"دولة غير مستقرة بتاتًا،" قال لوك. "كيف استطعت الهروب؟"

"هربت في عربة قش، تنكّرت على هيأة حلّابة. لم يفكّروا أبدًا بالبحث عنّي هناك، عبرت الحدود بأوراقٍ زوّرتها بنفسي في كوخ حطّاب."

"دون شك بلاك مايكل سيسيطر على البلد الآن بانقلاب؟"

"دون شك، فليهنأ به."

يبدو ما نحن فيه الآن مثل الانتظار في عيادة طبيب الأسنان، قالت إلينور لنفسها، وهي تشاهدهما من فوق فنجان قهوتها؛ الانتظار في عيادة طبيب الأسنان، والاستماع إلى المرضى الآخرين يلقون نكاتًا جريئة، الجميع متيقّن

من مقابلة طبيب الأسنان عاجلًا أو آجلًا. نظرت إلى الأعلى فجأة، مدركة أن الدكتور بقربها، فابتسمت بتوتر.

"قلقة؟" سأل الدكتور، فأومأت إلينور موافقةً. "فقط لأنني أفكر فيم سيحدث،" أجابت.

"وأنا أيضًا." سحب الدكتور مقعدًا وجلس بجانبها. "لديكِ شعور بأن شيئًا - بغض النظر عن ماهيّته - سيحدث قريبًا؟"

"نعم. يبدو أن كل شيء ينتظر."

"وهما" أشار الدكتور إلى ثيودورا ولوك، اللذين كانا يضحكان لبعضهما "يتعاملان مع الانتظار بطريقتهما؛ أتساءل ماذا سيحدث لنا جميعًا. كنت لأقول قبل شهر أن مثل هذا الوضع لا يمكن أن يكون ممكنًا في الواقع، أبدًا، أعني أن أربعة منا سيجلسون هنا معًا، في هذا المنزل." لاحظت إلينور أنه لم يسمّه. "لقد انتظرتُ لوقتٍ طويل،" قال.

"هل تعتقد أن بقاءنا صائب؟"

"صائب؟" قال. "بل أعتقد أنه ضرب من السخف البالغ. أعتقد أن بيئةً كهذه تتيح لأي أحد أن يعثر على نقاط ضعفنا، على أخطائنا، وعلى ثغراتنا، جميعنا، تتيح له أن يمزّقنا في بضعة أيام. لدينا آلية دفاع واحدة؛ أن نهرب. على الأقل لا يمكنه اللحاق بنا، هل يستطيع؟ عندما نشعر بأننا في خطر يمكننا المغادرة، تمامًا مثلما جئنا..." وأضاف بخشونة، "وبأسرع ما يمكننا."

"لكننا قد أُنذرنا من قبل" قالت إلينور، "كما أن هنالك أربعة منّا معًا."

"لقد أخبرت لوك وثيودورا بهذا،" قال. "عديني أنكِ ستغادرين حتمًا، بأسرع ما يمكنكِ، حالما تشعرين أن المنزل يتلقفكِ."

"أعدك،" قالت إلينور، مبتسمة. خطر لها أنه يحاول أن يشعرها بأنها أقوى، وكانت ممتنّة. "مع هذا، كل شيء على ما يرام،" قالت له.

"حقًا، كل شيء على ما يرام."

"لن أتردد في إبعادكِ،" قال ناهضًا، "إذا بدا هذا ضروريًا. لوك؟ بعد إذن السيدتين."

بينما هما ينصبان لوح الشطرنج وبيادقه، حامت ثيودورا، وفنجانها في يدها، حول الحجرة. خطر لإلينور بأنها تتحرك مثل حيوان متيقظ ومتوتّر؛ لا يمكنها الجلوس ساكنة طالما هنالك رائحة اضطراب في الجو؛ جميعنا غير مرتاحين. "تعالي واجلسي بقربي،" قالت، فجاءت ثيودورا، متحركة برشاقة، تدور إلى حيث ستجلس. جلست في المقعد الذي نهض عنه الدكتور للتّو، وأسندت ظهرها إلى الخلف متعبة؛ ما ألطفها، خطر لإلينور، وما أفرغها من الهموم، ما أسعد حظها وأجملها. "هل أنتِ متعبة؟"

أدارت ثيودورا رأسها، مبتسمة. "لا يمكنني الاستمرار في الانتظار أكثر."

"كنت أفكر للتو كم تبدين مسترخية."

"وأنا كنت أفكّر في... متى كان ذلك؟ اليوم الذي يسبق يوم أمس؟ وأتساءل كيف استطعتُ اقناع نفسي بمغادرة المدينة والمجيء إلى هنا. ربما أكون قد اشتقت إلى بيتي."

"بهذه السرعة؟"

"هل فكّرت قط بأنكِ ستحنين إلى بيتكِ؟ إذا كان بيتكِ منزل التلّ هل ستحنّين إليه؟ هل بكت تلك الطفلتان من أجل منزلهن المظلم العابس عندما أُخذتا منه؟"

"لم أكن بعيدة قط عن أي مكان،" قالت إلينور برويّة، "لهذا أظن أنني لم أشعر بالحنين إلى البيت."

"ماذا عن الآن؟ شقّتكِ الصغيرة؟"

"ربّما،" قالت إلينور وهي تحدق النار، "لم أمتلكها منذ وقتٍ طويل بما يكفي لأؤمن أنها لي."

"أريد سريري،" قالت ثيودورا، وفكّرت إلينور، لقد حردت مجدّدًا؛ حين تجوع وتتعب وتملّ تتحوّل إلى طفلة.

"أنا نعسى،" قالت ثيودورا.

"لقد تجاوزت الحادية عشر،" قالت إلينور، بينما استدارت لتلقي نظرة على لعبة الشطرنج. صرخ الدكتور في بهجة الانتصار، فضحك لوك.

"الآن يا سيدي،" قال الدكتور، "الآن، يا سيّدي."

"هُزمت دون غش، أعترف،" قال لوك. شرع في جمع البيادق وإعادتها إلى صندوقها. "هل من سبب يمنعني من أخذ رشفة براندي معي إلى الأعلى؟ لأنوّم نفسي، لتمنحني شجاعة هولنديّة[1]، وما شابه. في الواقع" وابتسم لثيودورا وإلينور "أخطط أن أبقى مستيقظًا وأقرأ قليلًا."

"هل ما تزال تقرأ "پـاميلا"؟" سألت إلينور الدكتور.

"المجلد الثاني. يتبقى ثلاثة مجلّدات، ثم يجدر بي أن أبدأ بقراءة "كلاريسّا هارلو"، على ما أظن. ربّما يرغب لوك في استعارة..."

"لا، شكرًا،" قال لوك فورًا. "لدي حقيبة مليئة بقصص الغموض."

1- شجاعة المخمور.

استدار الدكتور ليتفحص المكان. "دعوني أرى،" قال، "النار مخمدة، المصابيح مطفأة. دعوا الأبواب للسيّدة دودلي لتغلقها في الصباح."

صعدوا الدرج الضخم، متتابعين بتعب، يطفئون المصابيح من خلفهم.

"بالمناسبة، هل لدى الجميع كشّافات؟" سأل الدكتور، فأومأوا أي نعم، عازمون على النوم أكثر من موجات الظلمة التي تعقبتهم على درج منزل التلّ.

"ليلة طيّبة، جميعًا." قالت إلينور، فاتحة باب الغرفة الزرقاء.

"ليلة طيّبة،" قال لوك.

"ليلة طيّبة،" قالت ثيودورا.

"ليلة طيّبة،" قال الدكتور. "نومًا هانئًا."

(6)

"قادمة يا أمي، أنا قادمة،" قالت إلينور، وهي تتخبّط من أجل أن تشعل المصباح. "حسنًا، أنا قادمة." إلينور، سمعت نداءً، إلينور. "قادمة، قادمة،" صرخت منزعجة، "دقيقة فقط، أنا قادمة."

"إلينور؟"

ثم أدركت، بصدمة مفاجئة أيقظتها، متجمدة ومرتجفة خارج سريرها: أنا في منزل التلّ.

"ماذا؟" نادت. "ماذا؟ ثيودورا؟"

"إلينور؟ أنتِ هنا؟"

"قادمة." لا وقت من أجل المصباح؛ اصطدمت بطاولة في طريقها فركلتها، استغربت ضجيجها، وعانت قليلًا مع باب الحمام المشترك. فكّرت، هذه ليست جلبة سقوط الطاولة؛ بل والدتي تطرق الجدار. كانت غرفة ثيودورا مضاءة لحسن الحظ، كانت ثيودورا جالسة على السرير، شعرها أشعث من النوم وعيناها شاخصتان مع صدمة الاستيقاظ؛ بالتأكيد أبدو مثلها، خطر لإلينور، وقالت، "أنا هنا، ما الأمر؟" ثم سمعته، بوضوح للمرة الأولى، رغم أنها سمعته منذ استيقاظها قبل قليل.

"ما هذا؟" همست.

جلست عند موضع القدم من سرير ثيودورا ببطء، متسائلة عمّا يبدو أنه هدوء في نفسها. لا بأس، فكرت، اهدئي. إنه مجرد ضجيج، وبرد قارس، قارس جدًا. ضجيج في آخر الردهة، بالقرب من باب الحضانة، وبرد قارس، والدتي لا تطرق الجدار.

"شيء ما يقرع الأبواب،" قالت ثيودورا بنبرة واعية.

"هذا كل شيء. وهو في الأخير، بالقرب من طرف الردهة الآخر. على الأرجح فإن لوك والدكتور هناك الآن، ليريا ما الذي يحدث." ليس أبدًا مثل طرق والدتي على الحائط؛ كنت أحلم مجددًا.

"طق طق،" قالت ثيودورا.

"طق،" قالت إلينور، وضحكت. أنا هادئة، قالت لنفسها، لكن أشعر بالبرد الشديد، ليس الضجيج إلا ضرب من القرع على الأبواب وحسب، واحدًا تلو الآخر، هل هذا ما فزعت منه؟ "طق" أفضل مفردة لوصفه؛ يبدو مثل شيء يفعله الأطفال، ليس طرق الأمهات على الجدران من أجل المساعدة، على أيّة حال لوك والدكتور هناك؛ هل هذا ما يعنونه بقشعريرة

تسري في ظهرك، تعلو وتنزل؟ لأنها بغيضة؛ تبدأ في معدتك ثم تجوب جسدك في موجات، تعلو وتنزل مجدّدًا مثل شيء حي. مثل شيء حي. نعم. مثل شيء حي.

"ثيودورا،" قالت، وأغلقت عينيها ورصّت أسنانها معًا وأحاطت نفسها بذراعيها، "إنه يقترب."

"مجرّد ضجيج،" قالت ثيودورا، ثم اقتربت من إلينور وجلست لصيقة بها. "له صدى." فكرت إلينور بأنه طرق شيء أجوف، كأن شيئًا يصفق الأبواب بإبريق حديدي، أو قضيب حديدي، أو قفّاز حديدي. يخبط بانتظام لبرهة، ثم فجأة يخفت، ثم مجدّدًا في فورة سريعة، يبدو أنه يمضي بشكل ممنهج من باب لآخر في آخر الردهة. بعيدًا، أمكنها أن تسمع صوت لوك والدكتور، صوتهما بعيد، يناديان من مكانٍ ما في الأسفل، ففكّرت، إذًا ليسا هنا معنا في هذا الطابق، وسمعت اصطدامًا حديديًا على باب يبدو أنه قريب جدًا.

"ربّما سيواصل في الجهة الأخرى من الردهة،" تمتمت ثيودورا، ففكّرت إلينور بأن أغرب جزء في هذه التجربة التي لا توصف أن ثيودورا تعيشها أيضًا.

"لا،" قالت ثيودورا، ثم سمعتا القرع على بابٍ من الجهة المقابلة. بات أعلى، صار يصمّ، ضرب بابًا بجانبهن (هل يتحرك للأمام والخلف على طول الردهة؟ هل يسير بأقدام على السجادة؟ هل يرفع يدًا للباب؟)، رمت إلينور بنفسها بعيدًا عن السرير وهرعت إلى الباب ثم ثبتت كفيها على الباب. "ابتعد،" صرخت بهياج.

"ابتعد، ابتعد!"

بات هنالك صمت مطبق، فكرت إلينور وهي واقفة ووجهها باتجاه الباب، أنها قد خدمته الآن؛ فهو يبحث بالتأكيد عن الغرفة التي بداخلها أحد.

زحف البرد وقرصهن، مالئًا الغرفة وطائفًا بها. أي شخص سيظن أن نزلاء منزل التلّ ينامون بهناء في هذا الهدوء. بعد هذا، استدارت إلينور، صوت اصطفاق أسنان ثيودورا كان مسموعًا، ضحكت إلينور. "يا لك من طفلة!" قالت.

"أشعر بالبرد،" قالت ثيودورا. "برد مميت."

"وأنا أيضًا." أخذت إلينور لحافًا أخضر وألقته حول ثيودورا، أخذت رداء ثيودورا الدافئ وارتدته. "أنتِ أدفأ الآن؟"

"أين لوك؟ أين الدكتور؟"

"لا أعلم. هل أنتِ أدفأ الآن؟"

"لا." ارتجفت ثيودورا.

"خلال لحظة سأخرج إلى الردهة وأناديهما؛ هل أنتِ..."

بدأ الطرق مجدّدًا، كأنه كان يستمع، ينتظر ليسمع أصواتهن وماذا قالتا، ليتعرّف إليهن، ليعلم إلى أي قدر مستعدتان لمواجهته، ينتظر ليسمع إذا ما كانتا خائفتين. مفاجئ جدًا إلى درجة أن إلينور قفزت عائدة إلى السرير، بينما شهقت ثيودورا وصرخت، القرع الحديدي بات الآن على بابهن. شخصت أعينهن في رعب، لأن الطرق كان على زاوية الباب العليا، أعلى ممّا يمكن لهن بلوغه، أعلى ممّا يمكن للوك أو الدكتور بلوغه أيضًا، والبرد البغيض الذي يزداد جاء في تيارات مصدرها ذاك الشيء المجهول وراء الباب.

وقفت إلينور ساكنة تمامًا ونظرت إلى الباب. لم تعرف ماذا تفعل، مع

هذا كانت تعتقد أنها تفكر بمنطقية ولم تكن فزعة بشكل لافت، ليست أشد فزعًا، بالتأكيد، مما اعتقدت أنها ستكون عليه في أسوأ أحلامها. حتى أن البرد ساءها أكثر من الضجيج؛ حتى رداء ثيودورا الدافئ لم يكن مجديًا في وجه موجات الأصابع الثلجية التي تسري في ظهرها. أذكى شيء تفعله، ربّما، هو أن تسير وتفتح الباب؛ يتوافق هذا على الأرجح مع مغزى الدكتور العلمي الصرف. كانت إلينور تعلم أنه حتى لو حملتها قدماها إلى الباب، فإن كفيها لن تمسّان مقبضه أبدًا، أخبرت نفسها أن هذا متوقع، إذ إن يد أي شخص لن تلمس ذاك المقبض، ليس هذا العمل الذي خلقت من أجله الأيدي. كانت قد تراجعت قليلًا، كل طرقة على الباب تدفعها قليلًا إلى الوراء، أما الآن فهي ساكنة لأن الضجيج يخبو. "سأشكو للبواب من شبكة التبريد،" قالت ثيودورا من خلفها. "هل سيتوقّف؟"

"لا،" قالت إلينور، مستاءة. "لا."

لقد عثر عليهن، وبما إن إلينور لن تفتح الباب، سيجد طريقة يدخل بها. قالت إلينور بصوتٍ عالٍ: "الآن فهمت لماذا يصرخ الناس، لأنني أظن أنني سأفعل،" فقالت ثيودورا، "سأصرخ إن صرختِ،" وضحكت، عادت إلينور مسرعةً إلى السرير، أمسكتا بعضهن بشدة، تستمعان في صمت. جاءت طرقات خفيفة من مختلف أجزاء إطار الباب، أصوات خافتة مستكشفة، تتحسّس أطراف الباب، محاولًا أن يختلس طريقًا للداخل. تحسس مقبض الباب، فسألت إلينور همسًا: "هل هو مقفل؟" فأومأت ثيودورا مجيبة بنعم، ثم، بعينين متسعتين، نقلت بصرها لتحدق باب الحمام المشترك. "بابي مقفل أيضًا،" أسرّت لها إلينور، فأغلقت ثيودورا عينيها بارتياح. الأصوات الدبقة الخافتة تحركت حول إطار الباب، ثم، كأن سعارًا أصاب ذاك الشيء - مهما يكن - في الخارج، عاد القرع مجدّدًا، رأت إلينور وثيودورا خشب الباب يهتز

ويتحرك، الباب يتفلّت من مفاصله.

"لن تتمكن من الدخول،" صرخت إلينور بملء صوتها، عاد الصمت مجدّدًا، كأن المنزل يستمع بانتباه إلى كلماتها، يفهم، يتفق بتردّد، راضٍ أن ينتظر. صدرت ضحكة خافتة، مع نسمة هواء جابت الغرفة، ضحكة مجنونة، تبعتها ضحكة بأدنى الهمس، سمعتها إلينور ترتفع وتنخفض وراءها، ضحكة خافتة بجيحة تطوف المنزل، ثم سمعت صوت الدكتور ولوك يناديان من أسفل الدرج، ويااللشكر، لقد انتهى.

حينها ساد الصمت الحقيقي، تنفّست إلينور مرتجفة، وتحركت بثبات. "لقد تشبّثنا ببعضنا مثل طفلتين ضائعتين،" قالت ثيودورا وحلّت ذراعيها من حول عنق إلينور. "أنتِ ترتدين رداء استحمامي."

"نسيت ردائي. هل انتهى حقًا؟"

"فيما يتعلّق بالليلة، على أية حال." تحدثت ثيودورا بثقة. "ألا تميّزين؟ ألستِ دافئة مجدّدًا؟"

لقد رحل البرد البغيض، لم يبق منه سوى ذكراه أسفل ظهر إلينور عندما نظرت إلى الباب. حلّت العقدة المحكمة التي عقدت بها حزام الرداء، وقالت: "البرد الشديد أحد أعراض الصدمة."

"الصدمة الشديدة أحد الأعراض التي أصابتني،" قالت ثيودورا. "جاء لوك والدكتور."

كان صوتاهما في الردهة، يتحدثان بسرعة، بتوتر، ألقت إلينور رداء ثيودورا على السرير وقالت: "بحق السماء، لا تدعيهما يطرقان هذا الباب، طرقة واحد إضافية ستقضي علي." وركضت إلى غرفتها لترتدي منامتها. أمكنها أن تسمع ثيودورا من ورائها تخبرهما أن ينتظرا دقيقة، ثم ستفتح

الباب، ثم سمعت صوت لوك يقول بلطف لثيودورا: "لماذا تبدين كمن رأت شبحًا؟"

عندما عادت إلينور لاحظت أن كلا لوك والدكتور متأنقان، خطر لها ما يبدو أنها فكرة جيدة من الآن وصاعدًا؛ إذا ما عاد البرد الشديد مجدّدًا في الليل، سيجدها تنام ببدلة صوفيّة وقميص ثقيل، لن تهتم لما ستقوله السيدة دودلي حين تجد أن إحدى الضيفات تتمدد في أحد الأسرة النظيفة بزوج حذا ثقيل وجوارب صوف.

"حسنًا،" سألت، "هل يلائمكما، أيّها السيدان، أن تعيشا في منزل مسكون؟"

"يلائمنا تمامًا،" قال لوك، "يلائمنا تمامًا. يعطيني عذرًا لأشرب في منتصف الليل."

كان يحمل قنينة البراندي وكؤوسًا، فكّرت إلينور أن عليهم تكوين مجموعة أنس، أربعتهم، وهم جالسون حول غرفة ثيودورا عند الرابعة فجرًا، يشربون البراندي. تحدثوا بهدوء، بسرعة، اختلس أحدهم نظرات فضولية خاطفة إلى الآخر، كل واحدٍ منهم يتساءل أي رعب قد حط على الآخرين، أي تغيير قد يطرأ على الوجه والإشارات، أي باب ضعف قد فُتح ومهّد للدمار.

"هل حدث شيءُ هنا بينما نحن في الخارج؟" سأل الدكتور. نظرت الواحدة إلى الأخرى وضحكتا، بصدق أخيرًا، دون أدنى هستيريا أو خوف. بعد برهة قالت ثيودورا متحرية الدقة: "لا شيء على وجه الخصوص. أحدهم طرق الباب بقذيفة مدفع ثم حاول أن يدخل ويأكلنا، ثم انفجر ضاحكًا عندما لم نفتح الباب. لا شيء أكثر من هذا."

بفضول، تقدّمت إلينور وفتحت الباب. "ظننت أن الباب سيتبعثر برمته،" قالت بحيرة، "لا يوجد حتى خدش في الخشب، ولا في أيٍ من الأبواب الأخرى، إنها ملساء تمامًا."

"جميل أنه لم يشوّه النقوش الخشبية،" قالت ثيودورا، مناولة لوك كأسها من البراندي. "لا أحتمل أن يصاب هذا المنزل العزيز العتيق بأذى." ابتسمت لإلينور. "كانت نيلّي ستصرخ."

"وأنتِ أيضًا."

"لا، أبدًا؛ إنما قلت هذا كي لا تشعري بالوحدة. إضافة إلى أن السيدة دودلي قد قالت سلفًا إنها لن تأتي. ثم أين كنتما، حماتنا الرجال؟"

"كنا نطارد كلبًا،" أجاب لوك. "أو حيوانًا ما شبيه بكلب." توقّف، ثم أكمل متردّدًا. "تبعناه إلى الخارج."

شردت ثيودورا، استفسرت إلينور، "تعني أنه كان في الداخل؟"

"رأيته يركض متجاوزًا بابي،" أجاب الدكتور، "فقط لمحت طيفه، منطلقًا. أيقظت لوك وتبعناه إلى الأسفل ثم إلى الخارج في الحديقة وفقدناه في مكانٍ ما خلف المنزل."

"كان الباب الأمامي مفتوحًا؟"

"لا،" أجاب لوك. "كان الباب الأمامي مغلقًا، ومثله كل الأبواب الأخرى. تحققنا منها."

"تجوّلنا لبعض الوقت،" قال الدكتور. "لم نتصوّر أبدًا أنكن يقظتان حتى سمعنا صوتيكن." تحدّث بحزن. "يوجد شيء واحد لم نأخذه بالحسبان،" قال.

نظروا إليه متسائلين، فوضّح وهو ينظر إلى أصابعه كما يفعل أي محاضِر: "أولًا، أوقظنا أنا ولوك قبلكن يا سيدتيّ كما هو واضح؛ كنا في الأعلى والأرجاء، في الخارج والداخل، لما يزيد على الساعتين، نسعى في مهمة لا طائل منها. ثانيًا، لا أحد منّا" نظر إلى لوك مستوضحًا بينما يتحدّث "سمع شيئًا من الأعلى حتى ارتفع صوتاكن. كان هدوءًا تامًا. أي أن الصوت الذي طرق بابكن لم يكن مسموعًا لنا. حين قررنا أن نكف عن السهر وقررنا الصعود إلى الأعلى، يبدو أننا أبعدنا ذاك الشيء المنتظر ببابكن. الآن، بما أننا نجلس هنا معًا، يعم الهدوء."

"لم أفهم بعد ما الذي تعنيه،" قالت ثيودورا عابسةً.

"يجب أن نحتاط،" قال.

"ممّن؟ وكيف؟"

"حينما دُعينا، أنا ولوك إلى الخارج، وبقيتن أنتن محبوستان في الداخل، ألا يبدو" أصبح صوته خفيضًا جدًا "ألا يبدو أن الهدف، بشكلٍ ما، هو أن نفترق؟"

الفصل الخامس

(1)

فكّرت إلينور وهي تتطلّع إلى نفسها في المرآة تحت ضوء شمس الصباح المشرق الذي ينعش حتى غرفة منزل التلّ الزرقاء، بأن هذا صباحها الثاني في منزل التلّ، وأنها سعيدة بشكلٍ لا يصدّق. بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال، لقد قضيت ليلة كاملة دون نوم، لا بد أنني قد أخبرتهم أكاذيب وجعلت نفسي أضحوكة، كان للهواء النقي تأثير الخمر. لقد أخافتني تلميحاتي الحمقاء، لكنني استحقيت هذه البهجة؛ لقد انتظرتها لوقتٍ طويل جدًا. متجاهلة الاعتقاد القديم القائل بأن تسمية السعادة تبدّدها، ابتسمت لنفسها في المرآة وحدّثتها، أنتِ سعيدة يا إلينور، لقد حظيتِ أخيرًا ببعضٍ من مفهومك للسعادة. أشاحت بصرها عن وجهها في المرآة، قالت مغمضة عينيها، بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال، بلقاء الأحبّة.

"لوك؟" صوت ثيودورا تنادي في الردهة. "لقد حملتَ معك أحد جواربي ليلة البارحة، أنت وغد سارق، أرجو أن السيدة دودلي يمكنها سماعي."

استطاعت إلينور سماع صوت لوك البعيد يجيب؛ اعترض بأن للرجل النبيل الحق في الاحتفاظ بالهبات التي تمنحها له أي سيّدة، كما كان واثقًا من أن السيّدة دودلي يمكنها أن تسمع كل كلمة.

"إلينور؟" طرقت ثيودورا الباب المشترك. "هل أنتِ مستيقظة؟ هل يمكنني الدخول؟"

"بالطبع، تفضلي" قالت إلينور، متطلعة إلى وجهها في المرآة. أنتِ تستحقين، حدّثت نفسها، لقد أمضيتِ حياتكِ تسعين إليها. فتحت ثيودورا الباب وقالت بسعادة: "ما أشدّ أناقتكِ هذا الصباح، نيلّي. هذا الحياة المثيرة تلائمكِ."

ابتسمت إلينور لها، فهذه الحياة لاءمت ثيودورا أيضًا بوضوح.

"لنا الحق في أن نتمشى بهالاتٍ داكنة حول أعيننا، بمظهر خيبة ضارية" قالت ثيودورا، واضعةً ذراعها حول إلينور، متطلّعةً إلى المرآة بجانبها، "انظري إلينا، يافعتان منتعشتان مزهرتان جميلتان."

"أنا في الرابعة والثلاثين،" قالت إلينور، متسائلة أي دافعٍ غامض جعلها تزيد سنتين.

"مع هذا تبدين في الرابعة عشرة،" قالت ثيودورا.

"عجّلي، حان وقت فطورنا."

ضاحكتان، تسابقتا على الدرج الضخم إلى الأسفل، شقتا طريقهن عبر حجرة الألعاب ثم إلى حجرة الطعام. "صباح الخير" قال لوك منتعشًا. "كيف نام الجميع؟"

"بهناء، شكرًا،" أجابت إلينور. "كنوم الأطفال."

"ربّما قد كان هناك بعض الضجيج،" قالت ثيودورا، "لكن على المرء أن يتوقع هذا في هذه المنازل العتيقة. دكتور، ماذا سنفعل هذا الصباح؟"

"همم؟" رد الدكتور، وهو يحدق السقف. وحده الذي بدا متعبًا، لكن عينيه كانتا مفعمتين بالانتعاش الذي وجده أحدهم في الآخر، جميعهم؛ إنها الإثارة، فكّرت إلينور؛ جميعنا نستمتع.

"منزل باليتشن،" قال الدكتور، منتقيًا كلماته. "بورلي ريكتوري. قلعة غلامس. مذهل أن يجد المرء نفسه يعايش هذا، مذهل تمامًا. لم أصدق بعد. لا أكاد أفهم، بضبابيّة، لذة الوسيلة الصائبة النائية. من فضلك ناولني مربى الحمضيّات. شكرًا. زوجتي لن تصدّقني أبدًا. للأكل نكهة جديدة، هل تتذوقونها أيضًا؟"

"إذًا ليس الأمر هو أن السيدة دودلي تفوّقت على نفسها وحسب، كما كنت أظن." قال لوك.

"كنت أحاول أن أتذكر،" قالت إلينور. "ما حدث ليلة البارحة، أعني. أعرف أنني فزعت، لكن لم أستطع تذكر ما أفزعني في الواقع..."

"أتذكر البرد،" قالت ثيودورا، وارتجفت.

"أظن لأنه كان خرافيًا، على كافة الأصعدة التي عهدتها؛ أعني، لا يبدو معقولًا." توقفت إلينور وضحكت، خجلى.

"أتفق،" قال لوك، "ألفيت نفسي هذا الصباح أهجس بما حدث البارحة؛ هجسًا منافيًا لما تقوله بعد حلم سيء، في الحقيقة، حين تؤكد لنفسك أنه لم يحدث حقًا."

"ظننت أنه كان ممتعًا،" قالت ثيودورا.

رفع الدكتور إصبعًا تحذيريًا. "ما يزال من الممكن جدًا أن هذا كله بسبب مياه جوفية."

"إذًا، لا بد أن العديد من المنازل قد بنيت على نوابض،" قالت ثيودورا.

عبس الدكتور. "هذه الاثارة تؤرقني،" قال. "إنها مسكرة، بالتأكيد، لكن أيمكن ألا تكون خطيرة أيضًا؟ تأثير جو منزل التلّ؟ أيمكن أن تكون

الإشارة الأولى على كوننا - كما كان - قد وقعنا تحت تأثير تعويذة؟"

"إذا سأكون أميرة مسحورة،" قالت ثيودورا.

"مع هذا،" قال لوك، "إذا كانت ليلة البارحة مقياس حقيقي لمنزل التلّ، فلن نواجه العديد من المشاكل، كنا فزعين، بالتأكيد، ووجدنا أن التجربة بغيضة أثناء حدوثها، مع هذا لا أستطيع تذكر أنني شعرت بأي خطر جسدي؛ مع أن قول ثيودورا بأن ذاك الشيء مهما يكن خارج غرفتها كان قادمًا ليلتهمها لا يبدو في الواقع..."

"أدرك ما قصدته ثيودورا،" قالت إلينور، "وأعتقد أنها المفردة الصائبة تمامًا. شعرت بأنه قادم ليبتلعنا، يدفعنا إلى جوفه، لنكون جزءًا من المنزل، ربّما... أوه، عزيزي. ظننت أنني أعرف ما أقول، لكنني تحدثت بسوء بالغ."

"لم يوجد خطر جسدي،" قال الدكتور مؤكدًا. "لم يؤذ أي شبح على مر تاريخ الأشباح الطويل أحدًا جسديًا قط. الضرر الوحيد يلحقه الضحيّة بنفسه. لا يمكن حتى للمرء أن يقول بأن الأشباح تهاجم العقل، لأن العقل، الوعي، الإدراك، منيعة؛ في عقولنا الواعية، بينما نجلس الآن نتحدث، لا يوجد مقدار ذرة واحدة من الإيمان بالأشباح. لا أحد منّا، حتى بعد ليلة البارحة، يستطيع أن يلفظ كلمة شبح دون ابتسامة لاإرادية. خطورة الظواهر الماورائية تكمن في أنها تهاجم ثغرة العقول الحديثة، حيث هجرنا درع الخرافات التي نحتمي بها، ولم يعد لدينا بديل دفاعي. لا أحد منا يعتقد حقًا أن ما ركض في الحديقة ليلة البارحة كان شبحًا، ولا أن من طرق الباب كان شبحًا، مع هذا، يوجد بالتأكيد شيء ما قد جرى في منزل التلّ ليلة البارحة، وملاذ العقل البديهي - الشك - متعذّر الآن، فلا يمكن لأحدنا أن يقول: هذا نسج خيالي، لأن ثلاثة آخرين شهدوا الأحداث أيضًا."

أضافت إلينور، مبتسمة: "يمكنني قول إن ثلاثتكم في خيالي؛ لا شيء من هذا حقيقي."

"إذا كنتِ تظنين حقًا أنكِ قادرة على قول هذا،" قال الدكتور بصرامة، "سأطردكِ من منزل التلّ هذا الصباح. إن كنتِ تعتقدين هذا حقًا، فأنتِ خطيرة بقدر الحالة الذهنية التي تستقطب مخاطر منزل التلّ بأحضان أخوية."

"يعني أنه يظن أنكِ مجنونة، عزيزتي نيل."

"حسنًا،" قالت إلينور، "أتوقع هذا. كما توقّعت أن تبعدوني إذا ما انحزت إلى منزل التلّ ضدكم." لم أنا؟ تساءلت، لم أنا؟ هل أنا الضمير الجمعي؟ هل أنا مدعوة لأقول بكلمات باردة دائمًا ما يترفّع بقيتهم عن الاعتراف به؟ هل يفترض أن أكون الأضعف، أضعف من ثيودورا؟ من بيننا جميعنا، هجست، أنا بالتأكيد أقل واحدة من المحتمل أن تنقلب ضد البقيّة.

"الأشباح الضّاجّة مختلفة كليًا،" قال الدكتور، وعيناه مستقرتان على إلينور. "إنهم يتعاملون كليًا مع العالم الفيزيائي؛ يقذفون الحجارة، يحرّكون الأشياء من مكانها، يحطمون الأطباق، السيدة فويستر في بورلي ريكتوري امرأة عانت طويلًا، لكنها فقدت أعصابها في الأخير كليًا حين قُذف إبريق شايها المفضل مع النافذة. الأشباح الضّاجة، على كل حال، في قاع معيار الظواهر الماورائية الاجتماعية؛ إنها مخربة، لكنها دون تفكير أو إرادة، إنها قوى عشوائية صرفة. هل تتذكرون،" سأل بابتسامة خفيفة، "قصة أوسكار وايلد الجميلة "شبح كانترفيل"؟

"التوأم الأمريكيان اللذان هزما الشبح الإنجليزي العجوز،" قالت ثيودورا.

"تمامًا. لقد أحببت الفكرة القائلة بأن التوأم الأمريكيين كانا في الواقع

شبحين ضاجين؛ بالتأكيد تستطيع الأشباح الضاجة أن تظلل أي حدث أكثر إثارة للاهتمام." وصفق بيديه سعيدًا. "لقد أبعدوا كل شيء آخر، أيضًا." أضاف. "يوجد قصر في اسكتلندا أيضًا، تستعمره الأشباح الضاجة، حيث اشتعلت ما يقارب سبع عشرة شعلة نار دون سبب في يوم واحد؛ تحب الأشباح الضاجة أن تخرج الناس من أسرتها بعنف، بقلبها رأسًا على عقب، أتذكر حالة قس أجبر على مغادرة بيته لأنه عانى، يومًا بعد يوم، من شبح ضاج يهيل على رأسه كتب ترانيم مسروقة من كنيسة منافسة."

فجأةً، دون سبب، انفجرت ضحكة بداخل إلينور؛ أرادت أن تجري باتجاه رأس الطاولة وأن تحضن الدكتور، أرادت أن تتدحرج، تنشد، في الحديقة الفسيحة، أرادت أن تغني، تصرخ، تشرّع ذراعيها وتطوف حجرات منزل التلّ، طوافًا متقمّصًا متملّكًا؛ أنا هنا، أنا هنا، قالت. أغلقت عينيها بسرعة في متعة ثم قالت برزانة للدكتور: "وماذا سنفعل اليوم؟"

"وكأنكم حشد من الأطفال،" قال الدكتور، مبتسمًا. "تسألون دائمًا ماذا سنفعل اليوم. ألا يمكنكم أن تسلّوا أنفسكم بألعابكم؟ أو تسلّوا بعضكم، لدي عمل لأنجزه."

"كل ما أود فعله حقًا" ضحكت ثيودورا "هو أن أنزلق على درابزين الدرج." سيطرت عليها الإثارة كما سيطرت على إلينور.

"الغميضة،" قال لوك.

"حاولوا ألّا تتجوّلوا وحيدين كثيرًا،" قال الدكتور. "لا أستطيع أن أفكر بسبب مقنع لهذا، لكن يبدو معقولًا."

"لأن في الغابة دببة،" قالت ثيودورا.

"وفي العليّة نمور،" قالت إلينور.

"وفي البرج ساحرة عجوز، وفي المرسم تنّين."

"أنا جاد تمامًا،" قال الدكتور، ضاحكًا.

"إنها العاشرة تمامًا. أنظّف..."

"صباح الخير، سيّدة دودلي،" قال الدكتور، واسترخى كل من إلينور وثيودورا ولوك وضحكوا مستسلمين.

"أنظف عند العاشرة تمامًا."

"لن نأخركِ. قرابة خمس عشرة دقيقة، من فضلكِ، ثم يمكنكِ تنظيف الطاولة."

"أنظف مائدة الإفطار في تمام العاشرة. أضع الغداء عند الواحدة. العشاء أضعه عند السادسة. إنها العاشرة."

"سيدة دودلي،" بدأ الدكتور بحزم، ثم لاحظ أن وجه لوك اكتنز بضحكة مكتومة، واضعًا منديله ليغطي عينيه، ثم استسلم. "يمكنكِ تنظيف الطاولة، سيّدة دودلي،" قال الدكتور متراجعًا.

دوّى صدى ضحكتهم بسعادة في ردهات منزل التلّ ووصل إلى المجموعة الرخامية في المرسم والحضانة في الطابق الثاني وقمة البرج الغريبة، قطعوا طريقهم عبر الممر إلى الصالون وارتموا، ضاحكين، على المقاعد. "يجب ألّا نسخر من السيدة دودلي،" قال الدكتور وانحنى إلى الأمام واضعًا مرفقيه على ركبتيه، ماسكًا رأسه بكفّيه وكتفاه تهتزان.

ضحكوا لوقتٍ طويل، تحدّثوا بعبارات ناقصة، محاولًا أحدهم أن يخبر الآخر شيئًا، يشير أحدهم إلى الآخر بصخب، هزّت ضحكاتهم منزل التلّ حتى، استرخوا منهكين، ينظر أحدهم إلى الآخر. "الآن..." تحدّث الدكتور،

قاطعته قهقهة صادرة من ثيودورا. "الآن،" قال الدكتور مجدّدًا، بتأكيد أكثر جعلهم هادئين. "أريد المزيد من القهوة،" قال متوسلًا، "ألا نريد جميعًا؟"

"هل تقصد أن تذهب إلى هناك وتطلب من السيدة دودلي؟" سألت إلينور.

"تقصدها حين لا تكون الواحدة تمامًا ولا السادسة تمامًا وتطلب منها بعض القهوة؟" استفسرت ثيودورا.

"تقريبًا، نعم،" قال الدكتور. "لوك، بُني، لقد لاحظت أنك مفضل لدى السيدة دودلي..."

"كيف هذا؟" سأل لوك باندهاش، "هل لاحظت شيئًا غير معتاد؟ تنظر السيدة دودلي إليّ بالنظرة المشمئزة ذاتها التي تنظر بها لطبق ليس في رفّه؛ في عيني السيدة دودلي..."

"مع ذلك أنت وريث المنزل،" قال الدكتور محاولًا إقناعه. "لا بد أن شعور السيدة دودلي تجاهك مثل شعور خادم عائلة عجوز تجاه السيد الشاب."

"في عيني السيدة دودلي أنا شيء أقل من شوكة ملقاة. أرجوك، إذا كنت تفكّر في طلب شيء من الحمقاء العجوز، أرسل ثيو، أو جميلتنا نيل. ليستا خائفتين..."

"أبدًا،" قالت ثيودورا. "لن ترسل أنثى عزلاء لتواجه السيدة دودلي. أنا ونيل هنا لنحصل على حماية، لسنا هنا لنذير الجبهات بدلًا منكم أيّها الجبناء."

"الدكتور..."

"هراء،" قال الدكتور بحماسة. "لن تفكري بالتأكيد في أن تطلبي هذا مني، أنا الرجل المسنّ، على كل حال تعلمين أنها تحبّكن."

"عجوز متغطرس،" قال لوك. "تضحي بي من أجل فنجان قهوة. لا تتفاجأ، أقولها بحزن، لا تتفاجأ إذا فقدت لوك صاحبك من أجل هذه الغاية؛ على الأرجح لم تتناول السيدة دودلي وجبة منتصف الصباح الخفيفة، ولديها قابلية بالتأكيد لتصنع مني لوك فيليه مقدد، وربّما ديبوا، يعتمد على مزاجها؛ إذا لم أعد،" وهز إصبعه محذرًا تحت أنف الدكتور "أرجو أن تنظر إلى غدائك بأدنى حزن." انحنى بإفراط يلائم شخصًا خرج للقاء عملاق، ثم أغلق الباب خلفه.

"لوك الجميل." تمغّطت ثيودورا برفاهية.

"منزل التلّ الجميل،" قالت إلينور. "ثيو، يوجد منزل صيفي صغير في الحديقة الجانبيّة، يغطيه النبات، لاحظته يوم أمس. هل يمكننا أن نستكشفه هذا الصباح؟"

"بكل سرور،" قالت ثيودورا. "لن أترك بوصة واحدة من منزل التلّ دون استكشاف. على أية حال، هذا يوم أروع من أن يقضى في الداخل."

"سنطلب من لوك أن يأتي أيضًا،" قالت إلينور. "وأنت، دكتور؟"

"ملاحظاتي..." بدأ الدكتور، ثم توقف حين فتح الباب فجأة، خطر لإلينور أن لوك لم يجرؤ على مواجهة السيدة دودلي في النهاية وحسب، لكنه وقف، انتظر، اتكأ على الباب؛ ثم، محدقةً في وجهه الشاحب وهي تسمع الدكتور يقول بحنق: "لقد كسرت قاعدتي الأولى، لقد أرسلته وحيدًا،" ألفت نفسها تسأل بإلحاح: "لوك؟ لوك؟"

"كل شيء على ما يرام." ابتسم لوك. "لكن تعالوا إلى الممر الطويل."

اقشعّروا من وجهه وصوته وابتسامته، نهضوا بصمت وتبعوه عبر المدخل إلى الممر الطويل المظلم الذي يقود إلى الردهة الأماميّة. "هنا،" قال

لوك، سرت رعشة بغيضة في ظهر إلينور حين رأته يقرب عود ثقاب مشتعل للجدار.

"أهي... كتابة؟" سألت إلينور، متقدمة لترى.

"كتابة،" قال لوك. "لم ألحظها إلى أن عدت من عند السيدة دودلي رافضة،" أضاف بنبرة واثقة.

"كشّافي." قال الدكتور مخرجًا كشافه من جيبه، وتحت نوره، بينما يتحرك ببطء من أحد أطراف الردهة إلى الآخر، اتضحت الأحرف. "طبشور،" قال الدكتور، متقدمًا ليلمس الحرف بأنمله. "كتب بالطبشور."

كانت الكتابة كبيرة وعشوائية، كُتِبت لتُرى، فكّرت إلينور، كأنها خربشات صبية مشاغبين على سور. بدلًا من هذا، كانت حقيقية جدًا، ممتدة في خطوط مكسورة على نجيرة الردهة المزدحمة بالتفاصيل. شغلت الكتابة الحائط من أحد أطراف الردهة إلى الآخر تقريبًا، كانت أكبر من أن تقرأ، حتى عندما عادت إلى الخلف ووقفت على الحائط المقابل.

"هل يمكنكم قراءتها؟" سأل لوك بلطف، قرأ الدكتور ببطء محركًا كشّافه:

ساعد إلينور لتعود إلى البيت.

"لا." وشعرت إلينور بأن الكلمات تقف في حلقها؛ لقد رأت اسمها حينما قرأه الدكتور. إنها أنا، قالت. إنه اسمي هذا البارز هنا بوضوح تام؛ لا يجدر باسمي أن يُخطّ على جدران هذا المنزل. "امسحه، أرجوك،" قالت، وشعرت بذراع ثيودورا يلتف حول كتفيها. "إنه مجنون،" قالت إلينور، مضطربة.

"مجنون هي المفردة المناسبة، حسنًا،" قالت ثيودورا بثبات. "عودي إلى الداخل، نيل، واجلسي. سيجد لوك شيئًا ويمسحه به."

"لكنه مجنون،" قالت إلينور، عائدة لترى اسمها على الحائط. "لماذا؟"

دفعها الدكتور بحزم عبر الباب إلى الصالون الصغير وأغلقه؛ في هذه الأثناء هاجم لوك الرسالة بمنديله. "الآن استمعي أنتِ إليّ،" قال الدكتور لإلينور. "كون اسمكِ على الحائط..."

"أعرف،" قالت إلينور، محدقة في الدكتور. "يعني أنه يعرف اسمي، أليس كذلك؟ إنه يعرف اسمي."

"هلّا صمتِّ؟" هزّتها ثيودورا بعنف. "كان من الممكن أن يكون أيًا منّا، إنه يعرف أسماءنا جميعًا."

"هل كتبتها؟" استدارت إلينور إلى ثيودورا. "أرجوكِ أخبريني - لن أغضب منكِ، فقط لأعرف أنها - ربّما كانت مزحة وحسب؟ لإخافتي؟" نظرت بتوسّل إلى الدكتور.

"تعلمين أن لا أحد منّا قد كتبه،" أجاب الدكتور.

دخل لوك، يمسح يديه في منديله، استدارت إلينور متأملة أن يكون هو من فعلها.

"لوك،" قالت، "أنت كتبتها، أليس كذلك؟ عندما خرجت؟"

شرد لوك، ثم تقدم وجلس على ذراع مقعدها. "انصتي إلي،" قال، "هل تريدين منّي أن أكتب اسمكِ في كل مكان؟ أنقش حروفكِ الأولى على الأشجار؟ أكتب 'إلينور، إلينور' على قصاصات من الورق؟" شدّ شعرها شدة ناعمة. "لدي ضمير،" قال. "تأدبي."

"إذًا لم أنا؟" سألت إلينور، وهي تنقّل بصرها بينهم؛ أنا الدخيلة، هجست بغضب، أنا المستثناة، قالت على عجل: "هل فعلت شيئًا للفت الانتباه، أكثر

من أي أحد آخر؟"

"لم تفعلي شيئًا غير المعتاد، عزيزتي،" قالت ثيودورا. كانت تقف بجانب النار، متكأة على رف المدفأة تنقره بأصابعها، عندما تحدثت نظرت إلى إلينور بابتسامة مرحة. "ربما كتبته بنفسكِ."

غاضبةً، صرخت إلينور تقريبًا. "هل تظنين أنني أريد أن أرى اسمي مخربشًا على جدران هذا المنزل النتن؟ هل تظنين أنني أحب أن أكون محور الانتباه؟ لست الطفلة المدلّلة... إضافة إلى أنني لا أحب أن أُعزل..."

"طلب مساعدة، هل لاحظتِ؟" قالت ثيودورا بهدوء. "ربّما روح المرافقة الصغيرة المسكينة وجدت وسيلة تواصل أخيرًا. ربّما كانت تنتظر جبانًا أخرق..."

"ربّما اختارتني لأن روحكِ القاسية الأنانيّة لا يمكن أن ترغب في المساعدة وحسب، ربّما لأن لدي تفهم وتعاطف يفوق..."

"وربّما، بالطبع، كتبته لنفسكِ،" قالت ثيودورا مجدّدًا.

تأسيًا بالرجال الذين يرون نساءً يتشاجرن، قد انسحب الدكتور ولوك، وقفا متقاربين في صمت مزرٍ؛ ثم، أخيرًا، تحرّك لوك وتحدّث. "هذا يكفي، إلينور،" قال فجأة، دارت إلينور وضربت بقدمها على الأرض. "كيف تجرؤ؟" قالت، لاهثةً، "كيف تجرؤ؟"

فضحك الدكتور حينها، حدقته، ثم حدقت لوك، الذي كان يبتسم وينظر إليها. ما الخطب؟ تساءلت. حسنًا... يظنون أن ثيودورا تهدف بفعلها هذا إلى شيء، كي تغضبني حتى لا أفزع؛ ما أخزى أن تتحكم فيّ بهذه الطريقة. غطت وجهها وجلست في مقعدها.

"نيل، عزيزتي،" قالت ثيودورا، "أنا آسفة."

يجب أن أقول شيئًا، حدّثت إلينور نفسها؛ يجب أن أريهم أن روحي رياضيّة، بالرغم من هذا، روحي رياضيّة، دعهم يظنون أنني أشعر بالخزي ممّا قلت. "أنا آسفة،" قالت. "كنت فزِعة."

"بالطبع فزعة،" قال الدكتور، خطر لإلينور أن ما أبسط الدكتور، ما أوضحه؛ يصدق كل شيء سخيف يسمعه. يعتقد حتى أن صدام ثيودورا معي نتيجة هستيريا. ابتسمت له وفكّرت، الآن أعود إلى كوني واحدةً منهم.

"لقد ظننت أنكِ ستصرخين،" قالت ثيودورا، قدمت لتجلس على ركبتيها بجانب مقعد إلينور. "لو كنت مكانكِ، لفعلتِ ما فعلته. لكن كما تعلمين، لا نسمح بانهياركِ."

لا نسمح لغير ثيودورا بأن يلفت الانتباه، جال في ذهن إلينور؛ إذا كانت إلينور المعزولة، فستكون متفردة في هذا. نهضت وربتت على رأس ثيودورا وقالت: "شكرًا. أظن أنني اضطربت قليلًا."

"تساءلت إذا ما كنتن ستنسفن بعضكن،" قال لوك، "حتى أدركت ما تفعله ثيودورا."

أطرقت إلينور مبتسمة إلى عيني ثيودورا المشرقتين السعيدتين، خطر لها أن هذا ليس ما نوته ثيودورا حقًا.

(2)

مضى الوقت رتيبًا في منزل التلّ. إلينور وثيودورا، والدكتور ولوك، متأهبون للرعب، محاطون بالتلال الغناء، مبقون بأمان في دفء وكآبة بذخ المنزل، منحوا يومًا هادئًا، وليلة هادئة - كافية، ربما، لتخمدهم قليلًا. تناولوا وجباتهم معًا، ما يزال طبخ السيدة دودلي لذيذًا. تحدّثوا معًا ولعبوا

الشطرنج؛ أنهى الدكتور "پـاميلا" وبدأ بكتاب "السير تشارلز غراندسون" الحاجة الملحة لبعض الخصوصية المعتادة قادتهم لقضاء بعض الساعات منفردين في غرفهم، دون مقاطعة. استكشفت ثيودورا وإلينور ولوك الأحراش المتشابكة خلف المنزل وعثروا على المنزل الصيفي، بينما جلس الدكتور في الحديقة الفسيحة، يدوّن كل ما هو مرئي ومسموع. عثروا على بستان زهور مسوّر، حشائش، وبستان خضار يعتني به آل دودلي بحنان. تحدثوا في أغلب الوقت عن تنظيم نزهتهم إلى الجدول. كانت هنالك فراولة برية بقرب المنزل الصيفي، عادت ثيودورا وإلينور ولوك بمنديل مملوء منها، استلقوا على العشب بالقرب من الدكتور وطفقوا يتناولونها، ملطخين أيديهم وأفواههم مثل الأطفال؛ كما قال لهم الدكتور ناظرًا إليهم بسخرية وهو يرفع بصره عن ملاحظاته. كتب كل واحدٍ منهم - دون اهتمام، ودون عناية بالتفاصيل - شهادة بما يعتقدون أنهم رأوه أو سمعوه منذ بدء إقامتهم في منزل التلّ حتى الآن، ثم وضع الدكتور الأوراق في حقيبته. في الصباح التالي - صباحهم الثالث في منزل التلّ - قضى الدكتور، بمساعدة لوك، ساعة مثيرة على أرضية ردهة الطابق الأعلى، محاولًا تحديد أبعاد البقعة الباردة بدقة باستخدام الطبشور وشريط القياس، بينما تجلس إلينور وثيودورا متربعتين على الأرضية، تراقبان حدود الدكتور وتلعبان "إكس أو." شعر الدكتور بخيبة جليّة، من حقيقة أن كفيه تتجمدان بشكل متكرر نتيجة البرد القارس، لا يمكنه أن يمسك الطبشور أو شريط القياس لأكثر من دقيقة في كل مرة. لوك، في مدخل الحضانة، يمكنه أن يمسك أحد طرفي شريط القياس إلى أن تصل كفه إلى البقعة الباردة، ثم تفقد أصابعه القوة وتفلت الشريط عاجزةً. أما مقياس الحرارة الذي ألقي في مركز البقعة الباردة فرفض تسجيل أي تغيير على الاطلاق، بل استمر بعناد في الادعاء بأن درجة الحرارة هناك مطابقة لدرجة الحرارة في بقية الردهة، ما أوقد غضب الدكتور على إحصاءات بورلي

ريكتوري، التي رصدت انخفاضًا بمقدار إحدى عشرة درجة. عندما حدد البقعة الباردة بقدر استطاعته، ودوّن نتائجه في دفتر ملاحظاته، أخذهم إلى الأسفل من أجل الغداء وتحدى تحديًا عامًا، أن ينافسوه في ملعب الكروكيّة حين يصرد النهار.

"بدت حماقة،" وضّح، "أن نقضي صباحًا رائعًا كهذا بحثًا عن مكانٍ خصر على الأرضيّة. يجب أن نخطط لقضاء وقت أطول في الخارج" - تفاجأ قليلًا عندما ضحكوا.

"أما يزال هنالك عالم آخر في مكانٍ آخر؟" سألت إلينور بحيرة. خبزت لهم السيدة دودلي فطيرة خوخ، نظرت إلى طبقها وقالت: "أنا واثقة من أن السيدة دودلي تذهب إلى مكانٍ آخر في الليل، تعود منه بالقشدة المخفوقة كل صباح، ويعود دودلي منه بالمؤونة كل ظهيرة، لكن بقدر ما أذكر ليس هنالك مكان آخر سوى هذا."

"نحن في جزيرة مقفرة،" قال لوك.

"لا يمكنني أن أتصور أي عالم سوى منزل التلّ،" قالت إلينور.

"ربّما،" قالت ثيودورا، "يجدر بنا أن نخدش خدشة على غصن أو نكوّم حصاة واحدة عن كل يوم، حتى نعرف كم ظللنا عالقين هنا."

"ما أروع ألّا تأتينا كلمة من العالم الخارجي." اقتسم لوك لنفسه كمية كبيرة من القشدة المخفوقة. "لا رسائل، ولا صحف؛ ولا كلمة عن أي شيء قد يحدث."

"للأسف" قال الدكتور، ثم توقف. "المعذرة،" استرسل. "عنيت فقط أن كلمةً ستصلنا من الخارج، بالطبع ليست سوءًا مطلقًا. السيدة مونتاغيو زوجتي ستكون هنا بحلول يوم السبت."

"لكن متى يوم السبت؟" سأل لوك. "سأسر برؤية السيدة مونتاغيو، بالطبع."

"اليوم الذي يلي يوم غدٍ." تساءل الدكتور. "نعم،" قال بعد دقيقة، "أعتقد أن اليوم الذي يلي يوم غدٍ هو السبت. سنتأكد أنه السبت، بالطبع،" أخبرهم بشيء من المرح، "حين تكون السيدة مونتاغيو هنا."

"أرجو أنها لا تحمل آمالًا عالية متعلّقة بالأشياء التي تطرأ في الليل،" قالت ثيودورا. "عجز منزل التلّ عن تنفيذ وعده الأصيل، على ما أظن. وربّما يحيي السيدة مونتاغيو بكوكبة من الظواهر الماورائية."

"ستكون السيدة مونتاغيو،" قال الدكتور، "مستعدة تمامًا لتلقيها."

"أتساءل،" قالت ثيودورا لإلينور أثناء مغادرة مائدة الغداء تحت عيني السيدة دودلي المراقبة، "لم بات كل شيء هادئًا جدًا؟ أظن أن هذا الانتظار مدمر للأعصاب، على الأرجح، أكثر من حدوث شيء."

"لسنا نحن من ننتظر،" قالت إلينور. "بل المنزل. أظن أنه يتحيّن فرصته."

"ربّما ينتظر حتى نأمن، ثم ينقض."

"أتساءل كم يستطيع أن ينتظر." ارتجفت إلينور وصعدت الدرج المهيب. "أنا ميالة إلى كتابة رسالة إلى أختي. تعلمين، أحدثها عن (قضاء وقت رائع تمامًا هنا في منزل التلّ البهيج العتيق...)"

"(يجب أن تخططي لجلب العائلة كلها في الصيف القادم)" أكملت ثيودورا. "(ننام تحت اللحف كل ليلة...)"

"(الهواء منعش، خاصةً في الردهة العلوية...)"

"(تتجوّلين طيلة الوقت سعيدة فقط لكونكِ حيّة...)"

"(في كل دقيقة هنالك حدث...)"

"(يبدو التمدّن بعيدًا جدًا...)"

ضحكت إلينور. كانت أمام ثيودورا، على قمة الدرج. كانت الردهة المظلمة مضاءَة قليلًا هذه الظهيرة، لأنهم قد تركوا باب الحضانة مفتوحًا، فدخل ضوء الشمس من النوافذ التي بجانب البرج ولمس شريط قياس الدكتور وطبشوره الملقاة على الأرضية. انعكس الضوء من نافذة بسطة الدرج الزجاجية الملونة تاركًا حزمًا متفرقة من الأزرق والبرتقالي والأخضر على خشب الردهة القاتم. "سأخلد إلى النوم،" قالت. "لم أكن بهذا الخمول في حياتي قط."

"سأستلقي في سريري وأحلم بالترام،" قالت ثيودورا.

لقد باتت عادة إلينور أن تتردد عند مدخل غرفتها، تحدجها من الداخل بنظرة سريعة قبل أن تدخل؛ حدثت نفسها بأن هذا عائد لزرقة الغرفة البالغة وهي بحاجة دائمة لبعض الوقت حتى تعتاد عليها. حينما تدخل غرفتها، تتجه إلى النافذة حتى تفتحها، النافذة التي تجدها مغلقة دائمًا؛ اليوم حين صارت في منتصف الغرفة سمعت باب ثيودورا يصطفق مجدّدًا، وثيودورا مختنقة "إلينورا!" هرعت إلينور عابرة الردهة إلى ثيودورا، لتتوقف، مرعوبةً، عند المدخل، ساهمة من خلف كتف ثيودورا. "ما هذا؟" همست.

"ماذا ترين؟" ارتفع صوت ثيودورا بشكلٍ جنوني. "ماذا ترين، حمقاء أنتِ؟"

ولن أسامحها على هذا أيضًا، هجست إلينور بجديّة، أثناء ارتباكها. "يبدو كطلاء،" قالت بتردد، "إلا أن... إلا أن الرائحة كريهة."

"إنه دم،" قالت ثيودورا أكيدةً. تميل بينما يتحرك الباب، محدقةً. "دم،"

قالت. "في كل مكان، هل ترينه؟"

"بالتأكيد أراه. وليس في كل مكان. كفّي عن التهويل." حدّثت نفسها بالحقيقة وهي أن ثيودورا لم تبالغ كثيرًا على الإطلاق. في إحدى المرات المقبلة، قالت، إحدانا ستتراجع إلى الخلف وتصرخ حقًا، آمل ألّا تكون أنا، لأنني أحاول أن أحذره؛ ستكون ثيودورا التي... ثم، مرتجفة، سألت، "أتلك كتابة على الجدار؟" وسمعت ضحكة ثيودورا الصاخبة، ففكرت، وربما ستكون أنا، لا يمكن أن أحتمل. يجب أن أكون متزنة، أغلقت عينيها فألفت نفسها تقول بصمت، قفي وأنصتي، حبكِ قادم، يمكن أن يغني بصوتٍ عالٍ وخفيضٍ في آن. لا مزيد من الترحال، الحبيب الحلو، بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال...

"نعم بالتأكيد، عزيزتي،" قالت ثيودورا. "لا أعرف كيف فعلتِ هذا."

كل ابن عاقل يعلم. "تعقّلي،" قالت إلينور، "استدعي لوك والدكتور."

"لماذا؟" سألت ثيودورا. "أليست مفاجأة بسيطة من أجلي وحسب؟ سر لنا نحن الاثنتان فقط؟" ثم، منسلةً من إلينور، التي حاولت أن تمنعها من التقدم أكثر في الغرفة، ركضت إلى دولاب الملابس الضخم وشرّعت الباب، ثم شرعت في البكاء بوجع. "ملابسي،" قالت. "ملابسي."

استدارت إلينور باتزان وقصدت قمة الدرج. "لوك،" نادت، منحنية على الدرابزين. "دكتور." لم يكن صوتها عاليًا، وقد حاولت أن تحافظ على مستواه، لكنها سمعت وقع كتاب الدكتور على الأرضية ثم وقع الأقدام عندما ركض هو ولوك على الدرج. شاهدتهما، رأت وجهيهما الخائفين، هجست في القلق الذي يخفونه جميعًا، حيث يبدو كل واحد منهم متأهبًا دائمًا، ينتظر نداءً للمساعدة من أحد الآخرين؛ لا الذكاء ولا التفهم يوفران

حماية إطلاقًا. "إنها ثيو،" قالت عندما وصلا إلى قمة الدرج. "إنها في حالة هستيرية. أحد ما- شيء ما- قد خلّف في غرفتها طلاء أحمر، وهي تبكي على ملابسها." الآن، لا يمكنني أن أوضّح أكثر، قالت، مستديرةً لتتبعهما. هل يمكنني أن أجعلها أوضح من هذا؟ سألت نفسها، وألفت نفسها تبتسم.

ما زالت ثيودورا تنوح بهياج في غرفتها وتضرب باب الدولاب، في غضبٍ قد يكون مضحكًا لو لم تكن تحمل قميصها الأصفر، ممعّجًا وملطخًا؛ بقية ملابسها قد نزعت من المشاجب وقذفت في فوضى مخربةً في قاع الدولاب، كلها متسخة وحمراء. "ما هذا؟" سأل لوك الدكتور، قال الدكتور هازًا رأسه: "سأقسم أنه دم، لكن ليحصل المرء على هذه الكمية الوافرة من الدم فبالتأكيد عليه أن..." ثم صمت فجأة.

وقفوا جميعهم صامتين لبرهة ونظروا إلى:

ساعد إلينور لتعود إلى البيت

إلينور

كتبت بحروف حمراء متعرجة على ورق الحائط فوق سرير ثيودورا.

هذه المرة أنا مستعدة، حدثت إلينور نفسها، وقالت: "يجدر بكم إخراجها من هنا؛ خذوها إلى غرفتي."

"ملابسي دُمِّرت،" قالت ثيودورا للدكتور. "هل ترى ملابسي؟"

كانت الرائحة نتنة، والكتابة على الجدار مبعثرة ورطبة. كان هنالك خط من القطرات بين الحائط والخزانة - ربما أن هذا ما لفت انتباه ثيودورا في بادئ الأمر - ولطخة كبيرة غريبة على السجادة الخضراء. "مقرف،" قالت إلينور. "فضلًا خذوا ثيو إلى غرفتي."

مشى لوك والدكتور، بينهما ثيودورا، يقتادانها عبر الحمام المشترك إلى غرفة إلينور، بينما إلينور، محدقة في الطلاء الأحمر (لا بدّ أنه طلاء، أخبرت نفسها؛ لا بدّ أن يكون طلاءً؛ أي شيءٍ آخر يمكن أن يكون؟) قالت بصوتٍ مرتفع: "لكن لماذا؟" وحدقت في الكتابة التي على الحائط. هنا أحد، هجست بافتتان، من كتب اسمه بالدم؛ هل من الممكن أنني لست منطقية في هذه اللحظة؟

"هل هي بخير؟" سألت، مستديرة حينما عاد الدكتور إلى الغرفة.

"ستكون بخير خلال دقائق. علينا أن ننقلها عندكِ لبعض الوقت، لا أتخيل أنها سترغب في النوم هنا مجدّدًا." ابتسم الدكتور بشحوب. "سيمضي وقت طويل، أظن، قبل أن تفتح بابًا آخرًا بمفردها."

"أظن أنها ستضطر لارتداء ملابسي."

"أظن أنها ستفعل ما لم تمانعي." نظر إليها الدكتور بفضول. "ضايقتكِ هذه الرسالة أقل من الأخرى؟"

"إنها شديدة السخف،" ردّت إلينور، محاولة أن تتبيّن مشاعرها. "لقد وقفت هنا أطالعها وأتساءل لماذا؟ أعني، تبدو كمزحة سمجة؛ يفترض أن أكون أكثر فزعًا مما أنا الآن، أظن، لكنني لست فزعة بهذا القدر لأنها ببساطة مرعبة بقدرٍ لا تبدو معه حقيقيّة. كما لا يغيب عن ذهني ثيو وهي تضع الطلاء الأحمر...." قهقهت، نظر الدكتور إليها بنظرة حادة، لكنها أكملت، "ربّما يكون طلاءً أيضًا، ألا تظن؟" لا يمكنني التوقف عن الكلام، قالت؛ ماذا علي أن أفسّر بقول كل هذا؟ "ربّما لا أستطيع أخذه بجديّة،" قالت، "بعد رؤية ثيو تصرخ على ملابسها المسكينة واتهامها لي بكتابة اسمي على حائطها. ربّما اعتدت لومها لي على كل شيء."

"لا أحد يلومكِ على أي شيء،" قال الدكتور، فشعرت إلينور أنها قد

وُبِّخت.

"آمل أن ملابسي ستناسبها،" قالت بحنق. استدار الدكتور، جال ببصره في الغرفة؛ لمس بأنمله حذرًا الحروف وأزاح قميص ثيودورا الأصفر بقدمه. "لاحقًا،" قال بلا مبالاة. "غدًا ربّما." حدج إلينور بنظرة وابتسم. "أستطيع أن أرسم مخطّطًا مطابقًا لهذا،" قال.

"يمكنني أن أساعدك،" قالت إلينور. "هذا يثير اشمئزازي، لكنه لا يفزعني."

"نعم،" قال الدكتور. "أظن أن من الأفضل أن نغلق الغرفة الآن، على أيّة حال؛ لا نريد أن تتخبط ثيودورا هنا مجدّدًا. ثم لاحقًا، في وقت فراغي، يمكنني أن أتفحصها. أيضًا،" قال بلمحة ساخرة، "لا أود أن تأتي السيدة دودلي هنا وتسوّي الأمر."

شاهدته إلينور وهو يقفل باب الغرفة المؤدي للردهة من الداخل، ثم عبرا الحمام فأقفل الباب المؤدي إلى غرفة ثيودورا الخضراء. "سأرى إمكانية جلب سرير آخر،" قال ثم ببعض الارتباك، "لقد حافظتِ على توازنكِ، إلينور؛ ساعدتني بهذا."

"أخبرتك، يثير اشمئزازي لكن لا يفزعني،" قالت، مسرورة، واستدارت إلى ثيودورا. كانت ثيودورا مستلقية على سرير إلينور، رأت إلينور بالتفاتة متعبة أن كفيّ ثيودورا ملطخين بالأحمر، وقد لطخ اللون وسادة إلينور. "انظري،" قالت بقسوة، متوجهة إلى ثيودورا، "ستضطرين إلى ارتداء ملابسي ريثما تبتاعين ملابسًا جديدة، أو تصبح الأخرى نظيفة."

"نظيفة؟" تدحرجت ثيودورا على السرير وضغطت كفيها المتسخين على عينيها. "نظيفة؟"

”بحق السماء،“ قالت إلينور، ”دعيني أغسلكِ.“ فكرت بأنها لم تشعر قط برفض جامح تجاه أحد، دون سبب، من قبل، ذهبت إلى الحمام وبللت فوطة وعادت بها لتدعك يدي ثيودورا ووجهها. ”أنتِ متسخة بهذا الشيء،“ قالت، كارهة أن تلمس ثيودورا.

فجأةً ابتسمت ثيودورا لها. ”لا أظن حقًا أنكِ من فعلتها،“ قالت، استدارت إلينور فإذ بلوك خلفها، مطرقًا نظره نحوهن. ”ما أشد حماقتي،“ قالت ثيودورا له، فضحك لوك.

”ستتألقين في كنزة نيل الحمراء،“ قال.

إنها قذرة، فكرت إلينور، بغيضة وموحلة وقذرة. أخذت الفوطة إلى الحمام وتركتها تنقع في ماء بارد؛ عندما خرجت كان لوك يقول، ”... سرير آخر هنا؛ ستتشاركان يا فتيات الغرفة من الآن وصاعدًا.“

”نتشارك الغرفة والملابس،“ قالت ثيودورا. ”سنصبح توأمًا عمليًا.“

”قريبتان،“ قالت إلينور، لكن لم يسمعها أحد.

(3)

”كان تقليدًا يلتزم به،“ قال لوك، وهو يرج البراندي في كأسه، ”الجلّاد، قبل تنفيذ الإعدام بتقطيع الضحيّة أربعة قطع، يحدد ضربات سكّينه بطبشور على بطن ضحيته - خشية الخطأ، كما تعلمون.“

كم أود أن أضربها بعصا، خطر لإلينور وهي تشاهد رأس ثيودورا بجانب مقعدها؛ أود أن أمطرها بالحصى.

”تصفية متقنة، متقنة. لأن لمسات الطبشور لن تكون محتملة أبدًا بالطبع،

بل مؤلمة إذا كان الضحيّة قابل للدغدغة."

أكرهها، قالت إلينور، إنها تثير قرفي؛ مغتسلة ونظيفة تمامًا وترتدي كنزتي الحمراء.

"عندما أصبح الموت بالتعليق في المشانق، على أية حال، الجلّاد...."

"نيل؟" نظرت ثيودورا إليها وابتسمت. "أنا حقًّا آسفة، تعلمين،" قالت.

كم أود أن أراها تموت، خطر لإلينور، ثم ردت لها الابتسامة وقالت: "لا تكوني سخيفة."

"في الصوفية يوجد اعتقاد بأن الكون لم يخلق ونتيجة لهذا لا يمكن أن يدمر. لقد قضيت الظهيرة،" أعلن لوك بوقار، "أتصفح في مكتبتنا الصغيرة."

تنهّد الدكتور. "لا شطرنج هذه الليلة، على ما أظن." قال للوك، فأومأ لوك مؤكدًا. "لقد كان يومًا مرهقًا،" قال الدكتور، "وأظن أن عليكن يا سيدتي الراحة مبكرًا."

"ليس قبل أن أشبع من البراندي،" قالت ثيودورا صارمةً.

"الخوف،" قال الدكتور، "إنه إحجام المنطق، التخلي الطوعي عن المسلمات العقلانية. إما نصرخ منه أو نحاربه، لكن لا يمكن أن نلتقيه في الوسط."

"كنت أتساءل في وقت أسبق،" قالت إلينور، وهي تشعر بأنها مدينة بشكل ما باعتذار لهم جميعًا. "ظننت أنني هادئة تمامًا، أما الآن فقد أدركت أنني كنت فزعة." عبست، احتارت، وانتظروها لتواصل. "عندما أكون خائفة، يمكنني أن أرى الموجودات بوضوح، الجانب الجميل غير الخائف من العالم، يمكنني أن أرى المقاعد والطاولات والنوافذ باقية كما هي، غير

متأثرة وإن بقدرٍ ضئيل، كما يمكنني أن أرى أشياء مثل تصميم الصوف المتقن في السجادة، لا يتحرك حتى. أيضًا عندما أكون خائفة لا أشعر بصلة تجاه هذه الأشياء. أظن أن هذا عائد لكونها غير خائفة."

"أظن أننا نخاف فقط من أنفسنا،" قال الدكتور بتمهّل.

"لا،" قال لوك، "بل من رؤية أنفسنا بوضوح ودون أقنعة."

"بل من معرفة ما نريده حقًا،" قالت ثيودورا. رصت خدّها على كف إلينور، فسحبت إلينور يدها فورًا، كارهة ملمسها.

"أخاف دائمًا من أن أكون وحيدة،" قالت إلينور، وتساءلت، هل أتحدث هكذا؟ هل أقول شيئًا سأندم عليه بشدة غدًا؟ هل أرتكب المزيد من الذنوب بحق نفسي؟ "تلك الأحرف تشكل اسمي، ولا أحد منكم يعرف ما يشعرك به هذا.. إنه مألوف جدًا." ثم أشارت لهم، في رجاء تقريبًا. "حاولوا أن تروا،" قالت. "إنه اسمي الغالي، اسمٌ ينتمي إلي، شيءٌ ما يستخدمه ويكتبه ويناديني به واسمي أنا..." توقفت وقالت، مدوّلة بصرها بينهما، ثم أطرقته إلى وجه ثيودورا التي تنظر إليها أيضًا، "انظروا. يوجد واحدة مني فقط، وهي كل ما لدي. أكره أن أرى نفسي تتلاشى وتتحلّل وتنقسم، فأعيش بنصف واحد، ذهني، وأرى النصف الآخر منّي عاجز ومتوتر ومنفلت دون أن أستطيع إيقافه، لكنني أعلم يقينًا أنه لن يصيبني الأذى كما أن الوقت طويل جدًا وحتى الثانية منه طويلة، وأستطيع احتمال أي شيء إذا أمكنني فقط أن أستسلم..."

"تستسلمين؟" قال الدكتور بحدّة، فشردت إلينور.

"تستسلمين؟" كرّر لوك.

"لا أعلم،" قالت إلينور، ذاهلة. كنت أتحدث فقط، قالت لنفسها، كنت

أقول شيئًا - ماذا قلت للتو؟

"لقد فَعَلَت هذا من قبل،" قال لوك للدكتور.

"أعلم،" قال الدكتور بوقار، بإمكان إلينور أن تشعر بهم جميعهم ينظرون إليها. "أنا آسفة،" قالت. "هل بدوت حمقاء؟ على الأرجح لأنني متعبة."

"على الإطلاق،" قال الدكتور، وهو ما يزال وقورًا. "اشربي البراندي خاصّتكِ."

"براندي؟" أطرقت إلينور البصر، فأدركت أنها تحمل كأسًا من البراندي. "ماذا قلت؟" سألتهم.

قهقهت ثيودورا. "اشربي،" قالت. "تحتاجينه، نيلّي."

بطواعية، ارتشفت إلينور من البراندي، شعورها بمرارته الحادة كان جليًا، ثم قالت للدكتور: "لا بد أنني قد قلت شيئًا سخيفًا، عرفت من الطريقة التي تنظرون بها جميعكم إلي."

ضحك الدكتور. "كفي عن محاولة خطف الأضواء."

"غرور،" قال لوك بهدوء.

"يجب أن تكوني تحت ضوء المسرح الأبيض،" قالت ثيودورا، ابتسموا بعطف، يحدقون إلينور.

(4)

جالستان في السريرين المتجاورين، مدّت إلينور وثيودورا يديهن، تماسكتا وشدّتا قبضاتهن. كان برد الغرفة عنيفًا وظلامها دامسًا. من الغرفة المجاورة،

الغرفة التي كانت غرفة ثيودورا إلى صباح اليوم، جاء صوت غمغمة منتظم وخفيض، أخفض من أن تفهم كلماته، أكثر تكرارًا من أن يكذّب. استمعت إلينور وثيودورا وإحداهن قابضة على كف الأخرى بشدة تكاد تشعر معها بعظامها، استمر الصوت المنتظم الخفيض، يشدّد الصوت أحيانًا على بعض التمتمات، ينقطع أحيانًا لأخذ نفس، ثم يستمر. صدرت ضحكة قصيرة على حين غرّة، قرقرة مقتضبة تتخلل الغمغمة، تزداد حين تضحك، أعلى وأعلى، ثم انقطعت فجأة مع شهقة مؤلمة، استمر الصوت بعدها.

تضعف قبضة ثيودورا وتشتد، إلينور التي هدهدها الصوت لبرهة، نهضت ونظرت إلى الجهة التي تشغلها ثيودورا في هذا الظلام، ثم فكرت، صارخةً، لم الغرفة مظلمة؟ لم الغرفة مظلمة؟ تدحرجت وقبضت على يد ثيودورا بكلتي يديها، حاولت أن تتحدث ولم تستطع، انتظرت، دون أن تبصر شيئًا، متصلّبة، تحاول أن توقف عقلها على قدميه، تحاول أن تفكر مجدّدًا. لقد تركنا المصباح مشعلًا، حدثت نفسها، لم الغرفة مظلمة إذًا؟ ثيودورا، حاولت أن تهمس، لكن شفتيها لم تتحركا، ثيودورا، حاولت أن تسأل، لم الغرفة مظلمة؟ استمر الصوت، يغمغم، خفيضًا متكرّرًا، صوتٌ مزعج متناغم. ظنت أنها قد تتمكن من تمييز الكلمات إذا ما سكنت تمامًا، إذا ما سكنت تمامًا وأنصتت، أنصتت فسمعت الصوت مستمرًا، لا يوشك أن ينتهي أبدًا، تشبّثت بيأس في كف ثيودورا وشعرت بثقل مستجيب في كفها هي.

عادت القرقرة مجدّدًا، صوتها الذي ارتفع بجنون غمر الصوت، ثم لحقها فجأة صمت مطبق. أخذت إلينور نفسًا، متسائلة إذا ما كانت تستطيع التحدث الآن، ثم سمعت نشيجًا غضًا رق له قلبها، نشيج حزين سرمدي، نحيب حزنٍ ضارٍ عذب. فكّرت غير مصدّقة بأنه صوت طفل، طفل يبكي

في مكانٍ ما، ثم، أثناء هذه الفكرة، جاء الصوت المرتجف الضاري الذي لم تسمعه قط، ومع هذا تدرك أنه حاضرٌ دائمًا في كوابيسها. "ابتعدي!" صرخ. "ابتعدي، ابتعدي، لا تؤذيني،" تلاه نحيب، "أرجوكِ لا تؤذيني، أرجوكِ دعيني أعود إلى بيتي،" ثم عاد البكاء الحزين مجدّدًا.

لا أستطيع احتماله، هجست إلينور بصدق. هذا وحشي، شرير، كانوا يؤذون طفلًا وأنا لن أدع أحدًا يؤذي طفلًا، استمرت الغمغمة، منخفضة ومنتظمة، استمرت لوقت طويل، يرتفع الصوت قليلًا ثم يعود فينخفض قليلًا، ويستمر.

الآن، فكرت إلينور، مدركة أنها مستلقية عرضيًا على السرير في الظلمة الحالكة، قابضة بكفيها على كف ثيودورا، بشدة تمكنها من الشعور بعظام أصابع ثيودورا النحيلة، الآن، لن أحتمل المزيد. ينوون إخافتي. حسنًا، لقد حققوا مبتغاهم. أنا مرعوبة، لكنني شخص أيضًا، أنا إنسان، أنا بشرية سائرة مرحة عاقلة وسأحتمل الكثير من هذا المنزل المريض القذر لكنني لن أتسامح مع إيذاء طفل، لا، لن أفعل، سيعينني الرب الآن على فتح فمي وسأصرخ وأصرخ "أوقفوا هذا،" صرخت، المصابيح مشعلة الآن كما تركتاها، ثيودورا جالسة على السرير، مصدومة وشعثاء.

"ماذا؟" قالت ثيودورا. "ماذا، نيل؟ ماذا؟"

"ربّاه، ربّاه،" قالت إلينور، مرتمية من السرير، ذرعت الغرفة، وقفت مرتجفة في إحدى الزوايا، "ربّاه، ربّاه، كف من تلك التي كنت أمسكها؟"

الفصل السادس

(1)

أنا أتعرف دروب القلب، فكرت إلينور بجديّة بالغة، ثم تساءلت ماذا تعني بالتفكير في مثل هذا. كان وقت الظهيرة، وهي تجلس تحت ضوء الشمس على عتبة المنزل الصيفي بجانب لوك، هذه هي دروب القلب الصامتة، قالت. كانت تعلم أنها شاحبة، وما تزال ترتجف، بهالةٍ سوداء حول عينيها، لكن الشمس كانت دافئة والأوراق تنوس برفق فوق رأسيهما، بجانبها لوك مستلقٍ بكسل على العتبة. "لوك،" سألت، تحدثت بتأنٍ خشية أن تبدو مضحكة، "لِمَ يرغب الناس في التحدث إلى بعضهم؟ أعني، ما الذي يريدون دائمًا معرفته عن الآخرين؟"

"ما الذي تودين معرفته عنّي، على سبيل المثال؟" ضحك. فكرت، لِمَ لَمْ يسأل ما الذي يريد أن يعرفه عني؛ إنه متعجرف - ضحكت بدورها وقالت: "ماذا قد أعرف عنك في الأصل، غير ما أرى؟" أرى، كانت أقل الكلمات التي قد تختارها ملاءمةً، لكنها الأسلم. أخبرني شيئًا سأعرفه وحدي، كان هذا على الأرجح ما تود سؤاله عنه، أو ما الذي ستعطينيه لأتذكرك به؟ أو، حتى؛ هل يمكنك المساعدة من أجل شيء تافه يخصّني؟ ثم تساءلت إذا ما كانت حمقاء، أو لا مبالية، مندهشة من أفكارها، لكنه حدق الورقة التي يمسكها بيده وعبس قليلًا وحسب، كشخص نذر نفسه تمامًا لاحتواء مشكلة.

يحاول أن يصيغ كل شيء ليترك انطباعًا جيدًا قدر الإمكان، فكرت، وسأعرف ما أعنيه له وفقًا لإجابته؛ كم هو متوتر حول المظهر الذي سيبدو به أمامي؟ هل يظن أنني سأرضى ببعض الغموض، أو هل سيجهد نفسه ليبدو فريدًا؟ هل سيبدو بطوليًا؟ سيكون هذا مخجلًا، لأنه حينها سيظهر أنه يعرف أن البطولة تسحرني؛ هل سيكون غامضًا؟ مجنونًا؟ كيف سأتلقى هذا، ما أدرك سلفًا أنه سرّ، حتى لو لم يكن حقيقة؟ إقرار بأن لوك يعطيني قيمة، خطر لها، أو على الأقل لا يجعلني أرى الفرق. ليكن حكيمًا، أو لأكن عمياء؛ لا يدعني، أملت بصدق، أدرك بيقين ما يظنه عنّي.

حدجها بنظرة خاطفة وابتسم، الابتسامة التي أدركت أنها ابتسامة استنكار؛ تساءلت إذا ما كانت ثيودورا، والفكرة كانت غير محببة لها، تعرفه بهذا القدر؟

"لم أحظ قط بأم،" قال، وكانت الصدمة عظيمة. هل هذا كل ما يظنه حولي؛ توقعه لما أود أن أسمع عنه؛ هل سأضخم هذا إلى سرّ يجعلني مؤهلة لسماع أسرار عظيمة؟ هل أتنهّد؟ أتمتم؟ أمضي؟ "لم يحبني أحد قط لأنني قريبه،" قال. "أظن أن بإمكانكِ فهم هذا؟"

لا، حدّثت نفسها، لن توقع بي بهذا الابتذال، لا أفهم الكلمات ولن أقبلها في صفقة مقابل مشاعري؛ هذا الرجل ببغاء. سأخبره أنني لا أفهم مثل هذه الأشياء، الاستعطاف والبكائيات لا تنفذ فورًا إلى قلبي؛ لن أجعل من نفسي حمقاء بتشجيعه على خداعي. "أفهم، نعم" أجابته.

"ظننت على الأرجح أنكِ،" قال، وأرادت هي برغبة صادقة، أن تصفعه. "أظن أنكِ إنسان بالغ الرقة، نيل،" قال، ثم أفسدها بقوله، "حنونة، وصادقة. مستقبلًا، حين تعودين إلى بيتكِ.. ." تغيّر صوته، فخطر لها أنه إما سيبدأ بإخبارها أمرًا شديد الأهمية أو أنه يقتل الوقت حتى يمكن لهذه المحادثة أن

تنتهي بسلام. لن يتحدث بهذه الطريقة دون سبب؛ إنه غير راغب في منح نفسه. هل يظن أن أي إشارة انجذاب قد تقودني إلى إلقاء نفسي بجنون عليه؟ هل يخشى أنني لا أستطيع أن أتصرّف كسيّدة؟ ماذا يعرف عني، عن كيفية تفكيري وما أشعر به؛ هل يأسف من أجلي؟ "بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال،" قالت.

"نعم،" قال. "لم أحظ بأم قط، كما أخبرتكِ. أدرك الآن أن كل شخص آخر قد امتلك شيئًا أفتقده." ابتسم لها. "أنا أناني تمامًا،" قال بحزن، "وآمل دائمًا أن واحدة ستهذّبني، ستكون مسؤولة عنّي وتجعل مني رجلًا راشدًا."

يا له من أناني، هجست بتفاجئ، الرجل الوحيد الذي جلست معه بمفردنا وتحدثنا، وأنا لا صبر عندي؛ إنه غير مثير للاهتمام ببساطة. "لم لا تنضج بمفردك؟" سألته، وتساءلت كم من الأشخاص - كم من النساء - قد سألوه هذا مسبقًا.

"أنتِ ذكية." وكم مرة أجاب بهذا الجواب؟

لا بد أن تكون هذه المحادثة عفوية جدًا، فكرت بسخرية، ثم قالت بلطف: "لا بد من أنك وحيد للغاية." كل ما أريده أن أنال تقديرًا، فكرت، وهنا أتحدّث بالهراء مع رجل أناني. "لا بد من أنك وحيد للغاية بالطبع."

لمس كفّها، وابتسم مجدّدًا. "كنتِ محظوظة،" أخبرها. "حظيت بأم."

(2)

"وجدته في المكتبة،" قال لوك. "أقسم أنني وجدته في المكتبة."

"رائع،" قال الدكتور.

"انظر،" قال لوك. وضع الكتاب الضخم على الطاولة وقلبه إلى صفحة العنوان. "لقد أعدّه بنفسه – انظر، كتب العنوان بالحبر: مذكّرات، إهداء إلى صوفيا آن ليستر كراين؛ ميراث من أجل تعليمها وتنويرها خلال حياتها، من والدها المحب والمخلص، هيو ديزموند ليستر كراين؛ الحادي والعشرون من حزيران من عام ألف وثمانمائة وواحد وثمانين."

اتكأوا على الطاولة، ثيودورا وإلينور والدكتور، بينما يقلب لوك الصفحة الكبيرة الأولى من الكتاب. "كما ترون،" قال لوك، "فإن ابنته الصغيرة عليها أن تتعلم التواضع. لقد اقتطع بوضوح من عدة كتب جميلة وعتيقة ليصنع دفتر القصاصات هذا، تبيّنت العديد من الصور، وجميعها ملصقة."

"عجرفة الإنجاز البشري." قال الدكتور حزينًا. "فكّر في الكتب التي مزّقها هيو كراين ليصنع هذا. هنا نقش لغويا؛ شيء من المريع أن تتأمله فتاة صغيرة."

"قد كتب تحتها،" قال لوك، "تحت هذه الصورة القبيحة: أكرمي والدكِ ووالدتكِ، بنيّتي، كاتبي وجودكِ، من حملا الحمل الثقيل، من قادا طفلتهما في براءة وطهارة عبر الدرب الضيق المخيف إلى النعيم الدائم، وقدماها أخيرًا إلى ربها روحًا تقيّة طاهرة؛ تأملي يا ابنتي البهجة في الفردوس بينما أرواح تلك الكائنات الصغيرة تحلّق، محررة قبل أن تتعلم شيئًا عن الخطية والزندقة، واجعليها مهمتكِ الأبدية أن تبقي بنقائها."

"الطفلة المسكينة،" قالت إلينور، وشهقت بينما يقلب لوك الصفحة؛ درس هيو كراين الأخلاقي الثاني مستمد من قالب ملوّن لجحر أفعى، وأفاعٍ مرسومة بإتقان تزحف وتلتف على امتداد الصفحة، تعلوها الرسالة، مطبوعة بترتيب، مزيّنة بالذهبي: "اللعنة الأبديّة قدر البشريّة؛ لا الدموع، ولا التوبة، يمكنها أن تمحي تراث خطيئة الإنسان. بنيّتي، اعتزلي هذا العالم،

حتى لا تفسدكِ شهواته وكفره، بنيّتي، صوني نفسكِ."

"بعدها دور الجحيم،" قال لوك. "لا تنظري إذا كنت متقززة."

"أظن أنني سأتجاوز الجحيم،" قالت إلينور، "لكن اقرأ لي."

"من تعقّلكِ،" قال الدكتور. "رسم توضيحي من كتاب فوكس؛ كتاب الميتات الأقل جاذبيّة، لقد فكرت دائمًا، رغم هذا من يستطيع أن يفهم سبل الشهداء؟"

"مع هذا، انظروا،" قال لوك. "لقد أحرق زاوية الصفحة، وهنا ما كتبه: بنيّتي، هل يمكنكِ أن تسمعي للحظة معاناة الأرواح المعذبة وصراخها وندمها وبكائها المريع، تلك الأرواح المحكومة بالحرق الأبديّ! يمكن أن تحترق عينا المرء، لوهلة، بالنظر إلى وهج أرضٍ يباب تحترق دائمًا! وا أسفاه، كائنات تعيسة، في ألم لا يموت! بنيّتي، قد قرب والدكِ هذه اللحظة ورقته إلى شمعته، ورأى الورقة الهشة تتآكل وتنكمش داخل الشعلة؛ فكري، بنيّتي، إن نار هذه الشمعة بالنسبة لنار الجحيم الأبدي مثل ذرة التراب بالنسبة لصحراء واسعة، وكما احترقت هذه الصفحة في شعلتها الطفيفة، ستحترق روحكِ إلى الأبد في نارٍ تفوق هذه شدةً آلاف المرات."

"أراهن أنه يقرأه لها كل ليلة قبل أن تخلد إلى النوم،" قالت ثيودورا.

"انتظروا،" قال لوك. "لم تروا الفردوس بعد - حتى إن بإمكانكِ أن تري هذه، نيل. هذه لبليك، حادّة قليلًا، أظن، لكن بالتأكيد أفضل من الجحيم. استمعوا: إلهي، إلهي، إلهي! في نور الفردوس الخالص، يسبحونه الملائكة تسبيحًا أبديًا، بنيّتي، ها هنا سأعثر عليكِ."

"أي عناء تكبّده هذا الأب المحب،" قال الدكتور.

"قضى ساعات وهو يخطط، الكتابة منظمة جدًا وهذا المذهّب..."

"الآن الخطايا الكارديناليّة السبعة،" قال لوك، "وأظن أنه قد رسمها بنفسه."

"لقد وضع جهده حقًا في الشراهة،" قالت ثيودورا. "لست متأكدة من أنني سأشعر بالجوع مجدّدًا."

"انتظري الشهوة،" أخبرها لوك. "تفوّق الرجل العجوز على نفسه."

"لا أظن أنني أود في الحقيقة رؤية المزيد منه،" قالت ثيودورا. "سأجلس هناك مع نيل، إذا صادفت تعاليم أخلاقية محددة مهذبة تظن أنها تنفعني، اقرأها بصوتٍ عالٍ."

"هنا الشهوة،" قال لوك. "هل خضعت امرأة لهذا الاغواء المضحك قط؟"

"ربّاه،" قال الدكتور، "ربّاه."

"لا بد من أنه قد رسمها بنفسه،" قال لوك.

"لطفلة؟" قال الدكتور مستنكرًا.

"دفتر قصاصاتها الخاص. انظر، صورة نيل خاصتنا هنا."

"ماذا؟" قالت إلينور ناهضةً.

"مزحة،" قال الدكتور مهدئًا إلينور. "لا تأتِ لتنظري، عزيزتي؛ إنه يمازحكِ."

"وهذا هو الكسل،" قال لوك.

"الحسد،" قال الدكتور. "كيف استطاعت الطفلة المسكينة تخطّي..."

"ألطفها الصفحة الأخيرة، في رأيي. هذا، سيدتيّ، دم هيو كراين. نيل،

هل تودين رؤية دم هيو كراين؟"

"لا، شكرًا لك."

"ثيو؟ لا؟ على كل حال، أنا أصر، من أجل ضمائركن أنتن الاثنتين، أن تقرآ ما كان على هيو كراين أن يكتبه في ختام كتابه: بنيّتي، المعاهدات المقدسة توقع بالدم، وها هنا أخذت من معصمي السائل الجوهري الذي يربطنا معًا. عيشي بفضيلة، كوني خيّرة، آمني بالمخلّص، وبي، والدكِ، وأقسم لكِ بأنكِ ستشملين بعد ذلك بنعمة أبديّة. اتّبعي هذه التعاليم من والدكِ المخلص، الذي أعد هذا الكتاب بتواضع. ليؤدي جهدي الوهن هدفه على أكمل وجه، ويحفظ طفلتي من خطايا هذا العالم ويجلبها طاهرة إلى يدي والدها في الفردوس. ثم وقع: والدكِ المحب لكِ دائمًا، في هذه الحياة والتي تليها، مؤلفكِ وحامي فضيلتكِ؛ بأوفر الحب، هيو كراين."

ارتعدت ثيودورا. "لا بد أنه استمتع بهذا،" قالت، "توقيع اسمه بدمه؛ أتخيّله يهزق في الضحك."

"ليس سويًا، ليس عمل إنسان سوي أبدًا،" قال الدكتور.

"لكن لا بد أنها كانت صغيرة السن حينما غادر والدها المنزل،" قالت إلينور. "أتساءل إن كان قد قرأه لها قط."

"أنا متأكدة من أنه قرأه لها، منحنيًا على مهدها ولعابه يطير من الحماس بين الكلمات لتتجذر في ذهنها الغض. هيو كراين" قالت ثيودورا، "لقد كنت عجوزًا قذرًا، وبنيت منزلًا عتيقًا قذرًا، وإذا كان بإمكانك أن تسمعني الآن من أي مكان أودّ أن أخبرك في وجهك أنني آمل بصدق أنك ستقضي الأبدية بهذه الصورة النتنة ولن تكف عن الاحتراق للحظة." أومأت إيماءة نزقة وساخرة، ولبرهة، ما يزالون متذكرين، كانوا صامتين، كأنهم ينتظرون

إجابة، ثم سقط فحم المدفأة مصدرًا صوت اصطدام بسيط، نظر الدكتور إلى ساعته فنهض لوك.

"عامدت الشمس الصواري،" قال الدكتور سعيدًا[1].

(3)

حامت ثيودورا حول المدفأة، تتطلع إلى إلينور بخبث؛ في الزاوية الأخرى من الحجرة تُحرّك بيادق الشطرنج بخفّة، تتصادم مصدرة بعض الجلبة من وقعها على الطاولة، تحدثت ثيودورا بترو ومناكدة. "هل ستستضيفينه في شقّتكِ، نيل، وتدعينه للشرب في فنجانكِ ذي النجوم؟"

حدقت إلينور النار دون رد. ما أشدّ سخفي، دار في ذهنها، لقد كنت حمقاء. "هل هنالك مساحة كافية لشخصين، هل سيأتي لو دعوته؟"

لا يوجد ما يفوق هذا في السوء، فكرت إلينور، لقد كنت حمقاء.

"ربّما أنه قد تاق إلى بيتٍ صغير - شيء أصغر من منزل التلّ بالطبع؛ قد يعود معكِ إلى البيت."

حمقاء، حمقاء مضحكة.

"ستائرك البيضاء - أسداكِ الحجريان الصغيران..."

أطرقت إلينور إليها النظر، برفق، "لكن كان علي أن آتي،" قالت، ثم وقفت، دون وعي، مستديرة لتخرج. دون أن تسمع الأصوات التي انبثقت خلفها، دون أن تدرك إلى أين أو كيف تذهب، عبرت الباب الأمامي الضخم متعثرة، خرجت في الليلة الدافئة العليلة. "كان علي أن آتي،" قالت للعالم في

1- تعبير شائع عند البحّارة، يشير إلى الوقت من اليوم الذي يُعد فيه تناول الكحول مسموحًا، قرابة الساعة الحادية عشرة.

الخارج.

الخوف والشعور بالذنب أخوان؛ أمسكت بها ثيودورا في الحديقة. صامتتان، غاضبتان، غادرتا منزل التلّ مجروحتان جنبًا إلى جنب، سائرتان سويةً، إحداهن تشعر بالأسف من أجل الأخرى. شخص غاضب، أو ساخر، أو فزِع، أو غيور، سيمضي بعناد في سلوكيات متطرفة مستحيلة في وقت آخر؛ لا إلينور ولا ثيودورا فكرتا للحظة بأنه تهوّر منهن أن تمشيان بعيدًا عن منزل التلّ بعد حلول الظلام. كل واحدة منهن قد انثنت على خيبتها، حد أن الهرب إلى الظلام الذي ضمّنتا أنفسهن فيه، كان حتميًا، تدثّرتا برداء الليل الذي لا يقي شيئًا، ضربتا بأقدامهن معًا، إحداهن واعية بألم الأخرى، إحداهن تصر على أن تكون آخر من تتحدث.

أخيرًا، تحدّثت إلينور؛ اصطدمت قدمها بصخرة وحاولت أن تتفاخر بملاحظتها، لكن بعد برهة، آلمتها قدمها، قالت، بصوت حاد محاولة أن تبقيه منخفضًا: "لا أتبيّن سببًا يسوّغ اعتقادكِ بأن لكِ حق التدخّل في شؤوني،" تحاول بلغتها أن تحجب سيلًا من الاتهامات، أو عتابًا غير مستحق (ألم تقولا بأنهن ليستا غريبتين؟ قريبتين؟). "واثقة من أن أي شيء أفعله لا يعنيكِ."

"هذا صحيح،" قالت ثيودورا بتجهم. "لا شيء مما تفعلينه يعنيني."

نحن نسير على جانبي السياج، قالت إلينور، لكن لي حق في العيش أيضًا، وقد أضعت ساعةً مع لوك في المنزل الصيفي محاولةً أن أثبت هذا. "جرحت قدمي،" قالت.

"آسفة،" بدت ثيودورا حزينة حقًا. "تعلمين أي بهيمة هو." تردّدت. "فاسق،" قالت أخيرًا، بنبرة ساخرة.

"أنا واثقة من أن أمره لا يعنيني." ثم، ولأنهن امرأتان تتشاجران. "وكأنكِ تهتمين، على أية حال."

"لا يجدر أن يُسمح له بالاستمرار،" قالت ثيودورا.

"الاستمرار في ماذا؟" سألت إلينور بظرافة.

"تجعلين من نفسكِ حمقاء،" قالت ثيودورا.

"افترضي أنني لا أفعل، ماذا بعد؟ لن تمانعي حين تبدين مريعة إذا تبيّن أنكِ مخطئة هذه المرة، أليس كذلك؟"

كان صوت ثيودورا قلقًا، مريبًا. "لو أنني مخطئة،" قالت، "سأباركك من كل قلبي. حمقاء أنتِ."

"لا يمكنكِ أن تقولي شيئًا آخرًا."

كانتا تسيران مع الدرب الموصل إلى الجدول. في الظلمة شعرت أقدامهن أنها متجهة أسفل التلّ، وكل واحدة بسرية وخبث تتهم الأخرى، عمدًا، بسرقة درب قطعتاه معًا مرة من قبل بسعادة.

"على أيّة حال،" قالت إلينور بنبرة عقلانية، "ما دام لا يعني شيئًا لكِ، لا يهم مهما حدث. لماذا تهتمين إذا ما كنت أجعل من نفسي حمقاء أم لا؟"

كانت ثيودورا صامتة لبرهة، تسير في الظلام، كانت إلينور واثقة من أن ثيودورا مدت لها ذراعًا لا مرئية، بعبثية.

"ثيو،" قالت إلينور بارتباك، "أنا لست جيدة في محادثة الناس وقول الأشياء."

ضحكت ثيودورا. "ماذا تجيدين؟" خمنت، "الهرب؟"

لا شيء متعذر إصلاحه قبل حتى ذلك الحين، لكن قد غادرهن حاجز الأمان الرفيع؛ كل واحدة منهن تتحرك بحذر على مشارف سؤال مفتوح، وحين يقال سؤال كهذا - مثل "هل تحبني؟" - لا يمكن أن يجاب أو يُنسى. سارتا ببطء، متأملتين، محتارتين، والدرب تنزلق من أقدامهن بينما يتبعانها،

تسيران جنبًا إلى جنب في أكثر ألفة متوقعة؛ نفد منهن ترددهن وخداعهن، لم يعد بمقدورهن إلا أن تنتظرا الحل مكتوفتيّ الأيدي. كل واحدة علمت، تقريبًا، ما تفكر فيه الأخرى وما تود قوله؛ بكت كل واحدة منهن من أجل الأخرى. أدركتا في اللحظة نفسها التغير في الدرب وأدركت كل واحدة منهن حينها معرفة الأخرى بهذا؛ أمسكت ثيودورا بذراع إلينور، وخائفتان من التوقف، تحرّكتا ببطء، متلاصقتين، وأمامهن يتّسع الدرب، يسودّ، وينعطف.

التقطت إلينور نفسًا، شدّت ثيودورا قبضتها، محذرة إيّاها لتظل ساكنة. على ميمنتهن وميسرتهن تمتد الأشجار، صامتة، قد هجرت لونها القاتم، شاحبة، تزداد وضوحًا وبياضًا، تقف مخيفة تحت السماء السوداء. كان العشب عديم اللون، الدرب واسع ومظلم؛ لم يكن هنالك أي شيء آخر. كانت أسنان إلينور تصطفق ببعضها، وغثيان الخوف قد تمكن منها تمامًا، كانت ذراعها ترتجف تحت قبضة ثيودورا، حانت اللحظة الحاسمة، وهي تشعر بكل خطوة بصفتها عمل إرادي، إصرار مجنون تمامًا على وضع القدم بعد الأخرى كأنه الخيار المعقول الوحيد. أحرقت الدموع عينيها في وجه سواد الدرب الحالك وبياض الأشجار المخيف، هجست، وصورة الكلمات تتوهجّ جليّة في ذهنها، أنا الآن خائفة حقًا.

واصلتا المسير، الدرب ينبسط أمامهن، الأشجار البيضاء ثابتة على جنباته، وفوق كل هذا السماء السوداء تمتد بكثافة؛ كانت أقدامهن تلتمع بياضًا حينما تلمس الأرض؛ كف ثيودورا شاحبة ومضيئة. أمامهن انعطف الدرب وغاب عن النظر، سارتا ببطء، تحركان أقدامهن بحذر لأنه الفعل الفيزيائي الوحيد المتاح لهن، الشيء الوحيد المتبقي ليحميهن من الغرق في السواد والبياض المريعين، التوهج الشيطاني اللامع. الآن أنا خائفة حقًا، فكرت إلينور بكلمات من نار؛ من جهة أخرى، ما تزال تستطيع أن تشعر بيد

ثيودورا على ذراعها، لكن ثيودورا كانت بعيدة، عالقة؛ كان بردًا قارسًا، دون دفء بشري بالقرب. الآن أنا خائفة حقًا، قالت إلينور، وتبعت قدمًا بقدم إلى الأمام، ترتجف كلما لمست الأرض، ترتجف مع برد أهوج.

انحلّ الدرب؛ ربّما أنه يعمد إلى أخذهن إلى مكانٍ ما، طالما أن لا واحدة منهن استطاعت أن تخرج منه وتحطم بياض العشب على جانبي الدرب عمدًا. انعطف الدرب، أسودًا برّاقًا، تبعتاه. اشتدت قبضة ثيودورا، لهثت إلينور بنحيب ضئيل - هل تحرك شيء، في الأمام، شيء أشد بياضًا من الأشجار البيضاء، يلوح؟ يلوح ثم يختفي بين الأشجار، أترين؟ أكانت هنالك حركة بينهن، تلاشت في ليلة بكماء؛ هل جارتهن بعض الخطوات غير المرئية في العشب الأبيض؟ أين هي؟

أوصلهن الدرب إلى نهايته ومات تحت أقدامهن. نظرت إلينور وثيودورا إلى حديقة، أعمى ضوء الشمس والألوان الزاهية أعينهن؛ أمر لا يصدق، كانت هنالك نزهة على العشب في الحديقة. استطاعتا سماع ضحك الأطفال وأصوات الأم والأب المبتهجة المفتونة؛ كان العشب كثيفًا بالغ الخضرة، والأزهار ملوّنة بالأحمر والبرتقالي والأصفر، السماء زرقاء يخالطها الذهبي، أحد الأطفال يرتدي جوبيّة قرمزية ويرفع صوته بالضحك مجدّدًا، متعثرًا خلف جرو على العشب. كان هنالك سماط منشور، انحنت الأم مبتسمة لتأخذ طبقًا من الفواكه النضرة، حينها صرخت ثيودورا.

"لا تنظري إلى الوراء،" صرخت وصوتها يعلو بفزع، "لا تنظري إلى الوراء - لا تنظري - اركضي!"

راكضة، دون أن تعرف لماذا تركض، فكرت إلينور بأن قدمها ستزلّ في السماط؛ كانت خائفة من أنها قد تتعثّر في الجرو؛ بينما تركضان في الحديقة فلا شيء غير الحشائش التي تبدو سوداء في الظلمة، وثيودورا، ما تزال تصرخ، سحقت حشائشًا تتخلّلها زهور، تعثرت بصخرة نصف مدفونة وما يبدو

أنه فنجان مكسور وانتحبت. ثم ضربتا وخمشتا جدارًا حجريًا أبيضًا بهياج، جدار تنمو عليه الكرمة سوداء. ما زالتا تصرخان وتتضرعان لتخرجا، حتى فتحت بوابة حديدية صدئة دربًا لهن فركضتا تبكيان وتشهقان وتقبض إحداهن على يد الأخرى، ذرعتا حديقة مطبخ منزل التلّ، ارتطمتا في باب خلفي يؤدي إلى المطبخ فوجدتا لوك والدكتور وقد هرعا إليهن. "ماذا حدث؟" قال لوك، ممسكًا بثيودورا. "هل أنتن بخير؟"

"كدنا نجن،" قال الدكتور، منهكًا. "لقد خرجنا بحثًا عنكن منذ ساعات."

"لقد كانت نزهة،" قالت إلينور. ارتمت على أحد مقاعد المطبخ وأطرقت النظر إلى يديها، فألفتها مشمخةً نازفةً وترتجف لاإراديًا. "حاولنا الفرار،" أخبرتهما، مادةً يديها إليهما ليريا. "كانت نزهة. الأطفال...."

ضحكت ثيودورا ضحكةً تخلّلت بكاءً مستمرًا، تضحك وتضحك بوهن، وتقول عبر ضحكها: "لقد نظرت إلى الخلف – لقد نظرت خلفنا..." واستمرت في الضحك.

"الأطفال... والجرو...."

"إلينور." استدارت ثيودورا بهياج ووضعت رأسها أمام إلينور. "إلينور،" قالت. "إلينور."

ثم ممسكة بثيودورا، نظرت إلينور إلى لوك والدكتور، شعرت بالحجرة تتزلزل بجنون، والوقت، كما عرفته دائمًا، قد توقف.

الفصل السابع

(1)

في ظهيرة اليوم المتوقع وصول السيدة مونتاغيو خلاله، خرجت إلينور بمفردها إلى التلال المحيطة بمنزل التلّ، دون وجهةٍ تنوي الذهاب إليها، كما لم تهتم حتى إلى أين تذهب وكيف، أرادت فقط أن تنعزل وتبتعد من تحت خشب المنزل الثقيل الكئيب. وجدت بقعة صغيرة حيث العشب ناعم وجاف، فتمددت، تفكّر في عدد السنين التي مضت منذ آخر مرة استلقت فيها على عشب ناعم لتنفرد وتفكّر. حولها الأشجار والأزهار البرّيّة، شعرت بانطباع مهيب غريب، انطباع تمنحه كائنات حيّة قوطعت مهمّتها في الوجود فجأة، فباتت تحتضر، التفتت إليها بانتباه، مع أنها متبلدة ولا تدرك شيئًا كما كانت إلينور آنذاك، ما يزال لزامًا على الأشجار والأزهار البريّة أن تبقى لبقة تجاه مخلوق منعه سوء حظه من التجذّر في الأرض، مخلوق مجبر على الرحيل من مكان لآخر، مُجبر على تنقل يدمي القلب. قطفت بعشوائية أقحوانة بريّة، ماتت بين أصابعها، حدّقت في وجهها الميت مستلقيةً على العشب. لم يكن في ذهنها شيء سوى سعادة صاخبة مرهقة. نظرت إلى الأقحوان، وتساءلت، مبتسمة لنفسها، ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟

(2)

"ضع الأمتعة في الردهة، آرثر،" قالت السيدة مونتاغيو. "ألا تظن أن

هنالك أحدٌ هنا ليعيننا على هذا الباب؟ يتعيّن عليهم أن يرسلوا أحدًا ليأخذ الأمتعة إلى الأعلى. جون؟ جون؟"

"عزيزتي، عزيزتي." هرع د. مونتاغيو قاطعًا الممر، حاملًا منديله، قبّل زوجته طواعية على خدها الذي أبدته له.

"ما أجمل حضوركِ، كدنا نيأس."

"قلت إنني سأكون هنا اليوم، أليس كذلك؟ هل عهدت عني قط أني لا آتي عندما أقول إنني سآتي؟ أحضرت آرثر."

"آرثر،" قال الدكتور دون حماس.

"حسنًا، كنت بحاجة إلى أحد ليقود السيارة بي،" قالت السيدة مونتاغيو. "أظن أنك قد توقعت أنني سأقود بمفردي كل ذاك الطريق إلى هنا؟ لكن تدرك تمامًا أنني أتعب. كيف حالك؟"

استدار الدكتور، مبتسمًا لإلينور وثيودورا، ولوك خلفهن، مجتمعون بارتباك عند المدخل. "عزيزتي،" قال، "هؤلاء أصدقائي الذين أقاموا معي في منزل التلّ في الأيام القليلة الماضية. ثيودورا. إلينور ڤانس. لوك ساندرسن."

تمتمت ثيودورا وإلينور ولوك مرحبين، أومأت السيدة مونتاغيو وقالت: "أرى أنكم لم تكلّفوا أنفسكم وتنتظرونا للعشاء."

"يئسنا من قدومكِ،" قال الدكتور.

"متيقنة من أنني قد قلت لك بأنني سأكون هنا اليوم. بالطبع، من الوارد جدًا أنني مخطئة، لكن أتذكر أنني قلت سأكون هنا اليوم. متأكدة من أنني سأتعرف على أسمائكم قريبًا جدًا. هذا السيد يدعى آرثر پاركر؛ قاد السيارة بي إلى هنا لأنني لا أحب القيادة بنفسي. آرثر، هؤلاء أصدقاء جون. هل

يمكن أن يفعل أحدكم شيئًا بشأن أمتعتنا؟"

سار الدكتور ولوك، متمتمان، وسارت السيدة مونتاغيو، "سأقيم في الغرفة المسكونة بما يفوق البقيّة، بالطبع. يمكن لآرثر أن يقيم في أي مكان. هذه الحقيبة الزرقاء حقيبتي، أيها الشاب، والحقيبة الصغيرة؛ ستذهبان إلى أكثر غرفة مسكونة."

"الحضانة، على ما أظن،" قال د. مونتاغيو حين نظر إليه لوك مستفسرًا. "أؤمن أن الحضانة إحدى مصادر الاضطراب،" أخبر زوجته، وتنهد مستاءً.

"يبدو لي أن بمقدورك أن تكون منهجيًا أكثر،" قالت. "أنت هنا منذ أسبوع تقريبًا وأظن أنك لم تفعل شيئًا مع البلانشيت؟ الكتابة الآليّة؟ أليس لدى أي واحدة من هاتين المرأتين موهبة متوسطة؟ هذه حقائب آرثر هنا. أحضر مضارب الغولف، في حال احتاجها."

"في حال احتاجها لماذا؟" سألت ثيودورا اعتباطًا، حدجتها السيدة مونتاغيو ببرود.

"من فضلكم، واصلوا عشاءكم،" قالت أخيرًا.

"توجد رقعة باردة محدودة عند باب الحضانة تمامًا،" قال الدكتور لزوجته مشجّعًا.

"نعم، عزيزي، جيد جدًا. ألن يأخذ هذا الشاب حقيبة آرثر إلى الأعلى؟ يبدو أنك مشوش كثيرًا هنا، أليس كذلك؟ بعد أسبوع تقريبًا كنت متأكدة من أن لديك أفكار مرتبة بشكلٍ ما. هل من شيء تجسّد؟"

"لقد كانت هنالك ظواهر محدّدة..."

"حسنًا، أنا هنا الآن، ستصبح الأمور على ما يرام. أين يركن آرثر

السيّارة؟"

"توجد مساحة فارغة خلف المنزل حيث ركنّا سيّاراتنا. يمكنه أن يأخذها صباحًا."

"هراء. لا أحب تأجيل الأشياء، جون، كما تعلم جيدًا. لدى آرثر الكثير ليفعله صباحًا دون أن يضاف إليه عمل الليلة. عليه أن يحرّك السيّارة حالًا."

"قد حلّ الظلام في الخارج،" قال الدكتور متردّدًا.

"جون، فاجأتني. هل تعتقد أنني لا أعرف إذا ما كان ظلامًا في الخارج أثناء الليل؟ للسيارة مصابيح، جون، يمكن لهذا الشاب أن يذهب مع آرثر ليدله الطريق."

"شكرًا،" قال لوك عابسًا، "لكن لدينا سياسة مشدّدة ضد الخروج بعد الظلام. يمكن لآرثر بالطبع، إذا كان مهتمًا، لكنني لن أفعل."

"بسبب الشّابتين،" قال الدكتور، "واجهتا أمرًا صادمًا..."

"الشاب جبان،" قال آرثر. سحب حقيبته وحقيبة الغولف والسلة من السيارة، ووقف الآن بجانب السيدة مونتاغيو، ينظر إلى لوك؛ وجه آرثر أحمر وشعره أبيض، الآن، محتقرًا لوك، تحدّث بعدائية. "يجب عليك أن تشعر بالخزي من نفسك، أيّها الرفيق، أمام النساء."

"النساء خائفات بقدري على الأقل،" قال لوك بصرامة.

"بالطبع، بالطبع." وضع د. مونتاغيو يده على ذراع آرثر مهدئًا، "بعد أن تقضي وقتًا هنا، آرثر، ستدرك أن تصرف لوك منطقي، ليس تصرفًا جبانًا. نحن قد اتفقنا على البقاء معًا بعد حلول الظلام."

"لا بدّ أن أقول، جون، لم أتوقع أبدًا أن أجدكم متوترين جميعًا،" قالت

السيدة مونتاغيو. "أرفض الخوف في مثل هذه المسائل." خبطت قدمها على الأرض بامتعاض. "تعلم جيدًا، جون، أن أولئك الذين انتقلوا إلى العالم الآخر يتوقعون رؤيتنا سعداء ومبتسمين؛ يريدون أن يتأكدوا من أننا نفكر فيهم بحب. الأرواح التي تقطن في هذا المنزل قد تعاني في الواقع لأنها تدرك أنكم خائفون منها."

"يمكننا التحدث بهذا الشأن لاحقًا،" قال الدكتور قلقًا. "الآن، ماذا عن العشاء؟"

"بالطبع." نظرت السيدة مونتاغيو إلى ثيودورا وإلينور. "نأسف لأننا قاطعناكم،" قالت.

"هل تناولتم العشاء؟"

"بطبيعة الحال لم نتناول العشاء، جون. فقد قلت إننا سنكون هنا وقت العشاء، ألم أقل ذلك؟ أم هل أنا مخطئة مجدّدًا؟"

"على أيّة حال، أخبرت السيدة دودلي أنكِ ستكونين هنا،" قال الدكتور فاتحًا الباب الذي يقود إلى حجرة الألعاب ومنها إلى حجرة الطعام. "لقد تركت لنا مائدة شهيّة."

د. مونتاغيو المسكين، هجست إلينور، متنحية لتتيح للدكتور أن يأخذ زوجته إلى حجرة الطعام؛ ليس مرتاحًا أبدًا؛ أتساءل كم ستظل هنا.

"أتساءل كم ستظل هنا؟" همست ثيودورا في إذن إلينور.

"ربّما أن حقيبتها مملوءة بجبلة خارجيّة[1]،" أجابت إلينور.

1- مادة لزجة يدعي المشتغلون باستحضار الأرواح أنها تنضح من جسد الوسيط أثناء إغمائه لتكوّن المادة التي تتجسد فيها الروح.

"ما المدة التي يمكنكِ بقاءها؟" سأل د. مونتاغيو، جالسًا على رأس مائدة الطعام وزوجته تكنّ بجانبه.

"حسنًا، عزيزي،" قالت السيدة مونتاغيو، تتذوق بعناية مرقة الكبر التي أعدتها السيدة دودلي. "- لقد وجدتم طاهية ماهرة، أليس كذلك؟ - تعلم أن على آرثر العودة إلى مدرسته؛ آرثر مدير مدرسة،" شرحت للبقية على المائدة، "وقد ألغى مواعيد يوم الاثنين تكرمًا، لهذا علينا أن نغادر ظهيرة يوم الاثنين ليستطيع آرثر أن يكون حاضرًا أثناء دروس يوم الثلاثاء."

"خلّف آرثر العديد من الطلاب الفرحين دون شك،" قال لوك بصوت خافت لثيودورا، قالت ثيودورا: "لكن اليوم السبت."

"لا بأس أبدًا بهذا الطعام،" قالت السيدة مونتاغيو. "جون، سأتحدث لطاهيتكم غدًا صباحًا."

"السيدة دودلي سيدة ودودة،" قال الدكتور بحذر.

"يبدو فاخرًا بالنسبة لذوقي،" قال آرثر. "أنا رجلٌ معتاد على البطاطس واللحم، أنا نفسي،" شارحًا لثيودورا، "لا أشرب، لا أدخّن، لا أقرأ تفاهات. كي لا أكون مثلًا سيئًا للصبية في المدرسة. فهم يتوقون إلى امرئ ليكون قدوتهم، كما تعلمين."

"متأكدة من أنهم جميعهم يتأسّون بك،" قالت ثيودورا برصانة.

"التقي وغدًا من وقتٍ لآخر،" قال آرثر، هازًا رأسه. "لا مزاج لديهم للرياضة، كما تعلمين. متسكعون في زوايا الشوارع. شكاؤون. لكن تتبدّل صفاتهم هذه بسرعة." مد يده للزبدة.

مالت السيدة مونتاغيو إلى الأمام لتنظر عبر المائدة إلى آرثر. "كلِ بتأنٍ، آرثر،" نصحته. "تنتظرنا ليلة مزدحمة."

"بحق السماء ماذا تخططين أن تفعلي؟" سأل الدكتور.

"متأكدة من أنك لم تنو قط أن تتعاطى مع مثل هذه الأشياء بأي نظام، لكن عليك أن تعترف، جون، أنني أمتلك في هذا الحقل أكثر من مجرد الإدراك الفطري الذي تمتلكه النساء، كما تعلم، جون، على الأقل بعض النسوة." صمتت ونظرت إلى إلينور وثيودورا بتأمل. "ولا واحدة منهن، أجرؤ على قول هذا. إلا إذا كنت بالطبع مخطئة مرة أخرى؟ أنت شغوف بالإشارة إلى أخطائي، جون."

"عزيزتي"

"لا يمكن أن أقبل بعمل مهمل في أي شيء. آرثر سيعسّ، بالطبع. لقد جلبت آرثر لهذا الغرض. من النادر،" شرحت للوك، الذي يجلس في جنبها الآخر، "أن تعثر على شخص في الحقل التعليمي مهتم بالعالم الآخر؛ سيفاجئك أن آرثر مطلع بشكل جيد. سأستلقي في غرفتكم المسكونة بشمعة تحترق وحسب، وسأبذل قصارى جهدي لأتواصل مع العناصر التي تقلق راحة هذا المنزل. لا أنام قط حينما تكون حولي أرواح معذبة،" أخبرت لوك، الذي أومأ مؤيدًا، دون كلام.

"يبدو منطقيًا قليلًا،" قال آرثر. "تعرفت إلى هذه الأشياء بطريقة صحيحة. لن تكسب أبدًا حين تهدف للقليل. علّمت الصبية هذا."

"ربما بعد العشاء ستكون لدينا جولة بلانشيت،" قالت السيدة مونتاغيو.

"فقط أنا وآرثر، بالطبع؛ أما بقيتكم، فأرى أنكم لستم مستعدين بعد؛ ستطردون الأرواح وحسب. سنحتاج حجرة هادئة."

"المكتبة،" اقترح لوك بأدب.

"المكتبة؟ أظنها مناسبة، الكتب عادةً ناقلات جيدة جدًا، كما تعلمون.

التجسيد غالبًا يُنتج أفضل في الحجرات التي تحتوي كتبًا. لا أتذكر وقتًا كان التجسيد فيه، بأي شكل، مثبطًا لوجود الكتب. أظن أن المكتبة مغبّرة؟ آرثر يعطس أحيانًا."

"تبقي السيدة دودلي المنزل برمته في ترتيب رائع،" قال الدكتور.

"سأتحدث حقًا إلى السيدة دودلي في الصباح. سترينا المكتبة إذًا، جون، وهذا الشاب سيحضر حقيبتي؛ ليست الحقيبة الكبيرة، انتبه، لكن الصغيرة. أحضرها لي في المكتبة. سننضم إليكم لاحقًا، بعد جولة البلانشيت، أحتاج إلى كأس من الحليب وربما كعكة صغيرة؛ وجبة كراكر ستكون جيدة إذا لم تكن كثيرة الملح. بضع دقائق من الحديث مع أشخاص مشابهين لي يساعد كثيرًا أيضًا، خاصةً إذا كنت أتوقع شيئًا خلال الليل؛ الذهن أداة دقيقة ولا يمكن أن يوجّه بدقّة. آرثر؟" انحنت عن بعد لإلينور وثيودورا ومضت، يرافقها آرثر، ولوك وزوجها.

بعد برهة قالت ثيودورا: "أظن أنني سأعشق السيدة مونتاغيو."

"لا أعلم،" قالت إلينور. "آرثر أقرب إلى ذوقي. ولوك جبان، على ما أظن."

"لوك المسكين،" قالت ثيودورا. "لم يحظ قط بأم،" رفعت إلينور بصرها فوجدت أن ثيودورا تنظر إليها بابتسامة فضولية، ابتعدت عن الطاولة بسرعة فانسكب الكأس.

"لا يجدر بنا أن نبقى بمفردنا،" قالت، بنفسٍ منقطع. "علينا أن نعثر على الآخرين." غادرت المائدة وركضت خارج الحجرة، ركضت ثيودورا خلفها، ضاحكةً، عبر الممر إلى الصالون الصغير، حيث يقف لوك والدكتور أمام النار.

”من فضلك، سيدي“ كان لوك يقول بوداعة، ”من هو بلانشيت؟“

تنهّد الدكتور بانزعاج. ”أبله،“ قال، ثم أضاف، ”آسف. الفكرة برمتها تزعجني، لكن إذا أردت هذا...“

استدار وأذكى النار بغضب. ”البلانشيت،“ أكمل بعد دقيقة، ”هي أداة مشابهة للوح الويجا، أو ربما يمكنني أن أشرحها بشكلٍ أفضل إذ أقول إنها نوع من الكتابة الآليّة؛ طريقة للتواصل مع - آه - الكائنات الشبحية، مع هذا في رأيي أن الكائنات الشبحية الوحيدة التي تواصل أحد معها بأحد هذه الأشياء هي خيالات الناس التي تشغلها. نعم. حسنًا. البلانشيت قطعة صغيرة من الخشب الرفيع، غالبًا مثلثة أو قلبية الشكل. يوضع قلم رصاص في الطرف الضيق، وفي الطرف الآخر زوج من العجلات، أو أقدام تنساب بسهولة على الورق. يضع شخصان أصابعهما عليها، ويسألانها أسئلة، يتحرك الجسم، لن نناقش القوة التي تدفعه، ويكتب إجابات. لوح الويجا، كما أسلفت، مشابه لها جدًا، باستثناء أن الجسم يتحرك على لوح مشيرًا إلى الحروف متفرقة. كأس خمر عادي يمكنه أن يفعل هذا؛ لقد رأيتها تعمل بدمية طفل مدولبة، مع هذا أعترف أنها بدت سخيفة. كل شخص يستخدم أنامل يد واحدة، مبقيًا يده الأخرى شاغرة ليكتب الأسئلة والإجابات. الأجوبة دائمًا، على ما أعتقد، دون معنى، رغم أن زوجتي ستخبرك بخلاف هذا. كلام فارغ.“ وعاد إلى النار مجدّدًا. ”خرافة فتيات مدرسة،“ قال.

(3)

”كانت البلانشيت لطيفةً جدًا هذه الليلة،“ قالت السيدة مونتاغيو. ”جون، عناصر غريبة تمامًا تظهر في هذا المنزل.“

"جلسة رائعة تمامًا، حقًا." قال آرثر. لوّح بحزمة أوراق منتصرًا.

"لدينا كمية معلومات كافية لك،" قالت السيدة مونتاغيو. "كانت البلانشيت مصرة بشأن راهبةٍ ما. هل تعرف شيئًا عن راهبة، جون؟"

"في منزل التلّ؟ لا أظن."

"كانت البلانشيت واثقة بأمر الراهبة، جون. ربّما شيء من هذا النوع - طيف أسود، ضبابي، حتى - قد شوهد في الجوار؟ أرعب القرويين حين زاروا المنزل ليلًا؟"

"طيف الراهبة شائع جدًا..."

"جون، من فضلك. أعتقد أنك تلمح إلى أنني مخطئة. أو ربما أنها عادتك لتقول لنا بأن البلانشيت قد تكون مخطئة؟ أؤكد لك- عليك أن تصدق البلانشيت حتى لو لم تقنعك كلماتي- قد ذُكرت راهبة بالتحديد."

"أنا فقط أحاول أن أقول، عزيزتي، أن طيف راهبة أكثر أنواع الأطياف شيوعًا. لم يرتبط شيء كهذا قط بمنزل التلّ، لكن تقريبًا في كل..."

"جون، من فضلك. أظن أن بإمكاني أن أكمل؟ أم أن البلانشيت ستُرفض دون استماع؟ أشكرك." تمالكت السيدة مونتاغيو نفسها.

"حسنًا. يوجد أيضًا اسم، بتهجئات مختلفة؛ هيلين، أو هيلينا، أو إلينا. من يمكن أن تكون؟"

"عزيزتي، قد عاش الكثير من الناس..."

"حذرتنا هيلين من راهب غامض. وحين يظهر راهب وراهبة في منزل واحد معًا..."

"فتوقع أن المكان قد بني على موقع أقدم،" قال آرثر. "التأثيرات تتضح،

كما تعلمون. التأثيرات القديمة تطوف،" شرح بشكل أكثر وضوحًا.

"تبدو مشابهة للعهود المحنوث بها، أليس كذلك؟ كثيرًا."

"لديهم الكثير من هذا حينها، تعلمون. الإغواءات، على الأرجح."

"لا أعتقد أن..." بدأ الدكتور.

"أراهن بأنها حصرت بين جدران دون منفذ، حيّة[1]،" قالت السيدة مونتاغيو. "الراهبة، أعني. دائمًا يفعلون هذا، كما تعلم. ليست لديك فكرة عن الرسائل التي تلقيتها من راهبات حوصرن بجدران مغلقة حيّات."

"لا توجد حالة مسجلة قط لراهبة قد..."

"جون. هل يجب أن أقول لك مرة أخرى أنني أنا بنفسي قد تلقيت رسائل من راهبات قد حصرن حيّات؟ هل تعتقد أنني أخبرك كذبة، جون؟ أم تظن أن راهبة ستدّعي عمدًا أنها قد حوصرت حية وهي تكذب؟ هل يعقل أن أكون مخطئة مرة أخرى، جون؟"

"قطعًا لا، عزيزتي." تنهد د. مونتاغيو قلقًا.

"بشمعة واحدة وكسرة خبز جاف،" أخبر آرثر ثيودورا. "أمر مريع حين تفكر به."

"لم تحصر راهبة قط،" قال الدكتور ممتعضًا. رفع صوته قليلًا. "إنها أسطورة. قصة. افتراء متداول..."

"حسنًا، جون. لن نتشاجر من أجل هذا. يمكنك أن تصدق ما تريد. فقط افهم، على أية حال، أنه في بعض الأحيان الرؤى المادية المحضة لا بد

---

1 - عقاب شاع أنه ينفّذ على الراهبات والرهبان، حيث يحاطون بجدران دون باب أو نافذة أو منفذ في السقف، ليموتوا من الجوع والعطش.

أن تمهّد للحقائق. والآن فحقيقة مثبتة أن واحدة من المحن التي حلّت بهذا المنزل كانت محنة راهبة و...“

”ما كان هناك أيضًا؟“ سأل لوك مترددًا. ”أنا مهتم بسماع ما... آهـ... قالته البلانشيت.“

هزت السيدة مونتاغيو إصبعها هازئةً. ”لا شيء عنك، أيّها الشاب. مع هذا إحدى السيدتين الحاضرتين قد تسمع ما يهمها.“

امرأة فظيعة، قالت إلينور؛ فظيعة، بذيئة، امرأة متسلطة. ”هيلين،“ أكملت السيدة مونتاغيو، ”تريد منّا أن نبحث في القبو عن بئر قديمة.“

”لا تقولي لي بأن هيلين دفنت حيّة،“ قال الدكتور.

”لا أظن هذا، جون. متأكدة من أنها ستذكر هذا لو أن هذا ما حدث. في الحقيقة، لم تكن هيلين واضحة حول ما سنجده في البئر. أشك، على أي حال، أنه سيكون كنزًا. كنز يشبه كنزًا حقيقيًا في حال كهذه. على الأرجح دليل متعلق بالراهبة المفقودة.“

”على الأرجح قمامة لها ثمانين عامًا.“

”جون، لا أستطيع أن أفهم تشكّكك هذا، أنت من بين كل الناس! في المحصلة، جئت لهذا المنزل حتى تجمع أدلة نشاط ماورائي، والآن، حينما أجلب لك اعترافًا بالأسباب، تلميحًا إلى مكانٍ نبدأ البحث منه، تتهكم بكل وضوح.“

”ليست لدينا صلاحية بحفر القبو.“

”آرثر يستطيع..“ شرعت السيدة مونتاغيو متحمسة، لكن الدكتور قال بصرامة ”لا، استئجاري للمنزل ينص على عدم العبث بالمنزل. لن يكون

هنالك حفر في الأقبية، لا اقتلاع للنجيرة، لا إزالة لألواح الأرضية. ما يزال منزل التلّ عقارًا قيّمًا، ونحن باحثون، لسنا مخرّبين."

"حسبت أنك تود معرفة الحقيقة، جون."

"ليس هناك ما أود معرفته أكثر من الحقيقة." خبط د. مونتاغيو قدميه، ذرع الحجرة إلى لوح الشطرنج وأخذ الفرس ورمقه بغضب. بدا كأنه يعد عابسًا حتى المائة.

"يا إلهي، كم يحتاج المرء ليكون صبورًا بعض الأحيان." تنهدت السيدة مونتاغيو. "لكنني أريد أن أقرأ الرسائل التي استقبلناها حتى النهاية. آرثر، هل هي معك؟"

قلّب آرثر في حزمة أوراقه. "إنها بعد الرسالة التي تحثّك على إرسال أزهار إلى عمتك، مباشرة،" قالت السيدة مونتاغيو. "للبلانشيت قائدة تدعى ميرغوت،" شرحت، "ولدى ميرغوت اهتمام شخصي أصيل بآرثر، تجلب له كلمات من الأقارب وما شابه."

"ليس مرضًا عضالًا، تفهمين هذا،" قال آرثر بوقار. "يجب أن أرسل أزهارًا بالطبع، لكن ميرغوت الأكثر موثوقية."

"فلنرَ." اختارت السيدة مونتاغيو عدة أوراق، وقلبتها سريعًا؛ كانت مغطاة بكلمات متناثرة مكتوبة بالرصاص، عبست السيدة مونتاغيو، وهي تقلب الصفحات بإصبعها. "هنا،" قالت. "آرثر أنت تقرأ الأسئلة وأنا سأقرأ الأجوبة، هكذا سيبدو طبيعيًا أكثر."

"لنبدأ" قال آرثر بحماسة، مائلًا على كتف السيدة منتاغيو. "الآن- لأرى- نبدأ من هنا؟"

"نبدأ مِن (مَن أنت؟)"

"حسنًا. من أنت؟"

"نيل،" قرأت السيدة مونتاغيو بصوتها الحاد، استدارت إلينور وثيودورا ولوك والدكتور، منصتون.

"نيل من؟"

"إلينور نيلي نيل نيل. يفعلون هذا أحيانًا،" توقفت السيدة مونتاغيو لتشرح. "يكررون كلمة مرة بعد مرة ليتأكدوا من أنها وصلت صحيحة."

تنحنح آرثر ثم قرأ: "ماذا تريدين؟"

"بيتي."

"هل تريدين الذهاب إلى البيت؟" هزت ثيودورا كتفيها ساخرة لإلينور.

"أريد أن أكون في البيت."

"ماذا تفعلين هنا؟"

"أنتظر."

"تنتظرين ماذا؟"

"البيت." توقف آرثر وأومأ مؤكدًا. "ها هي مجدّدًا،" قال. "أعجبتها المفردة، فاستخدمتها مرة بعد مرة، فقط من أجل إيقاعها."

"عادة لا نسأل لماذا،" قالت السيدة مونتاغيو، لأن هذا يشوّش البلانشيت. على أية حال، هذه المرة كنا ملحين، تجرأنا وسألنا. "آرثر؟"

"لماذا؟" قرأ آرثر.

"والدتي،" قرأت السيدة مونتاغيو. "إذًا كما ترون، كنا محقين عندما سألنا هذه المرة، لأن البلانشيت لم تمتنع عن الإجابة."

"هل منزل التلّ بيتكِ؟" قرأ آرثر برزانة.

"البيت،" أجابت السيدة مونتاغيو، فتنهد الدكتور.

"هل تعانين؟" قرأ آرثر.

"لا إجابة هنا،" أومأت السيدة مونتاغيو مؤكدة. "لا تفضل أحيانًا الاعتراف بالألم؛ كي لا تخيفنا نحن الباقون خلفها. مثل عمة آرثر تمامًا، على سبيل المثال، لن تخبرنا قط بأنها مريضة، لكن ميرغوت دائمًا تخبرنا، حتى إنه أسوأ حينما ينتقلون."

"صبورون،" صرح آرثر، وقرأ "هل نستطيع مساعدتكِ؟"

"لا،" قرأت السيدة مونتاغيو.

"هل يمكننا أن نفعل شيئًا من أجلكِ؟"

"لا. ضائعة. ضائعة. ضائعة." نظرت السيدة مونتاغيو إلى الأعلى. "ترون؟" سألت. "كلمة واحدة، مرة بعد مرة. يحبون أن يكرروا أنفسهم. يحصل أن تظهر عندي مفردة متكررة لتغطي صفحة كاملة في بعض الأحيان."

"ماذا تريدين؟" سأل آرثر.

"والدتي،" قرأت السيدة مونتاغيو.

"لم؟"

"طفلة."

"أين والدتكِ؟"

"في البيت."

"أين بيتكِ؟"

"ضائعة. ضائعة. ضائعة. وبعد هذا،" قالت السيدة مونتاغيو، ضامة أوراقها بسرعة، "لا شيء سوى الخربشات."

"لم أعهد البلانشيت بهذا التعاون،" قال آرثر بثقة لثيودورا. "يا لها من تجربة حقًا."

"لكن لم اختارت نيل؟" سألت ثيودورا بانزعاج. "بلانشيتكم الحمقاء لا يحق لها أن ترسل رسائلًا للناس دون إذن أو.."

"لن تحصلي على نتيجة قط بإهانة البلانشيت،" قال آرثر، لكن السيدة مونتاغيو قاطعته، مستديرة لتنظر إلى إلينور. "أنتِ نيل؟" استفسرت، ثم التفتت إلى ثيودورا. "ظننّا أنكِ نيل،" قالت.

"ومن ثم؟" سألت ثيودورا باستهتار.

"هذا لا يؤثر في الرسالة، بالطبع،" قالت السيدة مونتاغيو وهي تطرق أوراقها بانزعاج، "مع هذا، أظن أننا عُرِّفنا معرفة جيدة. متأكدة من أن البلانشيت تعرف الفرق بينكن، لكنني شخصيًا لا أحب أبدًا أن أُضلل."

"لا تشعري أنكِ مهملة،" قال لوك لثيودورا. "سندفنكِ حيّة."

"حين أتلقى رسالة من هذا الشيء،" قالت ثيودورا، "أتوقع أن تكون عن كنز مدفون. لا شيء من هذا الهراء المتعلق بإرسال أزهار لعمتي."

جميعهم يتجنبون النظر إلي، فكرت إلينور؛ لقد عزلت مجدّدًا، لطيفون بما يكفي ليتظاهروا بأن شيئًا لم يحدث؛ "لم تعتقدون جميعكم بأنها أرسلت إلي؟" سألت، عاجزة.

"حقًا، أيّتها الطفلة،" قالت السيدة مونتاغيو، ضاربة بالأوراق على

الطاولة الخفيضة، "لا أستطيع أن أقول. كما أنكِ أكبر من أن تكوني طفلة، أليس كذلك؟ ربما أنتِ مستعدة نفسيًا أكثر مما تدركين، مع هذا،" واستدارت دون مبالاة، "كيف يمكن أن تقضي أسبوعًا في هذا المنزل دون أن تلتقطي أبسط رسالة من العالم الآخر... تلك النار بحاجة إلى أن تذكى."

"نيل لا تريد رسائلًا من العالم الآخر،" قالت ثيودورا مهدئةً، آخذة بيد إلينور الباردة. "نيل تريد سريرها الدافئ وبعض النوم."

السلام، فكرت إلينور بجدية؛ السلام هو ما أريده من كل هذا العالم، بقعة هادئة أسترخي فيها وأفكر، بقعة هادئة بين الزهور حيث يمكنني أن أحلم وأقص لنفسي حكايا جميلة.

(4)

قال آرثر بتهذيب: "أنا سأقيم في الغرفة الصغيرة في هذا الجانب من الحضانة، على بعد صرخة. معي مسدس- لا تذعرن يا سيّدات، أنا مصوّب ممتاز- وكشّاف، بالإضافة إلى صفارة عالية. يجب ألا أواجه صعوبة في استدعائكم في حال لاحظت شيئًا يستحق ملاحظتكم، أو عندما أحتاج إلى.. آهـ... الرفقة. يمكنكم أن تنعموا بنوم هادئ، أضمن لكم هذا."

"آرثر،" شرحت السيدة مونتاغيو، "سيعسّ المنزل. كل ساعة، بشكل مستمر، سيأخذ جولة حول غرف الطابق الأعلى؛ أعتقد أنه غير مضطر لينشغل بحجرات الطابق السفلي الليلة، إذ إنني في الأعلى هنا. لقد فعلنا هذا من قبل، عدة مرات. تعالوا، جميعكم." تبعوها بصمت على الدرج، مشاهدين لمساتها الحنونة للدرابزين والنقوش على الجدران. "يا لها من نعمة،" قالت حينها، "أن تعلم أن الكائنات في هذا المنزل تنتظر فرصة لتقص حكاياتها، وتحرر نفسها من الدفن تحت بؤسها. الآن، في البدء سيتفحص

آرثر غرف النوم. آرثر؟"

"المعذرة يا سيدات، المعذرة،" قال آرثر فاتحًا باب الغرفة الزرقاء، التي تتشاركها إلينور وثيودورا. "مكان أنيق،" قال بفخامة، "تليق بشابتين فاتنتين مثلكن؛ يجدر بي، لو أردتن، أن أكفيكن عناء النظر في الدولاب وتحت السرير." نظروا إلى آرثر وهو ينحني على يديه وقدميه لينظر تحت السرير ثم ينهض، نافضًا الغبار من يديه، "آمن تمامًا." قال.

"الآن أين يجب أن أذهب؟" سألت السيدة مونتاغيو.

"أين وضع ذلك الشاب حقائبي؟"

"اتجهي لآخر الردهة مباشرة،" قال الدكتور، "ندعوها الحضانة."

ذرعت السيدة مونتاغيو الردهة، متيقظة، يتبعها آرثر، عبرت البقعة الباردة فيها وارتجفت. "سأحتاج إلى لحف أكثر بالتأكيد،" قالت. "قل لذلك الشاب أن يجلب لحفًا زائدة من الغرف الأخرى." فاتحة باب الحضانة، أومأت وقالت "يبدو السرير نظيفًا تمامًا، لا بد من الاعتراف، لكن هل هويّت الغرفة؟"

"أخبرت السيدة دودلي،" قال الدكتور.

"رائحة رطوبة. آرثر، هلّا فتحت النافذة، يجب أن تفتح النافذة رغم البرد."

أطرقت الحيوانات على جدار الحضانة إلى السيدة مونتاغيو بجمود. "هل أنتِ متأكدة..." تردد الدكتور، ونظر بتوتر إلى الوجوه الباسمة على باب الحضانة. "أتساءل هل يجب أن يرافقكِ أحد هنا،" قال.

"عزيزي،" السيدة مونتاغيو، بحس فكاهة جيد الآن في حضور من انتقلوا إلى العالم الآخر، كانت مرحة. "ما أكثر الساعات، ما أكثرها، التي

أمضيتها بحب خالص وتفهّم، بمفردي في حجرة لكنني لست وحدي. عزيزي، كيف أقنعك أن لا خطر حيث لا شيء سوى الحب والتفهم الكافي؟ أنا هنا لأساعد تلك الكائنات التعيسة - أنا هنا لأمد يد الحنان الصادق، ولأدعهم يعرفون أن أحدًا ما يزال يتذكر، أن أحدًا سيسمعهم وينتحب من أجلهم؛ انتهت وحدتهم، وأنا...."

"نعم،" قال الدكتور، "لكن دعي الباب مفتوحًا."

"غير موصد، إذا كنت مصرًا." كانت السيدة مونتاغيو متسامحة كثيرًا.

"سأكون في آخر الردهة،" قال الدكتور. "لا يمكنني أن أعس، إذ إن هذه مهمة آرثر، لكن إذا احتجتِ إلى شيء فأستطيع سماعكِ."

ضحكت السيدة مونتاغيو ولوحت له بيدها. "يحتاج أولئك الآخرون إلى حمايتك أكثر مني،" قالت. "سأفعل ما أستطيع، بالطبع. لكنهم ليسوا محصّنين، بقلوبهم القاسية وعيونهم التي لا تبصر."

آرثر، متبوعًا بنظرة لوك الساخرة، عاد من تفحص غرف النوم الأخرى في الطابق، أومأ للدكتور بسرعة. "كلها نظيفة،" قال. "آمنة تمامًا لتذهبوا إلى أسرتكم الآن."

"شكرًا لك،" قال الدكتور له ثم قال لزوجته، "ليلة طيبة، كوني حذرة."

"ليلة طيّبة،" قالت السيدة مونتاغيو وابتسمت لهم جميعًا. "من فضلكم لا تخافوا،" قالت. "لا يهم ما يحدث، تذكروا أنني هنا."

"ليلة طيّبة،" قالت ثيودورا، و"ليلة طيّبة،" قال لوك، وآرثر خلفهم يؤكد لهم أن بإمكانهم أن يرتاحوا بهدوء، وألا يقلقوا إذا سمعوا طلق نار، وأنه سيبدأ عسته الأولى في منتصف الليل. ذهبت إلينور وثيودورا إلى غرفتهن، ولوك إلى غرفته. بعد برهة، استدار الدكتور مترددًا وابتعد عن باب زوجته المغلق، تبعهم.

"توقّفي،" قالت ثيودورا لإلينور، حينما دخلتا غرفتهن. "قال لوك بأنهما يريداننا في آخر الردهة؛ لا تخلعي ملابسكِ وابقي هادئة." فتحت الباب قليلًا وهمست دون أن تلتفت: "أقسم بأن العجوز ستنسف المنزل بشؤون الحب تلك؛ إن كنت قد رأيت مكانًا قط لا مكان فيه للحب أبدًا، فهو منزل التلّ. الآن، أغلق آرثر بابه. أسرعي. كوني هادئة."

بصمت، دون أن تصدرا صوتًا على سجاد الردهة، حثتا الخطى بأقدامهن المجوربة إلى غرفة الدكتور. "أسرعا،" قال الدكتور، فاتحًا الباب بما يكفي لعبورهن، "كونا هادئتين."

"المكان ليس آمنًا،" قال لوك، رادًا الباب، ثم جلس على الأرضية، "سيطلق ذلك الرجل النار على أحد."

"لا يعجبني الأمر،" قال الدكتور قلقًا، "سنظل أنا ولوك يقظين ونراقب، وأريد منكن البقاء هنا حيث يمكننا أن نبقي أعيننا عليكن. شيءٌ ما سيحدث،" قال. "لا يعجبني الوضع."

"آمل فقط ألّا تفعل شيئًا مجنونًا بالبلانشيت،" قالت ثيودورا. "آسفة، دكتور مونتاغيو. لم أقصد أن أتحدث بفظاظة عن زوجتك."

ضحك الدكتور، لكن عينه ما زالت معلّقة بالباب. "في الأصل خططت أن تظل طيلة فترة إقامتنا،" قال، "لكنها التحقت بدروس يوغا ولم تستطع أن تفوّت مواعيدها. إنها سيدة ممتازة في نواحٍ عدة،" أضاف، متطلعًا إليهم بصدق. "إنها زوجة جيدة، وتعتني بي جيدًا. تنجز الأعمال باحترافية، حقًا، الأزرار في قمصاني." ابتسم متشجّعًا. "هذا،" وأشار باتجاه الردهة، "هذا فقط عيبها الوحيد في الواقع."

"ربّما تشعر أنها تعينك على عملك،" قالت إلينور.

عبس الدكتور، وارتجف؛ في هذه اللحظة تأرجح الباب مفتوحًا على

اتساعه ثم اصطفق بشدة منغلقًا، وفي صمت الخارج يمكنهم أن يسمعوا تحركات مندفعة حذرة، منتظمة جدًا، رياح قوية هبّت على طول الردهة. يحدق أحدهم الآخر، حاولوا أن يبتسموا، حاولوا أن يبدوا شجعانًا في غمرة البرد الذي لا يحتمل، القادم ببطء، ثم، مع عزيف الريح، سمعوا القرع على أبواب الطابق الأول. دون أن تنبس ببنت شفة، أخذت ثيودورا اللحاف من موضع الأقدام في سرير البروفيسور ولفّته حولها هي وإلينور، اقتربتا من بعضهن، ببطء حتى لا تصدران صوتًا. إلينور، ملتصقة بثيودورا، تشعر ببرد مميت، بالرغم من ذراعي ثيودورا حولها، هجست في معرفته اسمها، قالت لنفسها؛ هذه المرة يعرف اسمي. صعد القرع السلم، ضاربًا على كل عتبة. كان الدكتور متوترًا، واقفًا على الباب، تحرك لوك ليقف بجانبه. "بالقرب من الحضانة الآن،" قال للدكتور، اعترض بيده ليمنع الدكتور من فتح الباب.

"ما أشد توتّر المرء من هذا القرع المزمن،" قالت ثيودورا ساخرة. "في الصيف القادم لا بد أن أذهب إلى مكانٍ آخر."

"توجد عيوب في كل مكان،" أخبرها لوك. "في نواحي البحيرات يوجد البعوض."

"أيمكن أن نكون قد استنزفنا مخزون منزل التلّ؟" سألت ثيودورا، كان صوتها يرتجف بالرغم من نبرتها الهادئة. "يبدو أننا حضرنا عرض القرع هذا من قبل؛ هل سيكرر كل شيء مجدّدًا؟" دوّى الارتطام على طول الردهة، يبدو قادمًا من الطرف البعيد، من الحضانة، والدكتور، متمدّدًا على الباب، يهز رأسه بتوتّر. "يجب أن أذهب إلى هناك،" قال. "قد تكون مذعورة،" أخبرهم.

إلينور، يزلزلها القرع، الذي يبدو داخل رأسها بقدر ما هو خارجه في الردهة، متشبثةً بثيودورا، قالت، "يعلمون أين نحن،" أومأ البقية برؤوسهم واستمعوا معتقدين أنها تعني آرثر والسيدة مونتاغيو. القرع، حدّثت إلينور

نفسها، ضاغطة يديها على عينيها، مترنحة مع الضجيج، سيذرع الردهة، ثم يستدير ويعود مجدّدًا، سيستمر بذات الطريقة السابقة، ثم سيتوقف، سننظر إلى بعضنا ونضحك، ونحاول أن نتذكر كم كنا باردين، وسبائب البرد الصغيرة في ظهورنا؛ بعد قليل سيتوقف.

"لم يؤذنا قط،" كانت ثيودورا تقول للدكتور، في غمرة ضجيج القرع. "لن يؤذيهم."

"آمل أنها لا تحاول فعل أي شيء حياله،" قال الدكتور عابسًا؛ كان ما يزال على الباب، لكن يبدو أنه عاجز عن فتحه أمام كثافة الضجيج في الخارج.

"أشعر بأنني خبيرة في هذا،" قالت ثيودورا لإلينور. "اقتربي، نيل، تدفئي." وسحبت إلينور لتقترب أكثر تحت اللحاف، والبرد القارس البغيض محيط بالجميع.

حل بعدها هدوء، فجأة، الصمت الغامض المريب الذي تذكروه جميعًا، كتموا أنفاسهم، نظر أحدهم إلى الآخر. أمسك الدكتور مقبض الباب بكلتي يديه، بينما قال لوك بودّ، رغم أن وجهه شاحب وصوته مضطرب: "أيرغب أحد في البراندي؟ ولعي بالروحيّات..."

"لا." قهقهت ثيودورا بصخب. "ليست هذه التورية،" قالت.

"آسف، لن تصدقيني،" قال لوك، فوهة قنينة البراندي تصطفق في الكأس بينما يحاول لوك أن يسكب، "لكنني لم أعد أفكر فيها بصفتها تورية. هذا ما يفعله العيش في منزل مسكون لحس الفكاهة." مستخدمًا كلتي يديه ليحمل الكأس، قصد السرير حيث تكوّمت إلينور وثيودورا على بعضهن تحت اللحاف، مدت ثيودورا يدها وتناولت الكأس. "خذي،" قالت، مقرّبة الكأس من فم إلينور. "اشربي."

مرتشفةً، دون أن تدفأ، فكرت إلينور بأنهم في وسط العاصفة؛ لا يملكون

الكثير من الوقت. شاهدت لوك بانتباه وهو يحمل كأسًا من البراندي إلى الدكتور، ناوله له، ثم دون أن تدرك لماذا، رأت الكأس ينزلق من بين أصابع لوك إلى الأرض بينما يهتز الباب، بعنف وصمت. سحب لوك الدكتور بعيدًا عن الباب الذي هوجم دون صوت، الباب الذي بدا أنه يسحب من أركانه، مستعد تقريبًا أن ينهار ويقع، تاركًا إياهم مكشوفين. متراجعان، انتظر لوك والدكتور، عاجزان متوتّران.

"لا يمكنه أن يدخل،" همست ثيودورا مرة بعد مرة، وعيناها معلقتان بالباب، "لا يمكنه أن يدخل، لا تدعوه يدخل، لا يمكنه أن يدخل..." توقف الاهتزاز، سكن الباب، بدأت طبطبات ملاطفة على مقبض الباب، تبدو ناعمة وحميمة، ثم لأن الباب كان موصدًا، واصل في تربيتات ولمسات على إطار الباب، كأنه يتودّد ليسمح له بالدخول.

"يعلم أننا هنا،" همست إلينور، نهرها لوك بإشارة منه حتى تبقى هادئة دون أن يلتفت إليها.

برد قارس، فكرت إلينور بصبيانيّة، لن أتمكن من النوم أبدًا مع هذا الضجيج القادم من رأسي؛ كيف يسمع هؤلاء الضجيج وهو صادر من رأسي؟ أنا أضمحل، شيئًا فشيئًا، في هذا المنزل، سأنشطر في لحظةٍ ما لأن كل هذا الضجيج يصدعني الآن؛ لماذا الآخرون فزعون؟

كانت تعي، ببلادة، أن الطرق بدأ مجدّدًا، صوته الحديدي الصاخب اجتاحها مثل موج؛ وضعت يديها الباردتين على فمها لتتأكد إذا ما كان وجهها باقيًا أم لا؛ لقد اكتفيت، قالت، أتجمّد من البرد.

"عند باب الحضانة،" قال لوك متوترًا، متحدثًا بوضوح وسط الضجيج. "عند باب الحضانة، إيّاك." واعترض الدكتور بيده ليوقفه.

"حب صادق،" قالت ثيودورا ساخرة، "حب صادق." ثم شرعت في

الكركرة.

"إذا لم يفتحوا الأبواب..." قال لوك للدكتور. وقف الدكتور الآن ويده على الباب، منصتًا، ولوك ممسكًا بيده ليمنعه من التقدم.

الآن سنسمع ضجيجًا جديدًا، فكرت إلينور، وهي تستمع إلى ما بداخل رأسها؛ إنه يتغيّر. توقّف القرع، كأنه يبرهن على فشله، يشعرون الآن بحركات خاطفة عبر الردهة، مثل حيوانٍ يتخبط للأمام والخلف في ضجر غير معقول، يرى أولًا بابًا ثم الآخر، باحثًا عن حركة في الداخل، ثم جاءت التمتمة التي تذكّرتها إلينور مجدّدًا؛ هل أنا من يصدرها؟ تساءلت تساؤلًا خاطفًا، هل هذه أنا؟ ثم سمعت القهقهات الخافتة وراء الباب، تسخر منها.

"فه، في، فو، فوم،"[1] قالت ثيودورا بأخفض صوت ممكن، تفاقمت القهقهات وباتت صراخًا؛ داخل رأسي، فكّرت إلينور، مغطيةً وجهها بكفّيها، هذا بداخل رأسي ويخرج الآن، يخرج، يخرج -

اهتز المنزل وارتعد، السُتر تصطدم بالنوافذ، الأثاث يترنّح، والضجيج في الردهة يزداد حد أنه يضغط على الجدران. سمعوا تحطم الزجاج حيث وقعت الصور المعلقة في الممر أرضًا، وربّما كان صوت تهشّم النوافذ. يقف لوك والدكتور محتقنان على الباب، كأنهما يبقيانه مغلقًا كل على انفراد، والأرضية تتحرك تحت أقدامهما. نحن ذاهبون، نحن ذاهبون، قالت إلينور، وسمعت ثيودورا تقول، من بعيد، "المنزل يتهاوى." بدت هادئة، قد تجاوزت الخوف. متشبّثةً بالسرير، ترتجف مصدومة، أخفضت إلينور رأسها، أغلقت عينيها، زمّت شفتيها في مواجهة البرد وشعرت بالتلاشي البغيض بينما الغرفة تتعثّر بعيدًا خلفها ثم تنهض بنفسها ثم تستدير ببطء وتترنّح. "إلهي،" قالت

1 - الجملة الأولى من رباعية العملاق في قصة -جاك ونبتة الفاصوليا - ، التي يرددها أثناء بحثه عن بشر ليأكله.

ثيودورا، وعلى بعد ميل، عند الباب أمسك لوك بالدكتور وأسنده ليقف.

"هل الجميع بخير؟" صاح لوك، ضاغطًا بظهره على الباب، ممسكًا الدكتور من كتفيه. "ثيو، هل أنتن بخير؟"

"أنا متماسكة،" قالت ثيودورا. "لا أدري عن نيل."

"دفئيها،" قال لوك، من مكانه البعيد. "لم نر كل شيء بعد." تبدّد صوته بعيدًا؛ لا تكاد تسمعه إلينور وتراه في الغرفة البعيدة حيث ينتظر هو وثيودورا والدكتور؛ في الظلام الهائج حيث لا تشعر بأن شيئًا واحدًا حقيقي باستثناء يديها الشاحبتين حول رجل السرير. كانت تراهم، صغارًا جدًا، تراهم يتمددون عندما اختل السرير ومال الجدار وانقلب الباب. في مكانٍ ما كان هنالك هزة مدوّية كأن شيئًا ضخمًا سقط رأسيًا؛ لا بد من أنه البرج، فكرت إلينور، وأنا قد ظننت بأنه سيصمد لسنوات؛ نحن تائهون، تائهون؛ المنزل يدمر نفسه. سمعت الضحكة بعد هذا، واهنة ومعتلة، ترتفع بنبرتها الجنونيّة، وفكرت، لا؛ لقد انتهى الأمر بالنسبة لي. هذا كثير علي، قالت، أتخلى عن امتلاكي نفسي هذه، أتنازل، أمنح عن طيب خاطر ما لم أرغب فيه قط؛ مهما يكن ما يريده فليأخذه.

"سآتي،" قالت بصوتٍ عالٍ، كانت تتحدث لثيودورا، التي تنحني عليها. كانت الغرفة هادئة تمامًا، وبين الستائر الساكنة على النافذة استطاعت أن ترى ضوء الشمس. يجلس لوك على مقعد بجانب النافذة، وجهه متورّم وقميصه ممزق، ما يزال يشرب البراندي. يجلس الدكتور على مقعد آخر خلفه؛ شعره حديث التسريح، يبدو مرتبًا وأنيقًا وواثقًا. ثيودورا منحنيةً على إلينور، قالت: "إنها بخير، على ما أظن،" نهضت إلينور وهزّت رأسها، محدّقةً. منضبط وهادئ، تكشّف المنزل حولها برسمية، ولا شيء قد زُحزح من مكانه.

"كيف..." قالت إلينور، فضحك ثلاثتهم.

"يوم آخر،" قال الدكتور، بالرغم من مظهره كان صوته متعبًا. "ليلة أخرى." قال.

"كما وددت أن أقول في وقتٍ سابق،" أشار لوك، "العيش في منزل مسكون يضرب حس الفكاهة؛ لم أعمد حقًا أن أقول تورية محظورة،" أخبر ثيودورا.

"كيف... حالهم؟" سألت إلينور، بدت الكلمات غير مألوفة وفمها جاف.

"كلاهما ينامان كالأطفال،" قال الدكتور. "في الواقع،" قال، كأنه يكمل محادثة بدأت بينما إلينور نائمة، "لا أصدّق أن زوجتي قد حركت هذه العاصفة، لكنني أعترف أن كلمة زائدة عن الحب الصادق..."

"ما الذي حدث؟" سألت إلينور؛ لا بد أنني صررت أسناني طيلة الليل، فكرت، بناءً على ما أحس في فمي الآن.

"كان منزل التلّ يرقص،" قالت ثيودورا، "اصطحبنا في ليلة مجنونة. على الأقل، أظن أنه رقص؛ ربّما انقلب رأسًا على عقب."

"إنها التاسعة تقريبًا،" قال الدكتور. "حينما تجهز إلينور..."

"تعالي، صغيرتي،" قالت ثيودورا. "ثيو ستغسل لكِ وجهكِ وتوضّبكِ كلكِ للإفطار."

الفصل الثامن

(1)

"هل أخبرهما أحد أن السيدة دودلي تنظّف عند العاشرة؟" نظرت ثيودورا إلى إبريق القهوة بتساؤل.

تردّد الدكتور. "أكره أن أوقظهما بعد ليلة كهذه."

"لكن السيدة دودلي تنظف عند العاشرة."

"إنهما قادمان،" قالت إلينور. "أسمع وقع أقدامهما على الدرج." ودّت لو تقول لهم أن باستطاعتها أن تسمع كل شيء، من كافة أرجاء المنزل.

ثم، ومن مبعدة، سمعوا جميعهم صوت السيدة مونتاغيو، يرتفع بانزعاج، فأدرك لوك قائلًا: "أوه، يا إلهي، لم يستطيعا العثور على حجرة الطعام،" وهرع لفتح الأبواب.

"... حسنة التهوية،" صوت السيدة مونتاغيو يسبقها، ثم انزلقت إلى حجرة الطعام، ربتت تربيتة خاطفة على كتف الدكتور محيّيةً، اتخذت مقعدًا وأومأت إيماءة عامة للجميع. "عليّ أن أعترف،" استفتحت حديثها، "أظن أنكم قد ناديتمونا إلى الفطور. أشكّ أن كل شيء قد برد؟ هل القهوة مستساغة؟"

"صباح الخير،" قال آرثر متجهّمًا، واتخذ مقعدًا بمزاجٍ سيئ وحاد. كادت ثيودورا أن توقع إبريق القهوة في ترددها عند وضع فنجان قهوة أمام السيدة

مونتاغيو.

"تبدو ساخنةً بما يكفي،" قالت السيدة مونتاغيو. "لا بد أن أتحدث مع السيدة دودلي خاصتكم هذا الصباح على أيّة حال. هذه الغرف يجب أن تهوّى."

"وليلتكِ؟" سأل الدكتور متخوفًا، "هل قضيت ليلة مـــ... آهـ.. مفيدة؟"

"إن كنت تقصد مريحة، جون، فأرجو أن تقولها. لا هي إجابتي عن سؤالك اللطيف، لم أقض ليلة مريحة. لم تغمض لي عين. تلك الغرفة لا تطاق."

"منزل عجوز صاخب، أليس كذلك؟" قال آرثر. "ظل غصن يطرق نافذتي طيلة الليل؛ كاد أن يقودني إلى الجنون، يطرق ويطرق."

"حتى والنوافذ مفتوحة، هواء تلك الغرفة فاسد. قهوة السيدة دودلي ليست بقدر سوء تدبيرها للمنزل. فنجان آخر، من فضلكِ. أنا مشدوهة، جون، لقد وضعتني في غرفة ليست مهوّاة بما يكفي؛ إن كان من الممكن أن يحدث أي اتصال مع أولئك الذين في العالم الآخر، فإن جريان الهواء يجب أن يكون مقبولًا على الأقل. أشم الغبار طيلة الليل."

"لا أستطيع أن أفهمك،" قال آرثر للدكتور، "تشد أعصابك من أجل هذا المنزل، بينما جلست الليل كله ومسدسي في يدي ولم أرى حتى فأرًا يجول. عدا ذلك الغصن الملعون الذي طرق النافذة. كاد أن يقودني إلى الجنون،" أسرّ لثيودورا.

"لن نفقد الأمل، طبعًا." قطّبت السيدة مونتاغيو لزوجها. "ربّما تحدث بعض الظواهر الليلة."

(2)

"ثيو؟" وضعت إلينور دفتر ملاحظاتها، بينما تخربش ثيودورا منهمكة، نظرت إلى الأعلى بعبوس. "كنت أفكر في شيء."

"أكره كتابة هذه الملاحظات؛ أحس كأنني حمقاء وأنا أحاول كتابة هذه الأشياء المجنونة."

"كنت أتساءل."

"نعم؟" ابتسمت ثيودورا قليلًا. "تبدين جادة جدًا،" قالت. "هل توصلتِ إلى قرار حاسم."

"نعم،" قالت إلينور، مقررة. "قرار متعلق بما سأفعله في مقبل الأيام. بعد أن نغادر جميعنا منزل التلّ."

"ما هو؟"

"سأذهب معكِ."

"تذهبين معي إلى أين؟"

"أعود معكِ، إلى بيتكِ. أنا،" ابتسمت إلينور ساخرة "سأتبعكِ إلى بيتكِ."

حدّقت ثيودورا. "لماذا؟" سألت بحيرة.

"لم أحظ قط بأحد أهتم به،" قالت إلينور، متسائلة أين سمعت أحدًا يقول هذا من قبل. "أريد أن أكون في مكانٍ أنتمي إليه."

"إيواء القطط الضالة ليس من عاداتي،" قالت ثيودورا بلطف.

ضحكت إلينور أيضًا، "أنا قطة ضالة، أليس كذلك؟"

"حسنًا." تناولت ثيودورا قلم الرصاص مجدّدًا. "لديكِ بيتكِ،" قالت.

"ستسرّين بالعودة إليه حين يحين الوقت، نيل، يا نيلّي. أعتقد أننا جميعًا سنسرّ بالعودة إلى بيوتنا. ماذا تقولين عن جلبة البارحة؟ لم أستطع وصفها."

"سآتي، تعلمين،" قالت إلينور. "سآتي وحسب."

"نيلّي، نيلّي." ضحكت ثيودورا مجدّدًا. "انظري،" قالت. "هذا صيف فقط، زيارة لمصيف عتيق في الريف لأسابيع معدودة وحسب. لديكِ حياتكِ في بيتكِ، ولدي حياتي. عندما ينتهي الصيف سنعود. سنتكاتب، بالطبع، وربما نتزاور، المكوث في منزل التلّ ليس أبديًا، كما تعلمين."

"يمكنني أن أحصل على وظيفة، لن أكون عبأً عليكِ."

"لا أفهم." قذفت ثيودورا قلم الرصاص بحنق. "هل تذهبين دائمًا إلى أماكنٍ لا يرحّب بكِ فيها؟"

ابتسمت إلينور بلامبالاة. "لم يرحب بي قط في أي مكان،" قالت.

(3)

"كل شيء هنا أمومي،" قال لوك. "كل شيء ناعم، محشوّ. مقاعد وأرائك جذابة وعظيمة تتحول بمجرد جلوسك عليها إلى صلبة ومنفّرة، وتلفظك فورًا.."

"ثيو؟" قالت إلينور برفق، فنظرت ثيودورا إليها وهزّت رأسها باستياء.

"... وأيادٍ في كل مكان. أيادٍ صغيرة ناعمة، منحوتة وممتدة لك، تدعوك..."

"ثيو؟" قالت إلينور.

"لا،" قالت ثيودورا. "لا لن أؤويكِ. كما لا أود أن أتحدث في الأمر بعد الآن."

"ربّما،" قال لوك، وهو يرمقهن، "أكثر المظاهر إثارة للنفور التركيز على التكوّر. أدعوكن أن تنظرا بموضوعية إلى غطاء المصباح المصنوع من كسر زجاج صغيرة مغرّاة ببعضها، أو حلقة المصابيح المكوّرة العظيمة على الدرج، أو علبة الحلوى الأسطوانية متقزحة اللون بالقرب من مرفق ثيو. في حجرة الطعام توجد زبدية من الزجاج الأصفر القذر تحديدًا تستقر على كفي طفل مكوبتين، وبيضة فصح مصنوعة من السكر مع مشهد رعاة يرقصون. سيدة ثدياء تسند بيت الدرج على رأسها، وتحت الزجاج في المرسم..."

"نيلي، دعيني وشأني. لنمشِ إلى الجدول أو ما شابه."

"... وجه طفل، صنع بغرزة متصالبة. نيل، لا تقلقي؛ اقترحت ثيو أن تمشيا إلى الجدول وحسب، إذا أردتِ، سأرافقكن."

"كما تريد،" قالت ثيودورا.

"حتى أخيف الأرانب. إذا أردتِ، سأحمل عصا. إذا أردتِ، لن آتي مطلقًا. كل ما على ثيو أن تقرر بكلمة."

ضحكت ثيودورا. "ربّما تفضل نيل أن تظل هنا وتكتب على الجدران."

"هذه فظاظة شديدة،" قال لوك. "قسوة منكِ، ثيو."

"أود أن أسمع المزيد عن الرعاة الذين يرقصون في بيضة الفصح،" قالت ثيودورا.

"حلوى تتضمن عالمًا. ستة رعاة صغار جدًا يرقصون، وراعية ترتدي الزهري والأزرق تسترخي على ضفة تكسوها الطحالب تتسلى بمشاهدتهم؛

هنالك زهور وأشجار وخراف، وراعٍ يعزف على الناي. أظن أنني أود لو أصبح راعيًا."

"لو لم تكن مصارع ثيران،" قالت ثيودورا.

"لو لم أكن مصارع ثيران ولم تكن شؤون نيل حديث المقاهي، تذكري."

"پـان،[1]" قالت ثيودورا. "يجدر بك العيش في شجرة مجوّفة، لوك."

"نيل،" قال لوك، "أنتِ لا تستمعين إلينا."

"أعتقد أنّك أخفتها، لوك."

"لأن منزل التلّ سيؤول لي يومًا ما، بكنوزه التي لا تُحصى، ووسائده؟ ألست نبيلًا مع منزل، نيل؛ ربما أثور من الضجر فأهشّم بيضة الفصح السكرية، أو أحطم يدي الطفل الصغير أو أزمجر وأسحق الدرج صعودًا ونزولًا مهاجمًا مصابيح الزجاج المغرّى بخيزرانة، وأجلد السيدة الثدياء التي تسند بيت الدرج على رأسها؛ قد..."

"أرأيت؟ أنت تخيفها."

"أعتقد أنني أخفتها،" قال لوك. "نيل، أقول هراءً وحسب."

"لا أظنه يمتلك خيزرانة حتى،" قالت ثيودورا.

"في الحقيقة، لدي. نيل، إنني أهذي وحسب. فيم تفكر يا ثيو؟"

قالت ثيودورا معتنيةً بمفرداتها، "تريد أن أصطحبها إلى بيتي بعد أن نغادر منزل التلّ، وأنا أرفض."

ضحك لوك. "نيل الساذجة المسكينة،" قال.

1- إله المراعي بحسب الميثولوجيا الإغريقيّة.

"بلقاء الأحبة ينتهي الترحال. لنذهب إلى الجدول."

"منزل أمومي،" قال لوك، بينما يعبرون العتبة من الشرفة إلى الحديقة، "ربّما ربة منزل، أو مديرة، أو مدبّرة منزل. متأكد من أنني سأكون مدبّر منزل بائس، مثل آرثر، حينما يصبح منزل التلّ لي."

"لا أفهم أي شخص يود أن يمتلك منزل التلّ،" قالت ثيودورا، استدار لوك ونظر إلى المنزل بسخرية.

"لن تدرك أبدًا ما الذي تريده حتى تراه بوضوح،" قال. "ربّما لو لم أحظ بفرصة امتلاكه قط سيكون شعوري مختلفًا. ما الذي يريده الناس حقًا من بعضهم، كما سألتني نيل مرة، ما نفع الآخرين؟"

"وفاة أمي خطئي أنا،" قالت إلينور. "لقد طرقت الجدار، نادتني ونادتني، لكنني لم أستيقظ. كان علي أن أحضر لها الدواء؛ كنت أفعل هذا دائمًا. لكن هذه المرة نادتني ولم أستيقظ."

"يجدر بكِ أن تكوني قد نسيتِ هذا الآن،" قالت ثيودورا.

"تساءلت منذ ذلك الحين، إن كنت قد استيقظت. إن كنت قد استيقظت وسمعتها، ثم واصلت النوم ببساطة. سيكون سهلًا، لكنني قد احترت."

"انعطفا من هنا،" قال لوك. "إن كنا سنذهب إلى الجدول."

"تفكّرين كثيرًا، نيل. على الأرجح تفضلين أن تعتقدي بأنه خطؤكِ."

"كانت ستموت عاجلًا أم آجلًا، على كل حال،" قالت إلينور. "لكن بالطبع مهما يكن وقت وفاتها سيكون خطئي."

"لو لم يحدث هذا لما جئتِ إلى منزل التلّ أبدًا."

"علينا أن نسير فرادى هنا،" قال لوك. "نيل، أنتِ أولًا." مبتسمة، عبرت

إلينور، واضعةً قدمًا خلف قدم براحة في الدرب. الآن أعلم إلى أين أنا ذاهبة، فكرت؛ أخبرتها عن أمي ومن ثمّ ستكون الأمور على ما يرام؛ سأجد منزلًا صغيرًا، وربّما شقة مثل شقتها. سأراها كل يوم، وسنذهب معًا للبحث عن أشياء جميلة، أطباق مؤطرة بالذهب، قطة بيضاء، وبيضة فصح من السكر، وفنجان ذو نجوم. لن أصبح فزعة ووحيدة بعد الآن؛ سأدعو نفسي إلينور وحسب. "هل تتحدثان عني؟" سألت بنصف التفاتة.

بعد دقيقة أجاب لوك بلطف: "صراع روح نيل بين الخير والشر. أظن أن علي أن أكون إلهًا، على كل حال."

"لكن بالطبع لا تستطيع أن تثق في أي منا،" قالت ثيودورا، هازئةً.

"ليس أنا، بالتأكيد،" قال لوك.

"إضافة إلى أننا، يا نيل،" قالت ثيودورا، "لم نكن نتحدّث عنكِ مطلقًا. كأنني معلمة رياضة،" قالت، نصف غاضبة، للوك.

فكرت إلينور بأنها قد انتظرت وقتًا طويلًا، وأنها أخيرًا نالت سعادتها. جاءت، تقودهما، إلى قمة التلّ ونظرت إلى الأسفل حيث صف الأشجار الرفيعة التي عليهم تجاوزها ليصلوا إلى الجدول. إنها جميلة لقاء السماء، خطر لها، بالغة الاستقامة والحرية؛ كان لوك مخطئًا فيما يتعلّق بنعومة كل شيء، لأن الأشجار قاسية مثل أشجار الغابة.

ما يزالان يتحدثان عني، كيف جئت إلى منزل التلّ وعثرت على ثيودورا وكيف أنني الآن لن أفرط بها. تسمع همهمات أصواتهما خلفها، تحتد أحيانًا بمكر، وترتفع أحيانًا بسخرية، تتلامس أحيانًا بضحكة حميمة، وهي تمشي حالمة، تستمع إليهما يتبعانها. استطاعت أن تخمن دخولهما منطقة عشب طويل بعد أن دخلتها ببرهة، لأن العشب هسهس تحت أقدامهما، وجندب

جفل قفز بعيدًا.

يمكنني أن أساعدها في متجرها، فكرت إلينور؛ إنها تحب الأشياء الجميلة، سأذهب معها لأبحث عن الأشياء الجميلة. يمكننا أن نذهب إلى أي مكان نشاء، إلى حافة العالم لو أردنا، ونعود حين نريد. لا بد أنه يخبرها الآن ما يعرف عني: أنني لا أخدع بسهولة، أن حولي سور من أشجار الدفلى، وهي تضحك لأنني لن أكون وحيدة بعد الآن. إنهما متشابهان جدًا، وشديدا اللطف؛ لم أتوقع منهما حقًا بقدر ما يمنحاني؛ لقد أصبت في القدوم، إذ بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال.

عبرت أسفل أغصان الأشجار القاسية، كانت الظلال باردة بعد الشمس الساخنة التي علت الدرب؛ عليها الآن أن تمشي بحذر أكثر لأن الدرب يهبط عبر التلال ويوجد في بعض الأحيان حجارة وفروع ممتدة على طريقها. وراءها استمرت أصواتهما، سريعة وحادة، ثم تتباطأ وتعقبها ضحكات، لن أنظر إلى الخلف، فكرت بسعادة، إذ حينها سيعلمان أنني أفكر؛ سنتحدث عن هذا معًا يومًا ما، ثيو وأنا، عندما يكون لدينا متسع من الوقت. ما أغرب شعوري، فكرت، خارجة من بين الأشجار إلى المنحدر الأخير الذي يقود إلى الجدول؛ لقد وقعت في حيرة، ما أزال مستمتعة. لن ألتفت حتى أصير بجانب الجدول، حيث وقعت في اليوم الذي جئنا فيه إلى هنا؛ سأذكرها بالسمكة الذهبية في الجدول ونزهتنا.

جلست على الضفة الخضراء وأسندت ذقنها على ركبتيها؛ لن أنسى هذه اللحظة في حياتي، عاهدت نفسها، مصغية إلى صوتيهما ووقع أقدامهما وهي تهبط التلّ ببطء. "أسرعا،" قالت، مديرة رأسها لتنظر إلى ثيودورا. "أنا..." ثم صمتت. لم يكن هنالك أحد على التلّ، لا شيء سوى وقع أقدام قادمة بوضوح من الدرب والضحكة الساخرة الخافتة.

"من...؟" همست. "من؟"

رأت العشب ينسحق تحت ثقل الأقدام. رأت جندبًا آخرًا يقفز بعيدًا، حجارة تحركت وتدحرجت. سمعت بوضوح مس الأقدام للأرض، ثم لاحقًا، واقفة بصلابة بجانب الجدول، سمعت الضحكة قريبة جدًا؛ "إلينور، إلينور،" تسمع النداء داخل رأسها وخارجه؛ كان هذا النداء الذي سمعته طيلة حياتها. توقف وقع الخطى، غمرها هبوب هواء شديد أفقدها توازنها، كانت محتجزة. "إلينور، إلينور،" سمعت في الهواء الذي اقتحم أذنيها، "إلينور، إلينور،" كانت محتجزة وآمنة. ليس بردًا أبدًا، قالت، ليس بردًا أبدًا. أغلقت عينيها واستلقت بجانب الجدول وفكرت، لا تدعني أذهب، ثم، ابق، ابق، بينما القوة التي احتجزتها تبددت، تركتها واختفت؛ "إلينور، إلينور،" سمعت النداء مجدّدًا فوقفت بجانب الجدول، ترتجف كأن الشمس قد اختفت، ترى دون مفاجأة أثر الأقدام الخفية تقطع ماء الجدول، مسببّة بعض التموجات، ثم خرجت إلى العشب على الضفة الأخرى، صاعدةً التلّ ببطء ورفق.

عد، قالت، وهي تقف مرتجفة بجانب الجدول، ثم استدارت وركضت بجنون صاعدة التلّ، تنوح وهي تركض وتنادي: "ثيو؟ لوك؟"

وجدتهما وسط مجموعة شجيرات، مستلقيان بجانب جذع، يتحدثان برقة ويضحكان؛ عندما ركضت إليهما استدارا، فزعا، وكانت ثيودورا غاضبة تقريبًا. "ماذا بحق السماء تريدين هذه المرة؟" قالت.

"انتظرتكما عند الجدول..."

"لقد قررنا أن نبقى هنا حيث البرودة،" قالت ثيودورا. "ظننا أنكِ سمعتنا ونحن نناديكِ. ألم ننادها يا لوك؟"

"أوه، بلى،" قال لوك، خجلًا. "كنا واثقين من أنكِ سمعتنا."

"على أي حال،" قالت ثيودورا، "كنا على وشك القدوم خلال برهة، أليس كذلك يا لوك؟"

"بلى،" قال لوك، مبتسمًا، "أوه، بلى."

(4)

"مياه جوفية،" قال الدكتور، ملوحًا بشوكته.

"هراء. هل تطهو السيدة دودلي كل الطعام؟ الهليون أكثر من مقبول. آرثر، دع هذا الشاب يناولك هليونًا."

"عزيزتي،" نظر الدكتور بحنان إلى زوجته. "بات طقسًا لدينا أن نرتاح لساعة أو أكثر بعد الغداء؛ إذا كنتِ..."

"بالتأكيد لا. لدي الكثير لأفعله بينما أنا هنا. علي أن أتحدث لطاهيتكم، علي التأكد من تهوية غرفتي، علي أن أعد البلانشيت لجلسة أخرى هذا المساء؛ آرثر يجب أن ينظف مسدسه."

"شيمة الرجل المقاتل،" أضاف آرثر. "أسلحته دائمًا في جاهزيّة تامة."

"بالطبع يمكنك أن ترتاح أنت وهؤلاء الشبان. ربما لا تشعر بالحالة الطارئة التي أشعر بها، الحاجة الملحة لمساعدة أي أرواح تعيسة تطوف هنا بشقاء، ربما تظن أنني حمقاء في تعاطفي معهم، ربما أنني بلهاء حتى في نظركم لأنني أذرف الدمع على روحٍ ضائعة مهجورة، تركت دون أن تمدّ لها يد، لكن الحب الصادق..."

"كروكيّة؟" قال لوك بتردد. "ربما نلعب الكروكيّة؟" نظر من شخصٍ إلى

الآخر. "تنس الريشة؟" اقترح. "أم الكروكيّة؟"

"مياه جوفية؟" قالت ثيودورا.

"لا آكل الصلصات الفاخرة،" قال آرثر بحزم. "أخبر طلابي أنها شيمة اللئيم." تأمل لوك. "شيمة اللئيم. الصلصات الفاخرة، والنساء اللاتي يخدمنك. طلابي يخدمون أنفسهم. فهذه من شيم الرجال،" قال لثيودورا.

"وماذا تدرّسهم أيضًا؟" سألت ثيودورا بتهذيب.

"أدرّس؟ تعنين... هل يتعلمون شيئًا، طلّابي؟ تقصدين- الجبر، مثلًا؟ اللاتينيّة؟ بالتأكيد." أسند آرثر ظهره إلى المقعد، راضيًا. "أترك مثل هذه الأشياء للأساتذة،" وضّح.

"وكم عدد الطلاب في مدرستك؟" استندت ثيودورا على الطاولة، وقد استرعى الأمر اهتمامها، أن تعقد محادثة مع ضيف، استرخى آرثر؛ على رأس الطاولة عبست السيدة مونتاغيو وبدأت تطرق أصابعها بنفاد صبر.

"كم عددهم؟ كم. لدي فريق تنس رائع، تعلمين." ابتسم لثيودورا. "رائع، بل خرافي. لا نعد الرخوين؟"

"لا نعد،" قالت ثيودورا، "الرخوين."

"أوه، تنس. غولف. كرة سلة. جري. كريكيت." ابتسم بعفوية. "لا أظننا لعبنا الكريكيت، هل لعبتم؟ بعدها السباحة، وكرة الطائرة. بعض الرفاق يذهبون إلى كل شيء، مع هذا،" أخبرها باستياء. "كل الرياضات، ربما جميعهم سبعون."

"آرثر؟" لم تستطع السيدة مونتاغيو تمالك نفسها أكثر. "ليس وقت الحديث عن مهنتك الآن. أنت في عطلة، تذكر."

"نعم، يالسخفي." ابتسم آرثر بحنان. "علي أن أتفحص الأسلحة،" وضّح.

"إنها الثانية تمامًا،" قالت السيدة دودلي عند المدخل. "أنا أنظف عند الثانية."

(5)

ضحكت ثيودورا، بينما إلينور مختبئة في الظلال خلف المنزل الصيفي، واضعة يديها على فمها حتى تمنع نفسها من التحدث كي لا يعرفان بوجودها؛ لا بد أن أعرف، فكرت، لا بد أن أعرف.

"تدعى (قتلى آل غراتان)،" قال لوك. "أغنية جميلة، يمكنني أن أغنيها لكِ إذا أردتِ."

"شيمة اللئيم." ضحكت ثيودورا مجدّدًا. "لوك المسكين، كنت سأقول (وغد)."

"إذا كنتِ تفضّلين أن تقضي هذه الساعة القصيرة مع آرثر...."

"بالطبع أفضّل أن أكون مع آرثر. الرجل المتعلّم رفيق مسلٍ دائمًا."

"كريكيت،" قال لوك. "لم أفكر قط بأننا قد نلعب الكريكيت، ماذا عنكِ؟"

"غنّ، غنّ،" قالت ثيودورا ضاحكةً.

طفق لوك يغنّي، نغّم بأنفه، مفخمًا كل كلمة على حدة:

"الأولى الآنسة غراتان،

حاولت منعه،

طعنها بمنجل،

هكذا بدأ جرمه.

التالية الجدة غراتان،

كهلاء شيباء،

قاومت مهاجمها،

حتى خارت القوّة.

تلاها الجد غراتان،

جالسًا بجانب النار،

بقربه انسل،

وخنقه بحبل.

الأخير الطفل غراتان،

في مهده،

هشّم قفصه،

حتى قضى نحبه.

بصق عصير التبغ،

على صفرة شعره."

بعد أن انتهى حلت دقيقة صمت، ثم قالت ثيودورا بوهن: "جميلة، لوك. جميلة جدًا. لن أسمعها مرة أخرى دون أن أتذكرك."

"أخطط أن أغنيها لآرثر،" قال لوك. متى سيتحدثان عنّي؟ تساءلت إلينور في الظلال؟ بعد برهة قال لوك فجأة: "أتساءل كيف سيكون كتاب الدكتور عندما يكتبه؟ هل تظنين أنه سيذكرنا فيه؟"

"ستتحول فيه على الأرجح إلى باحث نفسي شاب متحمّس. بينما سأكون سيدة المواهب لكن بسمعة مريبة."

"أتساءل إذا ما كانت السيدة مونتاغيو ستفرد فصلًا لنفسها."

"وآرثر، والسيدة دودلي. آمل أنه لن يختزلنا إلى رموز على رسم بياني."

"أتساءل، أتساءل،" قال لوك. "الجو دافئ هذه الظهيرة،" قال. "ما يمكننا أن نفعل لنتبرّد؟"

"يمكننا أن نطلب من السيدة دودلي أن تعد لنا ليموناضة."

"هل تعرفين ما أود فعله؟" قال لوك. "أود أن أستكشف. لنتعقب مجرى الجدول ونرى مصدره عبر التلال؛ ربما هنالك بركة في مكانٍ ما يمكننا السباحة فيها."

"أو شلّال؛ يبدو جريان الجدول الطبيعي كأنه من شلّال."

"تعالي، إذًا." تستمع إلينور، من وراء المنزل الصيفي، إلى ضحكاتهما ووقع أقدامهما وهما يركضان إلى المنزل.

(6)

"هنا شيء مثير للاهتمام، هنا،" قال آرثر كمن يجهد باحثًا عن المغامرة ليستمتع بها، "هنا في هذا الكتاب. يخبرك كيف تصنع شمعة من ألوان الأطفال الشمعية المعروفة."

"مثير." قال الدكتور وبدا قلقه على صوته. "أستأذنك، آرثر، علي تحرير كل هذه الملاحظات."

"بالطبع، دكتور. علينا جميعنا أن نقوم بمهامنا. لن أصدر صوتًا." إلينور، متنصتةً عند باب الصالون، سمعت الجلبة التي أصدرها آرثر حتى يستقر ويبقى هادئًا. "لا يوجد الكثير لتفعله هنا، أليس كذلك؟" قال آرثر. "كيف تقضي وقتك على العموم؟"

"أعمل." قال الدكتور بفظاظة.

"هل تدوّن ما يحدث في المنزل؟"

"نعم."

"هل كتبت عني؟"

"لا."

"يجدر بك أن تضيف ملاحظاتنا من البلانشيت. ماذا تكتب الآن؟"

"آرثر، ما رأيك أن تقرأ أو تفعل أي شيء؟"

"بالتأكيد. لم أقصد أن أكون مزعجًا." سمعت إلينور آرثر يتناول كتابًا ما، ثم وضعه، أشعل سيجارة، سمعت تنهده، نفثه، ثم قوله أخيرًا: "اسمع، ألا يوجد حقًا أي شيء لفعله هنا؟ أين الآخرون؟"

تحدث الدكتور بطولة بال، لكن دون مبالاة. "ثيودورا ولوك خرجا لاستكشاف الجدول، على ما أظن. وأظن أن البقية في مكان ما هنا. في الحقيقة، أعتقد أن زوجتي تبحث عن السيدة دودلي."

"أوه." تنهّد آرثر مجدّدًا. "ربما أنها تقرأ أيضًا، أظن هذا." قال، ثم بعد برهة، "اسمع يا دكتور. لا أود أن أزعجك، لكن اسمع ما يقول الكتاب هنا...."

(7)

"لا،" قالت السيدة مونتاغيو، "لا أؤيد أن يزج الشباب معًا هكذا بعبث، سيدة دودلي. لو أن زوجي طلب مشورتي قبل تنظيم هذه الحفلة المنزلية الفانتازية..."

"حسنًا." كان صوت السيدة دودلي، وإلينور، متكأة على باب حجرة الطعام حدقت وفتحت فمها على اتساعه على إطار الباب الخشبي. "دائمًا أقول، سيدة مونتاغيو، إن المرء يكون شابًا لمرة واحدة. أولئك الشبان يستمتعون بوقتهم، وهذا طبيعي بالنسبة للشباب."

"لكن، العيش تحت سقف واحد..."

"لا أعني أنهم ليسوا راشدين بما يكفي ليعرفوا الصواب من الخطأ. تلك السيدة الأنيقة ثيودورا كبيرة بما يكفي لترعى نفسها، على ما أعتقد، مهما كان السيد لوك فاسقًا."

"أريد فوطة جافة، سيدة دودلي، من أجل طقم الفضة. أظن أن الطريقة التي يكبر بها الأطفال هذه الأيام وهم يعرفون كل شيء مخزية. يجب أن يكون هنالك المزيد من الغموض بالنسبة لهم، أن يجهلوا أشياءَ أكثر من تلك التي

تنتمي إلى عالم الراشدين وحسب، وعليهم أن ينتظروا إلى أن يكتشفوها."

"ثم سيكتشفونها بالطريقة الصعبة." كان صوت السيدة دودلي مرتاحًا وتلقائيًا. "جلب دودلي الطماطم من البستان هذا الصباح،" قالت. "زرعت جيدًا هذا العام."

"هل علي أن أبدأ بها؟"

"لا، أوه، لا. أنتِ اجلسي هناك واستريحي؛ لقد ساعدتني بما يكفي. سأغلي الماء وسنشرب فنجان شاي لذيذ."

(8)

"بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال،" قال لوك، وهو يبتسم لإلينور من طرف الحجرة الآخر. "هل الفستان الأزرق الذي ترتديه ثيودورا فستانكِ حقًا؟ لم أره من قبل."

"أنا إلينور،" قالت ثيودورا بخبث، "لأن لدي لحية."

"تصرفتِ بحكمة حين جلبتِ ملابسًا لشخصين،" أخبر لوك إلينور. "لن تبدو ثيو أبدًا بنصف حسن هندامها هذا في سترتي القديمة."

"أنا إلينور،" قالت ثيو، "لأنني أرتدي الأزرق، أحب حبي للاي لأنها أثيرة. اسمها إلينور، وتعيش في التوقعات."

لقد أصبحت حاقدة، فكرت إلينور؛ من مسافة بعيدة، بدا أنها قادرة على مشاهدة هؤلاء الناس وسماعهم. تفكر الآن بأن ثيو أصبحت حاقدة بينما يحاول لوك أن يكون لطيفًا؛ لوك يشعر بالخزي من نفسه لأنه يسخر مني، وفي الوقت نفسه يشعر بالخزي من ثيودورا لأنها حاقدة. "لوك،" قالت ثيودورا،

وهي تحدج إلينور بنصف التفاتة، "تعال وغنِّ لي مرة أخرى."

"لاحقًا،" قال لوك باستياء. "لقد صف الدكتور الشطرنج للتوّ." استدار ببعض التردّد.

ثيودورا، بكبرياء جريح، استندت على ظهر مقعدها وأغلقت عينيها، تعمد بوضوح إلى عدم التحدث. جلست إلينور، مطرقة النظر إلى كفيها، منصتة إلى أصوات المنزل. في مكانٍ ما من الطابق الأعلى، أغلق أحد الأبواب؛ حط عصفور على البرج لبرهة ثم حلّق. في المطبخ فُتح الفرن وبرِّد، مع بعض الجلبة. تحرك حيوان -أرنب؟- في الحشائش القريبة من المنزل الصيفي. استطاعت أن تسمع، مع وعيها الحديث بمنزل التلّ، حتى هبوب الغبار برفق في العليّة، وتمدّد الخشب. المكتبة وحدها هي الموصدة أمامها؛ لم تستطع أن تسمع تنفس السيدة مونتاغيو وآرثر الثقيل على البلانشيت، ولا أسئلتهم الممتعة؛ لم تستطع سماع هدير الكتب ولا صوت الصدأ وهو يغطي الدرج الحديدي اللولبي الذي يقود للبرج. في الصالون الصغير أمكنها أن تسمع دون أن ترفع عينيها، طقطقة ثيودورا التي تعبر بها عن استيائها وصوت بيادق الشطرنج وهي ترتب على الطاولة. سمعت باب المكتبة حين اصطفق مفتوحًا، ثم وقع الخطى الغاضبة الحادة قادمة إلى الصالون. استداروا جميعهم حين فتحت السيدة مونتاغيو الباب ودخلت بمشية عسكرية.

"لا بد أن أقول،" قالت السيدة مونتاغيو في نفس حاد غاضب، "لا بد حقًا أن أقول إن هذا أكثر ما يفقدني صوابي"

"عزيزتي." نهض الدكتور، لكن السيدة مونتاغيو أومأت له غاضبة، "إذا كان لديك معرفة بالآداب العامة -" قالت.

آرثر، الذي كان يتبعها محبطًا، تجاوزها، منهار تقريبًا، وجلس على مقعد

بجانب النار. هزّ رأسه قلقًا حين استدارت ثيودورا باتجاهه.

"الآداب العامة. على كل حال، جون، قطعت كل هذا الطريق، ومثلي آرثر، فقط لنساعدك، وعلي حتمًا أن أقول إنني لم أتوقع قط أن تقابلني بتشكيك ورفض، جميعكم، وهؤلاء -" أشارت إلى إلينور وثيودورا ولوك. "كل ما أطلبه، كل ما أطلبه، القليل من الثقة، القليل من التعاطف مع ما أحاول القيام به، وبدلًا من هذا، تشكّكون بي، تتهكمون، تسخرون وتنتقصون." متنفسة بثقل، بوجه أحمر، هزت إصبعها للدكتور. "البلانشيت،" قالت بتحسر، "لن تتحدث معي الليلة. لم أحصل منها على كلمة واحدة، هذه نتيجة واضحة لشكك وتهكمك؛ قد لا تتحدث البلانشيت معي لبضعة أسابيع- لقد حدث هذا من قبل، أقول لك؛ لقد حدث من قبل، عندما عرّضتها لازدراء المشكّكين بها؛ لقد حدث وأن صمتت البلانشيت لأسابيع، أقل ما توقعته منك وأنا في طريقي إلى هنا دون شيء سوى الدوافع النبيلة؛ قليل من الاحترام." هزت إصبعها في وجه الدكتور، دون أن تنبس ببنت شفة.

"عزيزتي،" قال الدكتور، "أنا واثق من أن لا أحد منا قد أثر عامدًا."

"التهكم والاستنقاص، ألم تفعلوا؟ التشكيك، وكلمات البلانشيت أمام عينيك؟ وقاحة هؤلاء الشباب وغطرستهم؟"

"سيدة مونتاغيو، حقًا..." قال لوك، لكن السيدة مونتاغيو تجاوزته وجلست، شفتاها ممتستان وعيناها على اتساعهما من الغضب. تنهّد الدكتور، أراد أن يتحدث، ثم سكت. استدار عن زوجته، أومأ إلى لوك حتى يعود إلى طاولة الشطرنج. متخوفًا، تبعه لوك، وآرثر يتقلّب في مقعده، قال لثيودورا بصوت خفيض: "لم أرها حانقة بهذا القدر قط، تعلمين. انتظار البلانشيت تجربة بائسة. تشعر بالإهانة بسهولة، بالطبع. حسّاسة للجو." بدا أنه اقتنع

بأنه شرح الحالة بشكلٍ وافٍ، استند إلى ظهر المقعد مجدّدًا وابتسم بخجل.

لم تكد إلينور تسمع شيئًا، تتساءل سئمة عن التحركات في الحجرة. أحدهم يتجول، فكرت دون حماس؛ لوك يتردد في الحجرة، يحدث نفسه بصوتٍ منخفض؛ طريقة لعب شطرنج غريبة بالتأكيد؟ يتمتم؟ يغني؟ مرة أو اثنتين تفوهت بكلمة ناقصة، ثم تحدث لوك بهدوء؛ كان على طاولة الشطرنج حيث ينتمي، استدارت إلينور ونظرت إلى وسط الحجرة الفارغ، حيث يسير أحدهم ويغني برقة، حينها سمعته بوضوح:

سيري وسط الوادي،

سيري وسط الوادي،

سيري وسط الوادي،

كما كنا نفعل قبلًا . . .

لماذا، أعرف هذا، فكرت، أنصتت مبتسمة، إلى اللحن الخافت؛ لقد اعتدنا أن نلعب تلك اللعبة، أذكر هذا.

"إنها ببساطة أكثر آلية حسّاسة ومعقّدة،" قالت السيدة مونتاغيو لثيودورا؛ كانت ما تزال غاضبة، لكنها كانت تهدأ شيئًا فشيئًا بشكل جلي متأثرة باهتمام ثيودورا المتعاطف. "أدنى تشكيك يشعرها بالإهانة، بطبيعة الحال. بماذا ستشعرين لو رفض الناس الإيمان بكِ؟"

ادخلي واخرجي من النوافذ،

ادخلي واخرجي من النوافذ،

ادخلي واخرجي من النوافذ،

كما كنّا نفعل قبلًا . . .

كان الصوت رقيقًا، على الأرجح صوت طفل، يغني بلطف ووهن، في نفس نقي، ابتسمت إلينور وتذكرت، وهي تسمع الأغنية الخافتة بوضوح يفوق وضوح صوت السيدة مونتاغيو المستمر في الحديث عن البلانشيت.

انطلقي وواجهي حبيبكِ،

انطلقي وواجهي حبيبكِ،

انطلقي وواجهي حبيبكِ،

كما كنّا نفعل قبلًا . . .

شعرت بالأغنية تتلاشى، وشعرت بحركة الهواء بينها الوقع يقترب منها، وشيء ما لمس وجهها؛ على الأرجح كانت هنالك تنهيدة سريعة زفرت على خدها، استدارت متفاجئة. لوك والدكتور منحنيان على الشطرنج، آرثر مسترخٍ بالقرب من ثيودورا، والسيدة مونتاغيو تتحدث.

لا أحد منهم سمع الأغنية، هجست بمتعة؛ لم يسمع أحد سواي.

الفصل التاسع

(1)

أغلقت إلينور باب غرفة النوم وراءها بعناية، لم ترغب أن توقظ ثيودورا، رغم أن صوت اغلاق الباب، قالت، لا يكاد يزعج أحدًا ينام بعمق مثل ثيودورا؛ لقد تعوّدت على النوم الخفيف، أخبرت نفسها مواسيةً، لأنني كنت أنتبه إلى صوت أمي. كانت الردهة معتمة، لا تنيرها سوى المصابيح الليلية الضعيفة فوق الدرج، كل الأبواب مغلقة. مضحك، فكرت إلينور، تسير دون أن تصدر صوتًا بقدميها الحافيتين على سجاد الردهة، إنه المنزل الوحيد الذي أعرف حيث لا تقلق فيه من إصدار ضجيج في الليل، أو على الأقل لا تقلق فيه من أن أحدًا سيعرف أنه أنت. استيقظت وفي ذهنها فكرة النزول إلى المكتبة، زوّدها ذهنها بمسوّغ لهذا: لا أستطيع النوم، وضّحت لنفسها، ومن ثم سأنزل إلى الطابق الأسفل لآخذ كتابًا، ولو سألني أحد إلى أين تذهبين سأقول إلى المكتبة لآخذ كتابًا لأنني لم أستطع النوم.

كان الجو دافئًا، دفء فاخر جالب للنعاس. قصدت بيت الدرج الضخم حافية القدمين في صمت، اتجهت إلى باب المكتبة قبل أن تفكر، لكن لا يمكنني الدخول هنا، غير مسموح لي بالدخول هنا- وقفت عند المدخل من رائحة العفن، التي أثارت غثيانها. "أمي،" قالت بصوتٍ عالٍ، وتراجعت بسرعة إلى الخلف. "تعالي،" أجابها صوت واضح من الطابق الأعلى، استدارت إلينور، متحمسة، هرعت إلى بيت الدرج. "أمي؟" قالت برجاء، ثم مجدّدًا، "أمي؟"

انفجرت ضحكة ردًا عليها فركضت لاهثةً تصعد الدرج حتى وقفت في قمته، تتلفت يمنة ويسرة إلى الأبواب المغلقة على طول الردهة.

"أنتِ هنا في مكانٍ ما،" قالت، دوّى صوتها في الردهة، متحولًا إلى همس في تيارات الهواء الطفيفة. "في مكانٍ ما،" قال. "في مكانٍ ما."

ضحك، تبعته إلينور، وهي تجري دون أن تصدر صوتًا، في الردهة باتجاه مدخل الحضانة؛ اختفت البقعة الباردة، ضحكت للوجهين اللذين يطرقان النظر إليها. "هل أنتِ بالداخل؟" همست خارج الباب، "هل أنتِ بالداخل؟" طرقت قليلًا، ثم قرعت بقبضتها.

"نعم؟" كانت السيدة مونتاغيو هي التي بالداخل، من الواضح أنها استيقظت للتوّ. "نعم؟ تفضل، مهما تكن."

لا، لا، قالت إلينور، ضحكت بصمت وهي تحضن نفسها، ليست في الداخل، ليست مع السيدة مونتاغيو، هرعت مع الردهة، وهي تسمع نداء السيدة مونتاغيو خلفها تقول: "أنا صديقتك؛ لا أنوي إيذاءك. تعال وأخبرني ما يقلق راحتك."

لن تفتح بابها، فكرت إلينور بحكمة، ليست خائفة لكنها لن تفتح بابها، طرقت باب آرثر ثم خبطته، فسمعت شهقة استيقاظه.

راقصةً، شعرت بالسجادة ناعمة تحت قدميها، وصلت إلى الباب الذي تنام ثيودورا خلفه؛ ثيودورا الزنديقة، فكرت، ثيودورا الساخرة الوقحة، استيقظي، استيقظي، استيقظي، قرعت الباب وخبطت عليه بكفها منبسطة، ضاحكة، هزّت مقبضه ثم جرت بسرعة خاطفة قطعت فيها الردهة إلى باب لوك وقرعته؛ انهض، قالت، انهض وكن زنديقًا. لا أحد منهم سيفتح بابه، فكرت، سيجلسون في الداخل، واللحف تلفهم، يرتجفون ويتساءلون عما

سيحدث لهم؛ انهض، فكرت، وهي تطرق على باب الدكتور؛ أتحداك أن تفتح بابك وتخرج لتراني أرقص في ردهة منزل التلّ.

ثم أفزعتها ثيودورا بصراخها العالي: "نيل؟ نيل؟ دكتور، لوك، نيل ليست هنا!"

المنزل المسكين، فكرت إلينور، لقد نسيت إلينور؛ لا بد أنهم الآن سيفتحون أبوابهم، ثم هبطت الدرج بسرعة، تسمع خلفها صوت الدكتور يرتفع بتوتّر، وثيودورا تنادي: "نيل؟ إلينور؟" يالهم من حمقى، قالت، علي الآن أن أذهب إلى المكتبة. "أمي، أمي،" همست، "أمي،" ووقفت بباب المكتبة، متعبة. سمعتهم يتحدثون في بهو الطابق العلوي؛ مضحك، قالت، يمكنني أن أشعر بالمنزل كله، وأسمع حتى السيدة مونتاغيو تعترض، وآرثر، والدكتور، بوضوح، "علينا أن نبحث عنها؛ بسرعة جميعًا."

حسنًا، يمكنني أن أسرع أيضًا، فكرت، ركضت مع الرواق الذي يؤدي إلى الصالون الصغير، حيث أضاءت لها النار قليلًا عندما فتحت الباب، وبيادق الشطرنج في المكان الذي تركها لوك والدكتور عليه في لعبتهما. الوشاح الذي كانت ترتديه ثيودورا ملقى على مقعدها من الخلف؛ يمكنني أن أتدبّر هذا أيضًا، فكرت، حلية خادمتها المثيرة للشفقة، وضعت أحد طرفيه بين أسنانها وسحبته، مزقته، ثم ألقته عندما سمعت أصواتهم وراءها على الدرج. كانوا قادمين جميعهم، متوترون، يخبر أحدهم الآخر أين يبدأون البحث، ينادون، "إلينور؟ نيل؟"

"قادمة؟ قادمة؟" سمعت من مكان بعيد، من مكان آخر في المنزل، سمعت صوت اهتزاز الدرج تحت أقدامهم، وحركة جدجد في الحديقة. جريء، وغد، ركضت عبر الرواق مجدّدًا باتجاه الردهة وحدجتهم بنظرة من المدخل. كانوا يتحركون بحذر، معًا، محافظين على بقائهم بالقرب من

بعضهم، ومصباح الدكتور يطوف الردهة، توقف عند الباب الأمامي الذي كان مفتوحًا على مصراعيه. حينها، انطلقوا منادين "إلينور، إلينور،" هرعوا جميعهم متجاوزين الباب الأمامي، يبحثون وينادون، والمصباح يتحرك بعشوائية. أمسكت إلينور بالباب وضحكت حتى امتلأت عيناها بالدموع؛ يالهم من حمقى، فكرت، نخدعهم بسهولة. بطيئون، صم، مهمومون جدًا؛ يتخبّطون حول المنزل، يتطلّعون، يتحسّسون بأيديهم ويتعثرون. عبرت الردهة ركضًا إلى حجرة الألعاب، ثم إلى حجرة الطعام، ومن هناك إلى المطبخ ذي الأبواب. المكان ملائم هنا، فكرت، يمكنني أن أنطلق بأي اتجاه حينما أسمعهم. عندما عادوا إلى الردهة الأمامية، يتخبّطون وينادونها، هرعت مسرعة إلى الشرفة في الليل البارد. وقفت مسندة ظهرها إلى الباب، ضباب منزل التلّ يتحلّق حول كاحليها، رفعت بصرها إلى التلال الضخمة. هجست بأن منزل التلّ محظوظ، تحيطه التلال وهو مرتاح، دافئ في مأمن.

"إلينور؟" بدا من الصوت أنهم قريبون جدًا، عبرت الشرفة ركضًا إلى المرسم، "هيو كراين،" قالت، "هل ستأتي وترقص معي؟" انحنت محيّيةً التمثال الضخم المائل، فأضاءت عيناه وألقت الضوء عليها؛ بعض الضوء المنعكس لمس المجسمات الصغيرة والمقاعد المذهّبة، رقصت بوقار أمام هيو كراين، الذي كان يشاهدها، مضيئًا. "ادخلي واخرجي من النوافذ،" غنّت، شعرت بأن يديها قد أمسكت بينما هي ترقص. "ادخلي واخرجي من النوافذ،" واصلت الرقص حتى خرجت إلى الشرفة، ثم طافت بالمنزل رقصًا. تطوف بالمنزل، تطوف وتطوف، فكرت بأن لا أحد منهم يستطيع أن يراها. لمست باب المطبخ أثناء عبورها، على بعد ستة أميال ارتجفت السيدة دودلي في نومها. قصدت البرج، مصرة على عناق المنزل، مصرة على إحكام السيطرة على المنزل، مشت ببطء بجانب حجارته الرمادية، غير مسموح لها

بلمس الخارج حتى. استدارت ووقفت أمام المدخل الضخم؛ الباب مغلق مجدّدًا، مدت يدها وفتحته دون جهد يذكر. هكذا أدخل منزل التلّ، أخبرت نفسها، خطت داخله كأنها منزلها. "ها أنا هنا،" جهرت بصوتها. "طفت المنزل كله، دخلت وخرجت مع النوافذ، ورقصت..."

"إلينور؟" كان صوت لوك، فقالت، من بينهم كلهم لا أفضل أن يمسك بي لوك؛ لن أدعه يراني، هجست برجاء، استدارت وركضت، دون توقف، إلى المكتبة.

ها أنا هنا، قالت. أنا هنا في الداخل. الجو ليس باردًا على الاطلاق، بل دفء حنون وشهي. كانت المكتبة مضاءة بما يكفي لترى الدرج الحديدي يستدير إلى قمة البرج، والباب الصغير في الأعلى. تحركت الأرضية الحجرية تحت قدميها ببطء، تتمسّح في باطن قدميها، وحولها الهواء العليل يلمسها، يطيّر شعرها، يتدفق على أصابعها، يدخل إلى فمها عبر نفس بسيط، وهي تدور راقصةً. لا يوجد أسود صخريّة من أجلي، فكرت، ولا أشجار دفلى؛ لقد كسرت تعويذة منزل التلّ ودخلته بطريقةٍ ما. أنا في بيتي، فكرت، وتوقفت عند هذه الفكرة. أنا في بيتي، أنا في بيتي، هجست، لأتسلّق الآن.

تسلق الدرج الحديدي الضيق كان مسكرًا. أن ترتفع أكثر فأكثر، تنعطف وتنعطف، تنظر إلى الأسفل، تتشبث بالدرابزين الحديدي النحيل، تنظر من علو شاهق إلى الأرضية الحجرية. تتسلق، تنظر إلى الأسفل، تفكر بالعشب الأخضر الغض في الخارج، بالتلال المتكومة، الأشجار الغنّاء. نظرت إلى الأعلى، فكرت في برج منزل التلّ يعلو بانتصار بين الأشجار، طويل على الطريق الذي يقطع هيلزديل ويمر بالمنزل الأبيض المحاط بالزهور والدفلى السحرية والأسود الحجرية ويستمر بعيدًا، بعيدًا جدًا، إلى السيدة الصغيرة التي كانت ستصلي من أجلها. انتهى الوقت الآن، فكرت، كل هذا قد مضى

وتركته خلفي، وتلك السيدة المسكينة، ما تزال تصلي، من أجلي.

"إلينور!"

لم تستطع تذكر من هؤلاء لبرهة (هل هم ضيوفها في منزلها ذي الأسود الحجرية؟ يتناولون الطعام على طاولتها تحت ضوء الشموع؟ هل قابلتهم في الحانة، فوق النهر الجاري؟ هل عبر أحدهم تلة خضراء، لوحاتها ترفرف؟ هل ركض أحدهم بجانبها في الظلام؟ ثم تذكرتهم، سقطوا في المساحات التي ينتمون إليها في ذاكرتها.) ترددت، تشبثت في الدرابزين. كانوا بالغي الصغر، غير مؤثرين. يقفون في الأسفل البعيد على الأرضية الحجرية، ويشيرون إليها؛ إنهم ينادونها، أصواتهم فزعة وبعيدة.

"لوك،" قالت، متذكرة. استطاعوا سماعها، إذ كانوا هادئين عندما تحدثت. "دكتور مونتاغيو،" قالت. "السيدة مونتاغيو. آرثر." لم تستطع أن تتذكر الأخرى، من تقف صامتة ونائية قليلًا.

"إلينور،" نادى دكتور مونتاغيو، "استديري بحذر، واهبطي الدرجات ببطء. تحركي ببطء شديد، إلينور. تمسكي بالدرابزين حتى تصلي. هيّا استديري وانزلي."

"ماذا تفعل هذه المخلوقة بحق السماء؟" استفسرت السيدة مونتاغيو. كان شعرها مموجًا، وعلى ردائها تنين عند البطن. "انزلوها حتى نعود إلى أسرتنا. آرثر، أنزلها حالًا."

"انظروا هنا،" تحدّث آرثر، تقدم لوك إلى أسفل الدرج وبدأ الصعود.

"بحق الرب كن حذرًا،" قال الدكتور بينما يمضي لوك بثبات. "هذا الشيء غير مرتبط بالجدار."

"لن يحملكما معًا،" قالت السيدة مونتاغيو بثقة. "ستنزلها على رؤوسنا.

آرثر، اذهب بالقرب من الباب هناك."

"إلينور،" نادى الدكتور، "هل يمكنكِ أن تستديري وتنزلي ببطء؟"

لم يكن فوقها سوى الباب الصغير الذي يقود للبريج؛ وقفت إلينور على المساحة الضيقة في الأعلى وضغطت على الباب، لكنه لم يتحرك. طرقته بقبضتها عاجزة، تفكر بعمق، افتح، افتح، وإلا سيمسكون بي.

نظرت بنصف التفاتة، رأت لوك يصعد بثبات، ينعطف وينعطف. "إلينور،" قال، "قفي ساكنة، لا تتحركي." بدا أنه فزع.

لا يمكنني أن أهرب، هجست، نظرت إلى الأسفل؛ رأت وجهًا واحدًا بوضوح، فجاء الاسم إلى ذهنها. "ثيودورا،" قالت.

"نيل، افعلي ما يأمرونكِ به، أرجوكِ."

"ثيودورا؟ لا أستطيع أن أخرج؛ قد سُمِّر الباب على إغلاقه."

"اللعنة، نعم لقد سمر،" قال لوك. "ومن حسن حظكِ، أيضًا، صغيرتي." قال وهو يصعد، يتقدم ببطء، وصل تقريبًا إلى المساحة الضيقة. "ظلي ساكنة تمامًا،" قال.

"ظلي ساكنة تمامًا، إلينور." قال الدكتور.

"نيل،" قالت ثيودورا. "أرجوكِ، افعلي ما يقولون."

"لماذا؟" نظرت إلينور إلى الأسفل ورأت دوار البرج تحتها، الدرج الحديدي يتشبث في جدران البرج، يضطرب وينسحق تحت قدمي لوك، رأت الأرضية الحجرية الباردة، والوجوه الشاحبة البعيدة المحدقة. "كيف سأنزل؟" سألت عاجزة. "دكتور - كيف أنزل؟"

"تحركي بتأنٍ،" قال. "افعلي ما يخبركِ به لوك."

"نيل،" قالت ثيودورا، "لا تخافي. سيكون كل شيء على ما يرام، حقًا."

"بالطبع سيكون كل شيء على ما يرام،" قال لوك ممتعضًا. "على الأرجح سيكسر عنقي وحسب. تمسكي، نيل؛ سآتي إليك. أريد أن أتجاوزكِ وأقف وراءكِ حتى يمكنكِ النزول أمامي."

لم يبد عليه اللهاث، رغم التسلق، لكن يده ارتجفت عندما مدها ليمسك الدرابزين، ووجهه كان متعرقًا.

"تعالي،" قال بحدة.

تراجعت إلينور. "في آخر مرة أخبرتني بأن أمضي أمامك لم تتبعني أبدًا،" قالت.

"على الأرجح سأدفعكِ مع الحافة،" قال لوك. "لتتهشمي في الأسفل على الأرض. الآن احترمي نفسكِ وانزلي ببطء؛ تجاوزيني واهبطي الدرج. ولتأملي،" أضاف غاضبًا، "أنني سأستطيع مقاومة رغبة ركلكِ."

تقدمت بانصياع، عبرته بجانب الجدار الحجري بينما تحرك لوك بحذر في الاتجاه المعاكس. "انزلي،" قال، "سأكون خلفكِ مباشرة."

كان الدرج الحديدي غير آمن، يهتز ويصر مع كل خطوة، كانت تحس بطريقها. نظرت إلى كفها شاحبة على الدرابزين، لأنها متشبثة بقوة، ثم إلى قدميها العاريتين، تتقدم إحداهما كل مرة، خطوة خطوة، بحذرٍ شديد، لكنها لم تنظر مرة أخرى إلى الأرضية الحجرية أبدًا. اهبطي بتأنٍ، قالت لنفسها مرارًا وتكرارًا، دون أن تفكر بشيء آخر غير العتبات التي يبدو أنها تنعطف وتلتوي تحت أقدامها، اهبطي ببطء شديد جدًا جدًا. "تماسكي،" قال لوك خلفها. "اهدئي، نيل، لا يوجد ما يخيف، اقتربنا."

مدّ الدكتور وثيودورا أذرعهما تحتها لا إراديًا، كأنهما مستعدان لالتقاطها

بمجرد سقوطها، حينما تعثرت إلينور وتجاوزت عتبة، تأرجح الدرابزين بينما حاولت التشبث به، شهقت ثيودورا وهرعت إلى أسفل الدرج تمسك به. "كل شيء على ما يرام، نيلّي،" قالت مرة بعد مرة، "كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام."

"القليل بعد،" قال الدكتور.

متأنية، وضعت إلينور قدمها، خطوة بعد خطوة، وأخيرًا، قبل أن تصدق ما يحدث، وضعت قدمها على الأرضية الحجرية. خلفها اضطرب الدرج وأصدر صوتًا عندما قفز لوك الدرجات الأخيرة، ذرع الحجرة باتزان، تعثر بمقعد، نهض مخفضًا رأسه وهو يرتجف. استدارت إلينور ونظرت إلى الأعلى حيث البقعة الصغيرة الشاهقة التي كانت تقف فيها، أعلى الدرج الحديدي، الذي ينعطف ويميل ويتأرجح بجانب جدار البرج، قالت بصوتٍ خفيض، "لقد صعدت، صعدته كله."

تقدمت السيدة مونتاغيو بحذر من المدخل الذي احتمت هي وآرثر به من انهيار الدرج المحتمل. "هل يوافقني أحد منكم،" قالت بترو، "في الاعتقاد بأن هذه الشابة أزعجتنا هذه الليلة بما يكفي؟ أنا، مثلًا، أود أن أعود إلى سريري، وآرثر أيضًا."

"منزل التلّ" قال الدكتور.

"حتمًا قد أفسد هذا الهراء الصبياني فرصة حدوث أي ظاهرة هذه الليلة، أقول لكم. بالتأكيد لا أتطلع لرؤية أحد الأصدقاء من العالم الآخر، بعد هذا الأداء المضحك، لهذا أستأذنكم- إذا كنتم واثقين من انتهائكم من ادعائكم وأدائكم وإيقاظكم الأشخاص المشغولين- لقول ليلة طيبة. آرثر." ابتعدت السيدة مونتاغيو، زمجر التنين، واهتزّ غاضبًا.

"كان لوك خائفًا،" قالت إلينور، وهي تحدق في ثيودورا والدكتور.

"كان لوك فزعًا بالتأكيد،" أكد لوك من ورائها. "كان لوك فزعًا حد أنه لم يكد يُنزل نفسه من هناك. نيل، أي بلهاء أنتِ."

"أود أن أتفق مع لوك." كان الدكتور مستاءً، أشاحت إلينور بصرها عنهما، نظرت إلى ثيودورا، فقالت ثيودورا، "أظن أنكِ مجبرة على هذا، نيل؟"

"أنا بخير،" قالت إلينور، ولم تستطع أن تنظر إلى أحد منهم. نظرت، متفاجئة، إلى قدميها الحافيتين، مدركة فجأة أنهما حملاها دون أن تشعر، عبر الدرج الحديدي. فكرت، وهي تحدق في قدميها، ثم رفعت رأسها. "نزلت إلى المكتبة حتى آخذ كتابًا." قالت.

(2)

تجاهلوا الأمر بشكل فاجع ومهين. لم يقل أحد شيئًا على الإفطار، قُدِّمت لإلينور القهوة والبيض واللفائف كالبقية. سمح لها بالجلوس بعد القهوة مع بقيتهم، تتأمل ضوء الشمس في الخارج، يعلقون على اليوم الجيد الذي ينتظرهم؛ لبضع دقائق قد اقتنعت بأن شيئًا لم يحدث. مرر لها لوك حلوى المرمالاد، ابتسمت ثيودورا لها من فوق رأس آرثر، حيّاها الدكتور. ثم، بعد الفطور، بعد أن دخلت السيدة دودلي عند العاشرة، نهضوا دون تعليق، وراء بعضهم بصمت، قاصدين الصالون الصغير، جلس الدكتور في مقعده أمام الموقد. كانت ثيودورا ترتدي كنزة إلينور الحمراء.

"سيجلب لوك سيارتكِ،" قال الدكتور بلطف. بالرغم ممّا تفوّه به، كانت عيناه حانيتين ولطيفتين. "ستصعد ثيودورا وتحزم أمتعتكِ."

قهقهت إلينور. "لا تستطيع. لن يتبقى لديها ما ترتديه."

"نيل-" تحدثت ثيودورا، ثم توقفت وحدجت بنظرة السيدة مونتاغيو، فهزت هذه كتفيها وقالت: "لقد تفحصت الغرفة، طبيعية. لا أصدقِ أن لا أحد منكم قد فكّر في تفحصها."

"كنت سأفعل،" قال الدكتور معتذرًا. "لكن ظننت"

"تظن دائمًا، جون، وهذا مأزقك. بالطبع تفحصت الغرفة فورًا."

"غرفة ثيودورا؟" سأل لوك. "لم أود دخولها مرة أخرى."

بدا أن السيدة مونتاغيو تفاجأت. "لا أفهم لم لا،" قالت. "لا يوجد خطب بها."

"دخلت ونظرت إلى ملابسي،" قالت ثيودورا للدكتور. "جميعها بأحسن حال."

"الغرفة تحتاج إلى الكنس، بالطبع، لكن ماذا تتوقعون بعد أن أغلقتم الغرفة ولم تعد السيدة دودلي قادرة على"

ارتفع صوت الدكتور على صوت زوجته. " لا يمكنني أن أخبركِ كم أشعر بالأسف،" قال. "إن كان هنالك شيء أستطيع فعله..."

ضحكت إلينور. "لكن لا أستطيع أن أغادر،" قالت. متسائلة كيف تعثر على كلماتٍ تفسر هذا.

"لقد أقمتِ هنا بما يكفي،" قال الدكتور.

حدقتها ثيودورا. "لا أحتاج إلى ملابسكِ،" قالت بطولةٍ بال. "ألم تسمعي السيدة مونتاغيو للتوّ؟ لا أحتاج إلى ملابسكِ، وحتى لو احتجت إليها لن أرتديها بعد الآن؛ نيل، عليكِ الذهاب من هنا."

"لكنني لا أستطيع أن أغادر،" قالت إلينور، وهي ما تزال تضحك، لأنه

من المستحيل تمامًا أن تفسّر هذا.

"مدام،" قال لوك بسأم، "لم يعد مرحب بكِ هنا بصفتكِ ضيفة عندي."

"ربّما من الأفضل أن يعيدها آرثر إلى المدينة. حتى يتأكد من أنها وصلت بأمان."

"أصل إلى أين؟" هزت إلينور رأسها، شعرت بشعرها الكثيف الجميل حول وجهها. "أصل إلى أين؟" سألت بسعادة.

قال الدكتور: "إلى المنزل طبعًا،" ثم قالت ثيودورا: "نيل، مكانكِ الصغير، شقتكِ، حيث كل أشيائكِ،" فضحكت إلينور.

"ليس لدي أي شقة،" قالت لثيودورا. "اختلقت هذا. في الحقيقة أنام على فراش في شقة أختي، في حجرة طفلتها. ليس لدي أي بيت، لا مكان على الإطلاق. كما لا أستطيع العودة إلى شقة أختي لأنني قد سرقت سيّارتها." ضحكت، وهي تستمع إلى كلماتها، شعرت بحزنٍ لا يعبر عنه ولا يفسر. "ليس عندي أي بيت." كرّرت، ونظرت إليهم بأمل. "لا أمتلك بيتًا، كل ما أمتلكه في هذا العالم موجود في صندوق في مقعد سيارتي الخلفي. هذا كل ما أملكه، بعض الكتب والأشياء التي حصلت عليها عندما كنت طفلة صغيرة، وساعة منحتني إيّاها أمي. كما ترون، لا يوجد مكان ترسلونني إليه."

أرادت أن تخبرهم أن بمقدورها أن تمضي، وهي تشاهد وجوههم المحدقة المذعورة. يمكنني أن أرحل وأرحل، أترك ملابسي لثيودورا؛ يمكنني أن أتجول مشردة، ضالة، لكنني سأعود دائمًا إلى هنا. سيكون من الأسهل أن تدعوني أبقى، هذا منطقي أكثر، أرادت أن تخبرهم، وأصير أسعد.

"أريد أن أبقى هنا." قالت لهم.

"لقد تحدثت مع الأخت،" قالت السيدة مونتاغيو. "لا بد أن أقول بأنها

سألت أول ما سألت عن السيارة. إنسان بذيء؛ أخبرتها ألّا تقلق. لقد أخطأت، جون، أخطأت جدًا بجعلها تسرق سيارة أختها وتجيء إلى هنا."

"عزيزتي،" قال دكتور مونتاغيو، ثم توقّف، مشرعًا يداه بيأس.

"على كل حال، إنها ضيفة. كانت الأخت غاضبة جدًا مني لأنهم كانوا يخططون لبدء عطلتهم اليوم، مع هذا لماذا تغضب مني..." عبست السيدة مونتاغيو في وجه إلينور. "أظن أن على أحد أن يتأكد من وصولها سالمة إلى أيديهم." قالت.

هزّ الدكتور رأسه. "سيكون خطأ،" قال ببطء. "ليس من الصواب أن نرسل أحدنا معها. يجب أن تتمكن من نسيان كل ما يتعلق بمنزل التلّ بأسرع ما يمكن؛ لا يمكننا أن نطيل الارتباط. حينما تبتعد من هنا، ستستعيد نفسها مجدّدًا؛ هل يمكنكِ أن تدلي بيتكِ؟" سأل إلينور، فضحكت.

"سأصعد وأنهي حزم الأمتعة،" قالت ثيودورا. "لوك، افحص سيارتها وأحضرها؛ لديها حقيبة واحدة."

"حوصرت بالجدران حيّة،" قالت إلينور وهي تضحك في وجوههم المتصلبة. "حوصرت بالجدران حيّة،" قالت. "أود أن أبقى هنا."

(3)

لقد صنعوا صفًا على طول عتبات منزل التلّ، يحرسون الباب. يمكنها أن ترى النوافذ تطرق النظر من فوق رؤوسهم، في الجهة الأخرى ينتظر البرج بثقة. لو أنها فكرت في كلمة تخبرهم السبب لصرخت بها؛ لكن بدلًا من هذا، ابتسمت مكسورة للمنزل، محدقة في نافذتها، في وجه المنزل المضحك، يرقبها بهدوء. كان المنزل ينتظر، قالت، كان ينتظرني، لا أحد غيري يستطيع أن

يرضيه. "المنزل يريد أن أبقى،" قالت للدكتور، فحدق بها. كان واقفًا بحزم ووقار، كأنه يتوقع أن تختاره بدلًا من المنزل، كأنه قد يستطيع كما جلبها إلى هنا، فكر، بإرشاداته الواضحة أن يعيدها مجدّدًا. كان قد أدار ظهره للمنزل مباشرةً، تطلعت إليه بصدق، قالت، "أنا آسفة، آسفة بشدة، حقًا."

"ستذهبين إلى هيلزديل،" قال بالتدريج، ربما أنه خائف من قول الكثير، ربما ظن أن كلمة ما، أو نبرة متعاطفة، قد تورطه وتعيدها.

كانت الشمس مشرقة على التلال والمنزل والحديقة والبستان والأشجار والجدول، أخذت إلينور نفسًا عميقًا واستدارت، لتشاهد هذا كله. "في هيلزديل انعطفي للطريق خمسة المتجه للشرق، عند أشتون ستجدين طريق تسعة وثلاثون، هذا سيأخذكِ إلى البيت. من أجل سلامتكِ،" أضاف على عجلة، "من أجل سلامتكِ، عزيزتي، صدقيني، لو أنني توقعت هذا "

"أنا آسفة جدًا حقًا،" قالت.

"لا يمكننا أن نخاطر، تعلمين، أي مخاطرة. للتو أدركت أي مخاطرة مريعة كنت أطلب منكم جميعًا. الآن..." تنهد وهز رأسه. "هل ستتذكرين؟" سألها، "إلى هيلزديل، ثم الطريق خمسة -"

"انظر،" صمتت إلينور لبرهة، راغبة أن تخبرهم جميعهم بالأمر. "لم أكن خائفة،" قالت أخيرًا. "لم أكن خائفة حقًا، أنا بخير الآن. كنت - سعيدة." نظرت بحماس للدكتور. "سعيدة،" قالت. "لا أعلم ماذا أقول،" قالت، خائفة مجدّدًا من أنها ستبكي. "لا أريد أن أبتعد عن هذا المكان."

"قد يكون هنالك مرة قادمة،" قال الدكتور بصرامة. "ألا تفهمي بأننا لا يمكن أن نخاطر هذه المخاطرة؟"

انهارت إلينور. "إحداهن تصلي من أجلي،" قالت بحماقة. "سيدة التقيتها

قبل زمن طويل."

كان صوت الدكتور لطيفًا، لكنه كان يضرب الأرض بقدمه بانزعاج. "ستنسين هذا كله قريبًا،" قال. "يجب عليكِ نسيان كل ما يتعلق بمنزل التلّ. لقد أخطأت حين جلبتكِ إلى هنا،"

"منذ متى ونحن هنا؟" سألت إلينور فجأة.

"منذ أسبوع وقليل، لماذا؟"

"إنها الفترة الوحيدة التي حدث لي فيها شيء ما على الاطلاق. أحببتها."

"لهذا،" قال الدكتور، "تغادرين بهذه السرعة."

أغمضت إلينور عينيها وتنهّدت، تحس بالمنزل، تسمعه وتتنفّسه؛ كان لغصن مزهر وراء المطبخ ثقل في هذه الرائحة، وماء الجدول يتدفق فوق الحجارة. بعيدًا، في الطابق الأعلى، ربّما في الحضانة، موجة هواء جمعت نفسها وهبّت على الأرضية، تحمل الغبار. في المكتبة، تأرجح الدرج الحديدي، ضوء سقط على عيني هيو كراين الرخامية؛ قميص ثيودورا معلق وهو مكوي ونظيف، كانت السيدة دودلي تعد مائدة الغداء لخمسة. منزل التلّ يراقب، صبورًا متغطرسًا. "لن أغادر،" قالت إلينور للنوافذ المرتفعة.

"ستغادرين،" قال الدكتور مبديًا نفاد صبره أخيرًا. "وفورًا."

ضحكت إلينور، واستدارت، مادةً يدها. "لوك،" قالت، فتقدم باتجاهها، صامتًا. "شكرًا لك لأنك أنزلتني ليلة البارحة،" قالت. "كان خطأ مني. أدركت هذا الآن، لكنك قد كنت بطلًا."

"كنت مكرهًا،" قال لوك. "لقد تجاوز أي تصرف شجاع فعلته في حياتي كلها. أيضًا أنا مسرور برؤيتكِ تغادرين، نيل، لأنني بالتأكيد لن أفعل هذا

مرة أخرى أبدًا."

"حسنًا، يبدو لي،" قالت السيدة مونتاغيو، "إذا كنتِ ستغادرين يفضل أن تذهبي الآن. ليس لدي خلاف مع التوديع، رغم هذا أشعر شخصيًا أن لديكم جميعًا رأي متضخم حول هذا المكان، لكنني أظن أن لدينا أشياء أفضل لنفعلها بدلًا من الوقوف هنا نتجادل بينما نعرف جميعًا أن عليكِ المغادرة. خلال وقت، ستعودين إلى المدينة، أختكِ تنتظر أن تبدأ عطلتها."

أومأ آرثر. "وداعات تدمي القلب،" قال. "لا تنساقي معهم، يا نفسي."

بعيدًا، في الصالون الصغير، سقط رماد في المدفأة بنعومة. "جون،" قالت السيدة مونتاغيو، "ربما من الأفضل لو أن آرثر ..."

"لا،" قال الدكتور بحزم. "على إلينور أن تعود من حيث جاءت."

"ومن أشكر على الوقت الجميل؟" سألت إلينور.

أمسكها الدكتور من يدها، لوك يقف بجانبها، اقتادها إلى السيارة وفتح الباب لها. ما يزال الصندوق في المقعد الخلفي، حقيبتها على الأرضيّة؛ كان لوك قد ترك المحرك يعمل.

"دكتور،" قالت إلينور متشبثةً به، "دكتور."

"أنا آسف،" قال. "وداعًا."

"قودي على مهلكِ،" قال لوك بأدب.

"لا يمكنك أن تجبرني على المغادرة،" قالت بهياج. "لقد أحضرتني إلى هنا."

"وأنا أبعدكِ الآن،" قال الدكتور. "لن ننساكِ، إلينور، لكن ما يهم الآن هو أن تنسي منزل التلّ وتنسينا جميعًا. وداعًا."

"وداعًا،" قالت السيدة مونتاغيو، بجفاء من العتبة، وقال آرثر، "وداعًا، رحلة طيبة."

ثم توقفت إلينور واستدارت، ويدها على باب السيارة. "ثيو؟" قالت متسائلةً، هرعت ثيودورا إليها ركضًا من العتبة.

"ظننت أنكِ لن تقولي لي وداعًا،" قالت. "أوه، نيلي، نيلّي- كوني سعيدة؛ أرجوكِ كوني سعيدة. لا تنسيني، حقًا، يومًا ما سيصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى، وستكتبين لي رسائلًا أجيبها، سنتزاور، وسنقضي وقتًا ممتعًا نتحدث فيه عن الأشياء المجنونة التي فعلناها ورأيناها وسمعناها في منزل التلّ- أوه، نيلي! ظننت أنكِ لن تقولي لي وداعًا."

"وداعًا،" قالت لها إلينور.

"نيلي،" قالت ثيودورا بخجل، ومدت يدها لتلمس خد إلينور، "استمعي إلي - ربما يمكننا أن نلتقي هنا مجددًا في أحد الأيام؟ نتنزه بجانب الجدول، لم ننظم نزهتنا،" أخبرت الدكتور، فهز رأسه، متطلعًا إلى إلينور.

"وداعًا،" قالت إلينور للسيدة مونتاغيو. "وداعًا، آرثر. وداعًا، دكتور. أرجو أن يحقق كتابك نجاحًا باهرًا. لوك،" قالت، "وداعًا ووداعًا."

"نيل،" قالت ثيودورا، "أرجوكِ كوني حذرة."

"وداعًا،" قالت إلينور، ركبت إلى سيارتها؛ بدا مريبًا وغير مألوف؛ لقد اعتدت كثيرًا على رفاهية منزل التلّ، فكرت، ثم ذكّرت نفسها أن تلوّح لهم من نافذة السيّارة. "وداعًا،" قالت بصوتٍ عالٍ، متسائلة هل من كلمة أخرى تبقت لها لتقولها، "وداعًا، وداعًا." ارتجفت يدها، تخبطت، رفعت قدمها عن المكبح وتركت السيارة تسير ببطء.

لوّحوا لها من باب الواجب، ما يزالون واقفين، يرقبونها. سيقفون

لمشاهدتي أقطع الطريق حتى أغيب عن أعينهم، فكرت؛ إنه تهذيب منهم أن يتابعوني حتى أغيب عن الرؤية؛ إذًا الآن أغادر. بلقاء الأحبّة ينتهي الترحال. لكنني لن أغادر، فكرت، وضحكت على نفسها بصوتٍ عالٍ؛ ليس منزل التلّ سهلًا بقدرهم، لا يمكنهم اجباري على المغادرة بقولهم اذهبي، ليس عندما يريد منزل التلّ أن أبقى. "غادري، إلينور،" أنشدت بصوتٍ عالٍ، "غادري، إلينور، لم نعد نريدكِ، ليس في منزل التلّ خاصّتنا، غادري، إلينور، لا يمكنكِ البقاء هنا؛ لكنني أستطيع،" غنّت، "لكنني أستطيع؛ لا يمكنهم فرض القوانين هنا، لا يمكنهم طردي أو إبعادي أو السخرية مني أو الاختباء مني؛ لن أغادر، منزل التلّ ينتمي إلي."

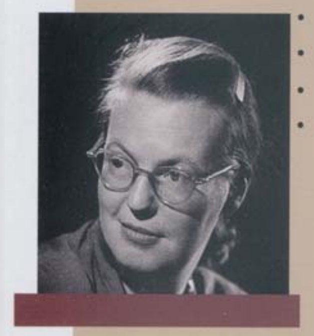
بما عدّته فطنة، ضغطت بقدمها على دوّاسة الوقود؛ لا يمكنهم أن يلحقوا بي بسرعة كافية ليمسكوني هذه المرة، فكرت، لا بد أنهم بدأوا يدركون الآن، أتساءل من لاحظ أولًا؟ لوك، على الأرجح. أستطيع أن أسمعهم ينادون الآن، هجست، الخطى تجري عبر منزل التلّ وصوت التلال يشتد ويقترب. إنني أفعلها حقًا، قالت، مديرة العجلات لترسل السيارة مباشرة إلى الشجرة الضخمة بالقرب من منعطف الزقاق، أنا حقًا أفعلها، أفعل كل هذا بمفردي، الآن، أخيرًا؛ هذه أنا، أنا حقًا حقًا حقًا أفعل شيئًا بمفردي.

في الثانية الأبدية التي سبقت اصطدام السيارة بالشجرة فكرت، بصفاء، لماذا أفعل هذا؟ لماذا أفعل هذا؟ لماذا لم يوقفوني؟

(4)

ارتاحت السيدة ساندرسن بسماعها خبر مغادرة دكتور مونتاغيو وبعثته منزل التلّ؛ كانت ستطردهم، أخبرت محامي العائلة، لو أن دكتور مونتاغيو

أبدى أي إشارة تدل على رغبته في البقاء. صديقة ثيودورا، نادمةً ومعتذرةً، سعدت برؤية ثيودورا عائدة بسرعة؛ غادر لوك إلى باريس، حيث تتوق عمته إلى أن يقيم لبرهة من الزمن. كف دكتور مونتاغيو عن تجاربه البحثية بعد الردود الباردة، والمخيبة تقريبًا على مقالته المبدئية التي تحلل الظاهرة الماورائية لمنزل التلّ. منزل التلّ ذاته، وهو ليس عاقلًا، صمد بمفرده أمام تلاله، محمّلًا بالظلمة في داخله، لقد صمد ثمانين سنة، وقد يصمد ثمانين أخرى. في الداخل، جدرانه ما زالت منتصبة، قرميده يلتقي بإتقان، ألواح الأرضيّة متراصّة، والأبواب مغلقة كما يجدر بها أن تكون؛ يمتد الصمت باطّراد على خشب منزل التلّ وحجره، ومهما يكن ما سار هناك، فإنه سار وحيدًا.



سكنى منزل التل

الخوف..

إنه احجام المنطق، التخلي الطوعي عن المسلمات العقلانية، إما أن تصرخ منه أو تحاربه، لكن لا يمكن أن تلتقيه في الوسط.

ويالها من نعمة، أن تعلم أن الكائنات في منزل التل تنتظر فرصة لتقص حكاياتها، وتحرر نفسها من الدفن تحت البؤس، إنها قصة أربعة أشخاص في مواجهة الظلام، في مواجهة أنفسهم قبل كل شيء، لاكتشاف ذواتهم قبل أن يكشف المنزل عن نفسه."

الناشر

"شيرلي جاكسن واحدة من الكتّاب المتفرّدين الذين لا يُضاهون، من ليس لهم إنجازات ضخمة ولا طموحة ولا بالغة التأثير مثل "العظماء" -ميلفل، جيمس، هيمنغواي، وفوكنر-، من أولئك الذين تُلقي أعمالهم تعويذةً أبديّة."

جويس كارول أوتس.

"تعد سكنى منزل التلّة ودورة اللولب لهنري جيمس الروايتان الوحيدتان العظيمتان من روايات الماورائيات خلال المائة عام الماضية. "

ستيفن كنغ.

"سكنى منزل التلّة"، الرواية الخامسة في مسيرة الروائية والقاصّة الأميركيّة شيرلي جاكسن وإحدى أكثر أعمالها شهرة، نشرتها عام 1959م. بدأت مسيرتها الأدبيّة بقصة "اليانصيب" التي نُشرت عام 1948م في مجلّة "ذي نيويوركر"، توالت بعدها أعمالها إلى أن ماتت عام 1965م في عمر الثامنة والأربعين بسكتة قلبيّة أثناء نومها.


9 781947 836129

Cover Design by
Hany Saleh



@darathar
#رواية_سكنى_منزل_التل